المنخورة

الحقوق كافة
محـــفـــوظـة
لاتـحــاد الـكـتّـاب
العرب

البريد الالكتروني: unecriv@net.sy
E-mail :
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

الغلاف : ميرنا اوغلانيان

❑❑

عبد الإله الرحيل

المنخـــورة

* روايـــــــــة *

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2002

افتتاحية لهذه الرواية:

*... "ليت عيني خُلقتا من الصخر، ليت مشاعري خلقت من بلادة الشمس...
... ما أفظع أن تكون مبصراً وقارئاً، ثم لا تكون حزيناً ولا ناقداً...
ما أفظع أن تكون عاجزاً عن المقاومة، عاجزاً عن الحزن والبكاء، عاجزاً عن الغضب والرؤية..
... إن الإنسان هو وحده الذي يبكي، وحده الذي ينقد، وحده الذي يفكر، وحده الذي يتعذب بالرؤية والتفكير والخيال والنظرية؛ هو وحده الذي يرى دمامة العذاب ووقاحة اللذّة..."

من كتاب: عاشق لعار التاريخ
لعبد الله القصيمي

*((مالَهُ يَنْشَقُّ فينا البيتُ بَيْتَينِ
ويجري البحرُ ما بَيْنَ جديدٍ وعتيقْ
صرخةٌ، تقطيعُ أرحامٍ،
وتمزيقُ عروقْ،
كيف نبقى تحتَ سقفٍ واحدٍ
وبحارٌ بيننا.. سورٌ..
وصحراءُ رمادٍ باردٍ
وجليدْ.
ومتى نطفرُ من قبوٍ وسجنِ
ومتى، ربَّاهُ، نشتدُّ ونبني
بيدينا بيتنا الحُرَّ الجديد...))
(د. خليل حاوي)

القسم الأول

1

هوذا الموعد يأزف لتلك الرقصة الجماعية..

وها هم يتقدمون بلهف حار- على عادتهم في نهاية موسم الحصاد باتجاه "ساحة المهابيل".

ها هم يتقدمون ونفوسهم وأجسادهم ترنو إلى الغناء والرقص. كل شيء سيكون جاهزاً بعد أن يبدأ "طه الأعمى" بقرع طبله.. إشارات استعداد.

في ذلك المساء، الذي من المتوقع أن يكون كبقية الأماسي وبعد أن تختفي الشمس وراء الجبل، تشتبك الأيدي ويتعانق الفرح وتعلو الأصوات بغناء المنخورة الذي يملأ النفوس بالأمل القادم حيث يودّعون موسماً وفيراً ليستقبلوا موسماً وفيراً آخر.

.. لكن ذلك المساء، لم يكن كبقية الأماسي.

إنه منعطف في تاريخ المنخورة!

...

والمنخورة مجرد قرية، تنوس بين فعلين ماضيين ناقصين هما:

/كانت/ و/صارت/:

(كانت وصارت).. والسؤال الذي يجلس متربعاً بطمأنينة في تلافيف الدماغ هو: هل نبدأ من (كان) أم نبدأ من (صار)؟.. وربما من قبيل الاستطراد أن نتساءل:

-هل نبدأ من طواحين إسماعيل المدهون؟

-هل نبدأ من محل الحدادة الذي يملكه صالح الوالبي؟

-هل نبدأ بجغرافية المنخورة أم بتاريخها أم نبدأ من منيرة؟

إن ذلك يبدو متعباً..

*

المنخورة... مجرد قرية لكنها تتميز بتاريخها أكثر من موقعها الجغرافي؛ إنها تطلّ من ناحية الشرق على الصحراء ومن الشمال تحاصرها سلسلة جبال ليست شاهقة الارتفاع، أما من الجنوب فهي تستريح بعيونها حيث البساتين، بما فيها من عنب وتين وزيتون وتلك المساحة الشاسعة حيث سنابل القمح والشعير في كل عام.

وإذا ما حاول المرء أن يتأملها من الداخل، فإنه يقف مدهوشاً لواديها، الذي يقسمها إلى قسمين: شرقية وغربية.

ذلك الوادي، لا تكاد تخلو المياه منه في فصل الشتاء، أو بكلمات أكثر دقة، هو دائم الفيضان بما تجلبه إليه الجبال من الجهة الشمالية، فقد يرتفع منسوبه إلى أكثر من أربعة أمتار أحياناً، وتحفّ به من الجانبين أشجار الكينا والحور والصنوبر، وإذا ما تلاشت مياه الأمطار في فصل الصيف، فإن نهر القرية الذي تتدفق مياهه غزيرة، هو روح المنخورة الذي يسقي بساتينها وأراضيها، كما أنه روح الطواحين التي أقيمت عليه ليطحن الفلاحون قمحهم وشعيرهم.

إنها ثلاث طواحين، يفصل بينها محل للحدادة.

وعلى الرغم من امتداد المنخورة واتساعها، فإن المرء لا يجد كبير عناء ليعرف أن تلك الطواحين يملكها إسماعيل المدهون، وأن محل الحدادة يملكه صالح الوالبي.

.. إسماعيل المدهون الذي مات ميتة غريبة في الخمسين من عمره، كان يبدو أصغر من عمره، فهو ضخم الجثة عريض الكتفين، كرشه ممتلئة، عيناه صغيرتان سوداوان، فمه متسع، يحاول تغطيته بشاربين كثيفين، أبيض البشرة، متورّد الخدين، كان يبدو فخوراً بداره التي بناها من الحجر الأبيض مكان بيوت المنخورة الطينية، لكنه يزهو- إلى درجة الخيلاء- بالحديقة الفسيحة التي امتدت في باحة الدار، فهناك إضافة إلى عرائش العنب، أشجار البرتقال والليمون والزيتون.. والورود.

لم يستطع إسماعيل المدهون بدايةً، إلا أن يشتري طاحونة واحدة، لكن أرباحها مكّنته من شراء الطاحونتين الأخريين ومع هذا كان يبدو متضايقاً من محل صالح الوالبي الذي كان حاجزاً بين طواحينه.. ولهذا، فإنه ظل يتساءل: كيف يمكنه شراء ذلك المحل لتحويله إلى طاحونة أخرى. إنه على استعداد أن يدفع ما يطلبه صالح الوالبي، لكن السؤال الذي كان يقلق إسماعيل المدهون هو: كيف يمكنه أن يتغلب على موقف الرفض الذي يقابله به صالح الوالبي كلما لمّح لـه بالبيع فهو رجل عنيد لا يزحزحه رنين الليرات الذهبية ولا لمعانها؟

*

لم يكن إسماعيل المدهون يخجل من أنه عمل في خدمة كلاب السيدة غاملان (زوجة الكولونيل الفرنسي غاملان) حيث إستطاع أن يأكل أفضل من الآخرين وأن يجمع مالاً أكثر؛ حتى أنه عندما رآها في موقف مبتذل مع كلبها فقد حصل على ليرتين ذهبيتين دفعة واحدة ثمناً لسكوته، كما استطاع أن يحتكر الكاز الذي عزّ عليه الطلب وصار يقرر الثمن الذي يريد!!

.. بعد ذلك استعان إسماعيل المدهون ببعض الجنود من المرتزقة (الذين كانوا يعملون في خدمة الجيش الفرنسي) ليضغط على صالح الوالبي، الذي لم ينفع معه أسلوب الترغيب. فاضطر صالح الوالبي، تحت تهديد السلاح أن يبيع محله.

لم يطلب صالح الوالبي شيئاً من إسماعيل المدهون، لكنه قال، وهو يضغط على فكّيه:

-يا إسماعيل!.. لن تشبع. أقسم بالله لن يشبعك إلا التراب. سأبيعك ولكن لا بدَّ من رجال يقرّرون الثمن!

في مساءٍ ما، باع صالح الوالبي محله، ليجد محلاً آخر في طرف القرية، وتابع مهنته في شحذ محاريث الحراثة الحديدية والسكاكين وغيرها.

في مساءٍ ما، باع صالح الوالبي محله وفي اليوم الثاني، دعا إسماعيل المدهون جيرانه وبعض معارفه إلى الغداء احتفالاً بشراء المحل الجديد الذي سيحوله قريباً إلى مطحنة لطحن القمح والشعير!

*

إنها سنة (1949).. تلك السنة التي قام فيها حسني الزعيم بانقلابه في سورية، وإذا ما قلنا- جدلاً- إن تلك السنة كانت منعطفاً في تاريخ سورية، فإنها كانت منعطفاً في حياة عائلة إسماعيل المدهون.

في تلك السنة، مات إسماعيل المدهون بعد حادثة أقرب إلى الأسطورة، لكنه ترك وراءه ولديه قاسماً وغصّاباً، صحيح أن قاسماً كان يكبر غصّاباً بسنة واحدة ولكنهما كانا متشابهين، فتحسبهما توءمين.

في تلك السنة، وعندما جاءت لصالح الوالبي آخر بناته، خرج إلى باحة الدار مع الفجر، مبتهلاً إلى الله:

-يا رب أنت حسبي ونعم الوكيل.. ستة أطفال وأربع بنات.. يكفي...

الأعمار بيدك ولكن كيف سيتدبر "غالب" أمر أخوته، إذا ما متُّ يوماً؟

**

كان ناقوس الفرح، في نهاية مواسم الحصاد، يضجُّ رقصاً وغناءً في ساحة "المهابيل"؛ هذا التقليد الذي لم يستطع فلاحو المنخورة أن يتركوه، فمواسم القمح والشعير الوفيرة لا بدَّ لها من أن تنتهي بالفرح.

رقصة نهاية الموسم، تبدأ مع الضحى. يتقدم طه الأعمى بطبله وأبو حسابا بمزماره وتبدأ الرقصة الجماعية بطيئة، ثم سرعان ما ترتفع الأرجل لتدقَّ الأرض بقوة وتتمايل الخصور.

وإذْ يخفت لحن أبي حساباً، فإن الجميع يعرفون أن أحمد الدلول قد جاء؛ فيلتفّون حولـه مشكّلين دائرة. ويتوقف طه الأعمى عن الضرب على طبله وينظر الجميع- بعيون ضاحكة وبعضها خائفة- إلى الحقيبة الصوفية التي يتأبطها أحمد الدلول. يمدُّ يده. يستخرج منها الأفعى. وبعد أن يتلمسها عدة مرات براحة يده؛ يقرِّب رأس الأفعى من فمه. يتمتم بكلمات لا يسمعها أحد، وإن سمعها فإنه لا يفهم منها شيئاً. يشير إلى أبي

حسابا الذي يبادر إلى رفع صوت مزماره؛ فتنسل الأفعى بكل هدوء لتقف قبالة أحمد الدلول حيث تبدأ الرقصة الثنائية، تقف على ذنبها وتتلوى كما يتلوى أحمد الدلول، حتى إذا أحسَّ بالتعب، أشار للأفعى إشارة معينة، فتعود إليه زاحفة، حيث يمسك بها برفق ويعيدها إلى حقيبته.. فتزغرد النسوة.

يعود المزمار إلى لحنه، وتعود الرقصة الجماعية إلى عنفوانها، وقبل أن تختتم حفلة الموسم، يأتي ابن عيسى، فيهيب خطيب المبطون (إمام جامع عمر ابن عبد العزيز) بالناس أن "يوحدوا الله".

يقف ابن عيسى في منتصف الساحة، في المكان ذاته الذي وقف فيه أحمد الدلول منذ قليل. يستخرج من جيب ثوبه الفضفاض بيضة، يرفعها بيده إلى الأعلى، حتى إذا تأكد أن الجميع شاهدوها، وضعها في فمه. تنتفخ أوداجه، تنتفخ عروق رقبته. يضرب جبينه براحة يده عدة مرات، يكوّر قبضة يده.. يضرب بها خده الأيمن ثم الأيسر، ثم ينحني قليلاً إلى الأمام، وإذ يمدُّ يده إلى عجيزته، يستخرج البيضة من هناك.. يضج الناس بالضحك، فيتوقف لينظر إليهم نظرة ذات معنى، ويقول:

-يلعن آباءكم وآباء آبائكم من غير الأموات. ألا تصدقون ما ترون.. هه؟.."

ثم يتقدم من الرجل الذي كان يرقص بالسيف- وبعض الرجال ما زالوا يضحكون وهم يضغطون على خواصرهم- ويرفع السيف إلى الأعلى، كما فعل بالبيضة، ثم يقفز عالياً عدة مرات. يغرز السيف في بطنه. يستخرجه من ظهره. تشهق بعض النسوة، لكن الرجال الذين اعتادوا على رؤية ابن عيسى في العابه، يقولون: "إنه البركة في المنخورة، ولا تنسوا أن ساحة المهابيل لها واحد لا يموت"!

تقدم خطيب المبطون منه، وبعد أن ربت على كتفه، قال:

-أين رقصتك يا ابن عيسى؟!

يرفع ثوبه إلى وسطه، ويحزمه بحبل رفيع ويبدأ رقصته. يقفز في كل الاتجاهات. يحاولون أن يتابعوا ضربات رجليه وقفزاته.. لكنهم يعجزون. لا يعرفون كيف ينتقل بتلك السرعة من أول الحلقة إلى نهايتها، لا يعرفون هل لاسمتهم أثناء قفزه يداه أم رجلاه؟ ولأنهم اعتادوا على ذلك، فإنهم يتمنون لرقصته أن تدوم ويتمنون أن تدور الأيام بسرعة للموسم القادم.

وما أن دقَّ طه الأعمى على طبله إيذاناً بانتهاء حفلة الموسم السنوية حتى هبت ريح مفاجئة، لم تعهدها المنخورة، وقد أقسم أبو حسين القحطاني، أكبر المعمرّين في القرية والذي ناف عمره على المئة عام، أنه لم يرَ في حياته ريحاً بمثل تلك القوة. تطايرت الأوراق بعيداً في الفضاء. ارتفع الحصى وتساقطت خبط عشواء. تكسّرت أغصان الأشجار الكبيرة، ولم تنفع مقاومتها في وجه تلك الريح؛ فتهاوت على الأرض، وراحت بعض أغصان الأشجار تتلولب في الفضاء.. فتصطدم بالجدران

وتتكوم في الأزقة واصطدمت العصافير بالخفافيش التي اقتلعت من أعشاشها.

احتمىالناس بأيديهم وهم يضعونها على عيونهم وآذانهم، وإذ صفَرت الريح بقوة، لاذوا بالجدران يتلمّسون طريقهم إلى بيوتهم. تأرجحوا في مشيتهم وراحوا يمسكون ببعضهم اتقاء السقوط، وعلى الرغم من أن أصواتهم المرتفعة لم تعد تُسمع، فإن صرخة (أبي قاسم المدهون) سمعها الكثيرون. كانت صرخة ألم حادة وممطوطة وبعدها أغشي عليه. وقد قال نفرٌ من الذين رأوه أن عدداً من الخفافيش استهدفت رأسه وفمه وعينيه فاقتلعتهما.. وانبثق الدم.

وعلى الرغم مما كان الناس فيه، إلا أن ابن عيسى، الذي كان يحتمي بثوبه مغطياً به وجهه، قال:

"-هل أتاكم حديث الغاشية؟"

وإذْ لم يسمع جواباً أو ضحكاً، فقد وقف على الصخرة الوحيدة في الساحة، وقال:

-ليُعلِمَ حاضركم غائبكم.. سوف يأتيكم حديث الغاشية!

ربما لم يأبه أحد لتلك الكلمات، فعدّوها واحدة من نزواته، ومن حينها غيّب الموت إسماعيل المدهون.

كان ذلك في سنة 1949.

تلك السنة التي كانت منعطفاً في تاريخ المنخورة.

*

بعد خمس وعشرين سنة من الانتماء للدار التي ولد فيها، قرر قاسم المدهون أن يهجرها إلى دار أخرى. إنه كما قال: "ملَّ الأحجار البيضاء، فيريد أن يبني داراً أوسع، جدرانها الخارجية أرجوانية اللون وسقفها من القرميد".

تردد غصّاب- في البدء- لكنه وافق، بعد أن زيّن لـه أخوه أن تلك الدار هي ملكوت خاص لهما في الدار الدنيا.

غادر قاسم المدهون داره القديمة إلى "ملكوته الجديد"، واتسعت العيون دهشة وهي ترى أثاثاً، لا عهد لبيوت المنخورة به، يُنقل من المدينة إلى دار قاسم المدهون.

من روابي النفس، كانت الأسئلة تنطلق من عيني الأم، ولكنها الأسئلة الصامتة، التي كانت تعبّر عن فرح ممزوج بالقهر.. الفرح، بهذا العالم الجديد الذي راحت تكتشفه شيئاً فشيئاً، فكأنها في حلم، والقهر الذي كانت تعاني منه، في حياة زوجها حين كان الحرمان، وكان مبدأ واحد، لم يحد عنه زوجها:

-يا امرأة.. المال يعني المال.. أتفهمين؟!

***

لم يكن ابن عيسى واقفاً على الصخرة في "ساحة المهابيل"، ولكنه كان متربعاً على الأرض، يختلس النظر إلى الحركة الدائبة في دار آل المدهون، ويعاود النظر إلى الأرض

وكان يحمل بيده عصا قصيرة يلهو بها راسماً على التراب أشكالاً مختلفة، وكانت على مقربة منه بعض النسوة، فقالت إحداهن، من قبيل المماحكة: هيه.. ماذا ترى يا ابن عيسى؟!

فأجاب: "أول الشرّ.. شرارة".

عقّبت أخرى لإغاظته: نعرف ذلك.

فقال منفعلاً: "الشرُّ يعمُّ.. والخير يخصُّ".

ونهض منفعلاً، دون أن يأبه لضحكهن، وراحت خطواته تثير قليلاً من الغبار وراءه.

... بعد خمسة وعشرين عاماً من الانتماء إلى الدار التي ولد فيها وترعرع، قرر قاسم المدهون أن يهجرها.

وبعد ثلاثة أشهر، قال لأمه في ضحى أحد الأيام: "قررت أن أكمل ديني" وإذ لم تستوعب أمه كلماته، رسم على شفتيه ابتسامة، وقال:

-يجب أن أتزوج.

ولم ينتظر جواباً فقد أكمل قائلاً:

-يجب أن أتزوج وأخي في يوم واحد.

بلمحة تذكرت العاصفة، تذكرت كيف تكسّرت الأشجار، وكيف هجم سرب الخفافيش على زوجها؛ أحست أنها- الآن- تعيش تلك العاصفة، لكن أحداً لا يراها. لم تعد لها المقدرة على النطق بأية كلمة.. ها هي ذي الآن في بئر عميقة مهجورة، لا تعرف كيف سقطت فيها، تصرخ مستنجدة، لعل أحداً ينتشلها، لكن البئر في الصحراء، والصحراء مترامية الأطراف. تتراءى لها عشرات من العقارب والأفاعي وهي تقترب منها. تمدُّ يديها إلى عينها لتدفع عنها القحيح والضربات المفاجئة. تتكاثر قطرات العرق فوق جبينها؛ وتسيل خطوطاً إلى رقبتها. تحسُّ بموجة من الاختناق تكاد تكمم أنفها، فتستند إلى الجدار متجهة إلى غرفتها، وهي تحسُّ أن كل الأشياء أمام عينيها تهتز.

بهدوء، مدَّ يده إلى علبة سكائره فأخرج واحدة، وأشعلها وأخذ ينفث دخانها ببطء وطمأنينة. تابع خطوط الدخان وحلقاته التي سرعان ما تتلاشى في الفضاء. شالت نفسه بتساؤل، صار بمقدوره أن يعرف كيف يجيب عليه: "ركض أبي في طول الحياة وعرضها. اشترى أرضاً وجمع أموالاً لا تأكلها النيران وتلك الطواحين ولكن ما الذي جناه لنفسه؟ بعد خمسين عاماً رحل عن الدنيا، فما الذي أخذه معه إلى قبره؟ كان يردد على مسامعي: "يا قاسم احتفظ بقرشك الأبيض ليومك الأسود".. ولكن كم يوماً أبيض عرف في حياته؟.. كان يتألم لقدوم العيد، ولأن أمي تطالبه بثياب جديدة لنا وإذ يوافق بعد أن يشتمها، يرفض أن يشتري ثوباً لنفسه، ويصرخ في وجهها غاضباً: "ألا يكفي الأولاد يا امرأة؟" وإذ لا تجيب يقول: "هذا إسراف- يا امرأة- فثوبي ما زال جديداً.. سأشتري غيره في السنة القادمة" ثم ينظر إليها مستفهماً: أم أنك أنت التي تريدين ثوباً؟ لعن الله ذلك اليوم الذي تزوجتك فيه."

ها هو ذا- الآن- يسبح في عفوية العالم، ويعرف متى يعانق لزوجته، ومتى عليه أن يتلمس الأبواب التي كانت موصدة في وجه أبيه. عليه منذ الآن أن يعرف الطريق لتفتح تلك الأبواب في وجهه، لكن لماذا يقول أن عليه "أن يتلمَّس الأبواب"؟ إنه ليس دقيقاً فيما اختار من كلمات، عليه أن يعرف كيف "ستتهاوى" الأبواب الموصدة- كل الوسائل يملكها، فليخلع الأبواب الموصدة.

بعد أن قذف بعقب سيكارته، نهض مبتسماً، دخل إلى غرفة أمه التي كانت واجمة وقد ألقت رأسها إلى يدها المستندة إلى الوسادة الحائطية، فبادرها قائلاً:

-يا أمي كلنا ينتظر ساعته، فما معنى الحزن؟!

سألت: لما يمضِ على موت أبيك ثلاثة أشهر وتريد أن تتزوج؟

قال: الموت هو النهاية والزواج سُنّة الله في خلقه، فهل ستبقين تتحملين أعباء الحياة وحيدة؟

سألت: ولكن ماذا يقول الناس وقريتنا صغيرة؟

قال: أنا لا يهمني الناس.. الأيام- يا أمي- مثل المنشار، إن لم يستفد المرء من سرعتها نشرته ولست على استعداد لأن تنشرني.

أحسَّ أنه يقف على قمة جبل وأن الناس ينظرون إليه متلهفين، فابتسم نشوان لوقفته؛ وابتسم أكثر إذْ تراءى لـه سرب من الطيور يرفرف فوقه فيحميه من وهج الشمس.. ثم نهض مندفعاً إلى غرفته، وتناول بطحة العَرَق فملأ كأسه وارتشفها على دفعتين. ارتمى على فراشه، وقال لنفسه: "معركتي مع الزمن.. وهناك دائماً غالب ومغلوب، منتصر ومهزوم.. للنصر أسبابه، وللهزيمة أسبابها.. سأعرف كيف أتعامل مع الناس والزمن.. لكن منذ الغد يجب أن تعرف المنخورة أن "قاسم وغصاب" قد تزوجا من ابنتي إمام الجامع خطيب المبطون وأبي المداح الأشرم".

وتراءى لـه الناس يرقصون. سمع الزغاريد ترافق ضربات الطبل وألحان أبي حسابا على مزماره.

*

"سامحه الله وليتغمده برحمته".. قال ذلك صالح الوالبي وهو يلقي بحفنة من التراب فوق القبر، وإذ لاذ بعالم الصمت فإن عينيه كانتا تتغلغلان إلى سنوات خلت، تراءى لـه إسماعيل المدهون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً. لم يحضر هجوم الخفافيش عليه في "ساحة المهابيل"، لكنه سمع تفصيلاتها من ابن عيسى- وعندما تذكر ما قاله لـه منذ سنوات حين أرغمه على بيع محله ليقيم مكانه طاحونة أخرى- أحسَّ بالندم.. وتساءل حزيناً: "ما نفع الطواحين والمال؟". واستدرك مباشرة ليكبح جماح أفكاره: هذه شريعة الحياة. ولكن ليعمل الإنسان بشرف.. أليس ذلك أكثر طمأنينة؟"

وقطع عليه ابن عيسى تذكاراته، عندما وقف إلى جانبه، وهمس:
-هل سيشبع من التراب يا أبا غالب؟!
نظر إليه غاضباً وقال:
-اسكت يا ابن عيسى فلا شماتة في الموت. هم السابقون ونحن اللاحقون.
ونظر ابن عيسى إلى الأرض، ثم رفع عينيه بعد أن نظر ملياً إلى قاسم وعصّاب وقال:
-سأمشي يا أبا غالب.. ولكن أقسم بالله وبضريح أبي ذر إن أيامنا القادمة ستكون أسوأ من الماضي.
وإذ لم يسمع جواباً، مدَّ سبابته وإبهامه إلى شاربه، وقال:
-قسماً بهذا الشارب سنرى الويل من ابنٍ لم أر دمعة من عينيه على موت أبيه!
"سامحه الله وليتغمده برحمته" قالها ثانية، بعد أن ابتعد ابن عيسى عن مساحة رؤيته. لم يعد يفكر في الضغوط التي مارسها عليه إسماعيل المدهون، بل راح يفكر في كلمات ابن عيسى التي جاءت في لحظات خاطفة، فأحسَّ بالدنيا تدور به، وأن اللحظة التي يعيشها الآن هي التي تتملكه فلا يستطيع منها فكاكاً. تذكر تلك الأماسي التي كانت تجمعه بإسماعيل المدهون، الذي كان يتردد عليه ليقضي ساعة أو ساعتين بعد أن يغادر بيت السيدة الفرنسية غاملان، وكان يستفيض بالحديث عن جمالها، حتى لقد اعترف لصالح الوالبي أنه سرق بعض الصحون الزجاجية والملاعق.. وكان ينهي أحاديثه تلك.. بقوله: "شعرة من الخنزير حلال.. يا صالح!".
وكان يقول لـه في كل مرة: "الحرام حرام يا إسماعيل والحلال أبقى" ولكن إسماعيل المدهون يضحك. ويعقّب قائلاً:
-"سوف تظل تشحذ المحاريث طوال عمرك".
كان شريط الذكريات يتتابع أمام عينيه ولكنه توقف وهو ينظر إلى الناس وهم يرشوّن القبر بالماء، فتذكر كيف استفاض إسماعيل المدهون بالحديث عن الموقف الذي رآها فيه مع الكلب، وكان يضحك، حتى أنه سأل صالحاً الوالبي:
-كدت أجن- يا صالح- فكيف تفضِّل امرأة بهذا الجمال كلباً على زوجها؟
في ذلك المساء توقف صالح الوالبي عن شحذ محراث بين يديه وقال له:
-هذه آخر مرة أسمع منك هذه الأحاديث. يا رجل دعك من الخسَّة وأحاديث النذالة.
.. ونظر صالح الوالبي إلى الأعلى، نظر إلى السماء ثم امتد بصره إلى الأفق حيث كانت الشمس تقترب من الجبل لتغيب وراءه، وقال لنفسه: "على الرغم من كل شيء فإن الفضاء على اتساعه سجن كبير. والمصيبة أننا لا نعرف أننا مسجونون. إننا لا نتغلب على الأرض، وإنما نطلب مكاناً منها لأجسادنا وأقدامنا. لا نتغلب على الجبل وإنما على صورته في عيوننا. إننا

مخدوعون ومخادعون، فما أتفه الإنسان وما أعظمه في ذات الوقت إذا أراد أن يكون عظيماً".

وإذ نهض، نفض التراب عن ثيابه، وتوجه إلى داره ليمرَّ في دربه بضريح أبي ذر الغفاري، وهناك وجد ابن عيسى وطه الأعمى وهما يجلسان صامتين، فقال صالح الوالبي:

-تعرف يا ابن عيسى أنني أحبك فإياك وأن تغضب!

قال ابن عيسى وهو يهزُّ رأسه:

-لقد عاش بيننا مالكاً لأرض أعطاها لـه فرنسي- لا أعرف ما اسمه- ثم ملك الطواحين.ـ ولكنه الآن ميت.

قال صالح الوالبي:

-ليرحمه الله.

ولم يقل ابن عيسى شيئاً بل اكتفى بهزة رأس أخرى.

2

أسندوا ظهورهم إلى الحائط الغربي لجامع "عمر بن عبد العزيز". صدورهم تتلقى أشعة الشمس، في الفترة الواقعة ما بين العصر والمغرب، كما جرت عادتهم في الأيام الدافئة، وراحوا يتحدثون بأحاديثهم المعتادة: لماذا طُلّقت فلانة من فلان؟ وكيف اختلف دعبوس الأحمد مع صبحي القمرة على دقيقتين من ماء نهر القرية، حتى لقد رفعا معوليهما في وجه بعضهما، ولا ينسون طه الأعمى فيمتدحون صوته الرخيم وهو يتلو آيات من القرآن في دار ميت بمناسبة مرور أسبوع على وفاته، كما يمتدحون ضرباته على الطبل في الأفراح.

فجأةً.. توقفت الأحاديث.

ارتفعت الرؤوس إلى الأعلى، بعد أن نعق غراب في فضاء المنخورة، وراح يحلّق فوق الجامع لحظات، ثم ارتفع عالياً متوجهاً إلى البساتين.

قال أبو المداح الأشرم: ماذا يريد غراب البين؟

أجاب خطيب المبطون: طير خلقه الله، فلماذا تطلبون تفسيراً لنعيقها؟

سأل أبو المداح وهو ينظر إلى ابن عيسى: ما رأيك يا ابن عيسى؟!

قال ابن عيسى وهو يبعد ذبابة عن أنفه: "ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع".

وإذ رفع خطيب المبطون أذان المغرب، ورأى ابن عيسى قاسماً المدهون مقبلاً باتجاه الجامع، وضع يده على خده وهزّ رأسه، وقال كمن يهمس:

-سبحان مغيّر الأحوال..

نهضوا وهم ينفضون أقفية سراويلهم أو ثيابهم الطويلة، مما علق بها من تراب ودخلوا الجامع، باستثناء ابن عيسى الذي توجه إلى المقبرة، كما يفعل غالباً، فلا يعرف أحد لماذا يذهب إلى هناك.

وإذ يهبط الليل بطيئاً على عالم المنخورة.

يتسلل العاشقون إلى الأزقة لوقفة قصيرة، يقسمون بالله وضريح أبي ذر الغفاري أنهم سيتزوجون، إن جاء الموسم وفيراً.. ويندسُّ الزناة إلى المخادع المحرّمة مستعينين بأذانهم وخطواتهم الحذرة، خشية أن تُحدِث صوتاً أو حتى نامة.. وقبيل

الفجر، يخرجون على رؤوس أصابعهم بنبضات قلب مضطربة، متوفزة، حتى إذا اطمأنوا أنهم صاروا في الأزقة، استعادت خطواتهم طمأنينتها، ونبضات قلوبهم سكينتها.. ونادراً ما كان يردد الليل صدى أصوات طلقات نارية وهي تلاحق لصاً استطاع أن يهرب تحت جنح الظلام.

*

ها هي ذي المنخورة بأحيائها التي تكاد تكون متلاصقة وطريقها الرئيسة الوحيدة المعبّدة. نهاراتها قائظة ولياليها رطبة. عاشت عبر تاريخها -الذي لا يعرف أحد متى بدأ- اعتماداً على المطر والينابيع وما تغلّه أرضها من قمح وشعير.

ومثلما لا يعرف أحد من بنى ذلك السور الآجري الذي أحاط بها من جهتيها الشمالية والغربية، بعد أن تهدّم سورها الشرقي والجنوبي، فإن أحداً لا يعرف كيف استطاع (أبو نادر الموشوم) أن يفتتح محلاً لبيع الأقمشة نهاراً، وفي الليل يبيع خمراً.

لقد أعلنت المنخورة مقاطعتها لـه، حتى أن بعضهم قال، وعلامات الاشمئزاز والغضب بادية على حركاتهم وتشنجات وجوههم: "إنه اللعنة التي حلّت بنا".

ويهزُّ أبو نادر رأسه باسماً ويقول:

-سوف تدور الأيام وسوف يعودون لمصالحتي.

صدقت تنبؤات أبي نادر الموشوم- بمرور الأيام- وراحت دكانه تعرف شباب المنخورة وبعض كهولها، حيث يطرقون بابها الخشبي ليلاً، وتتم كلمات هامسة بين أبي نادر وأولئك المتعطشين لخمرته، ثم يعودون بمثل الحذر الذي جاؤوا به. الوحيدان اللذان لم يكلفا نفسيهما عناء المجيء إليه كانا قاسم المدهون وأخوه غصّاب، حيث كان في كل ليلة اثنين يزوّدهما أبو نادر الموشوم بما يكفيهما لمدة أسبوع.

كثيرة هي الأشياء الغامضة التي تظهر فتبدو كأنها المفاجأة، وتغدو أحاديث يحلو السهر معها أو تكون مثاراً للحزن، لكنها تتكشف مع الزمن.. فمنذ ذلك المساء الذي نعق فيه الغراب فوق جامع عمر بن عبد العزيز، تساءل الكثيرون: كيف رضي خطيب المبطون أن يزوج ابنته حسنة لقاسم المدهون وكيف رضي أبو المداح الأشرم أن يزوج ابنته خديجة من غصاب المدهون؟

لقد جاءت أسئلتهم تلك.. بعد سؤالهم: كيف استطاع قاسم وأخوه أن يتزوجا بعد ثلاثة أشهر من وفاة أبيهما؟

لم تضع الأسئلة، ولكنها توقفت بعد أن خاصم المطر عالم المنخورة وأراضيها، وربما نسيها بعضهم أو لم يعد يهتم بها، ذلك أن ما جرى قد جرى، فقد راحت الينابيع الثلاثة تشحُّ، ولم يمر طويل وقت حتى جفَّ اثنان منها تماماً، وقد شوهد أبو حسين القحطاني- أكبر معمري القرية- حزيناً.. لأن المنخورة لم يخاصمها المطر منذ ربع قرن؛ فكيف الحال وينابيعها تجف؟..

وعندما ذكّره بعضهم بنعيق الغراب الذي لم تألفه أجواء المنخورة، قال:

-اتركوكم من هذه الخرافات.

وإذْ همس بعضهم لأبي نادر الموشوم، قال:

-في الجاهلية خمر لكن المطر لم يخاصمهم.

وعندما أشار أحدهم إلى دار الأخوين المدهون، لاذ بالصمت.

*

سنوات ثلاث والمطر يخاصم المنخورة حتى أن مياه النهر المتدفقة بدأت تتقلص، وارتفع صوت الإمام خطيب المبطون- على غير عادته- بعد خطبة يوم الجمعة بدعاء الاستسقاء ولكن المطر ظل على خصام مع الأرض التي تشققت وظهرت الملوحة على سطحها.

ولم يطل الانتظار بقاسم المدهون فقد حفر بئراً في داره الجديدة وأخرى في القديمة ليروي أشجار العنب والزيتون، وحوّل المساحة الباقية إلى قطعة خضراء بما زرع فيها من ورود، وإذ خطرت لـه فكرة بناء بركة صغيرة في وسط تلك الأرض، فإنه لم يتردد في تنفيذها وصار يحلو للأخوين في أيام الصيف أن يجلسا حول بركة الماء الصغيرة ويرتشفا كأسين من الخمر على مهل حتى منتصف الليل أو بُعيد ذلك. ولا يترددان في الاستزادة إذا لم يعكّر أحدهم صفاء جلستهما.

إنهما يحسان بالسعادة، لولا أن قاسماً ينغصه مجيء ابنتيه (بدرية وسعاد)، في حين أن غصّاباً قد ولدت لـه خديجة (أحمد وأسعد).. حتى أن أحد أزقة القرية صار يعرف خطوات قاسم المدهون بعد منتصف الليل، حيث يعود إلى داره قبيل الفجر.

وكتمت زوجته الموضوع شهراً وشهرين وثلاثة، لكنها أخيراً لم تعد تطيق صبراً حيث تظل قلقة لساعة عودته مترنّحاً.

في ظهيرة اليوم التالي، وقد استيقظ ليذهب إلى صلاة الظهر، عاتبته حسنة على هذا الذي انتهى إليه، ولكنه لم يدعها تكمل. صفعها على وجهها، وقال غاضباً:

"-اسمعي يا أم البنات لولا مصلحتي لما رضيت بك زوجة! إن أية فتاة تتمنى فردة حذائي، مهمتك، تنحصر في شؤون البيت، هذه آخر مرة أسمح لك أن تفتحي شدقيك بمثل هذه الكلمات، المرأة امرأة والرجل رجل، أتفهمين؟.

منذ تلك الظهيرة، أصيبت حسنة بخيبة أمل ما كانت لتتوقعها، لقد صفعها على وجهها، لكنه عندما قال لها: يا أم البنات" فإنها أحست خنجراً يتلولب في أحشائها.

ومنذ تلك الظهيرة، فقدت الرغبة في أن ترتدي الثياب الصفراء الشفافة التي أفهمها أنه يعشقها، فقدت الرغبة في تسريحة شعرها أمام المرآة، وقد بدا وجهها شاحباً، مثيراً للانتباه.. حتى أنها أحست بالألم عندما نبهتها خديجة إلى ذلك.

لم تعر ملاحظة خديجة اهتماماً- أو هكذا تظاهرت آنذاك- لكن ما أن غادرتها، حتى هرولت إلى المرآة فمسحت الغبار الذي علق عليها، إنها في الحادية والعشرين من عمرها. تتلمس جسدها فتعرف أنه ما زال بضّاً، ممتلئاً، متناسقاً. وجهها مائل إلى الطول، مرتفع الجبين. عيناها العسليتان حالمتان، بشرتها قمحية صافية، على الجهة اليسرى لفمها تبدو شامة سوداء صغيرة نقية، وعلى الرغم من فمها الصغير وشفتيها الرقيتين، فإنها تكره تقعّر أنفها الذي ورثته عن أمها. إنه تقعّر لا يبدو إلا لمن يدقق جيداً فيه، حتى إذا مدت يدها وأزاحت منديل رأسها عن رقبتها، اتسعت عيناها دهشة لتلك التجاعيد التي غزتها في غفلة منها فتراجعت إلى الوراء، وارتمت على الفراش مكبّة على وجهها باكية.

*

منتصف الليل.. عالم آخر، سبات للكثيرين.. وانتظار متلهف لأولئك الذين يعشقون مرافئ الظلام والهمس.. فإلى الأمام يا قاسم المدهون، ما دامت كاتدرائية الزمن قد أعلنت منتصف الليل، وما دام زقاق "صبوحة الخليل" قد اعتاد على خطواتك في مثل هذه الساعة.

تلمّست سبابته شريط النافذة المعدني، وعندما فُتح الباب على مهل، دخل على رؤوس أصابعه، وقبل أن يجلس على الفراش الصوفي، أخرج بطحة العرق من جيب ثوبه الفضفاض. أخذتها وربتت بها على خدها مرتين، ثم احتضنتها بين النهدين وهي تغمض عينيها، وانحنى قاسم المدهون قليلاً لحمل صبوحة ووضعها على الفراش بخفة، وقال:

"-أنتِ.. أنتِ.. يا صبوحة.. لا معنى للخمر والليل لولاك"!

مدت سبابتها إلى شفته السفلى مترافقة مع غمزة بعينها اليسرى، وقالت:

-وأنتَ.. أنتَ، يا قاسم.. تصلي نهاراً وتأتي إليَّ ليلاً؟

قال، وهو يكتم ضحكة:

-بدأت أصلي ركعتين إضافيتين في كل الصلوات.

سألته مبتسمة:

-لتضمن مكاناً في جنة السماء؟

عقّب وهو يتأمل كأس الخمر:

-بل لأضع أهل المنخورة في جيبي.

سألته مستغربة:

-لا أفهمك؟

قال، وهو يضع سبابته في كأس الخمرة ويرسم دائرة ببطء:

-ستفهمين فيما بعد، فلكل حادث حديث.

وبعد أن راحت "رباعيات الخيام" تبحر في جو الغرفة، رفع كأسه وقرعه بكأسها، قال:

-في صحتك يا صبوحة.. فإلى الأمام!

ولم ينتظر جواباً فقد دلق كأسه في جوفه دفعة واحدة، وراحت موجات الفرح تطفو فوق خديه توهجاً. يمدّ يديه إلى شعرها الطويل المنسفح على الفراش وهي في جلستها الجانبية، يقرّبه إلى وجهه وأنفه، ثم يغمض عينيه على خيمة شعرها التي أسدلها فوق رأسه. يتمدد عالم آخر، أكثر عمقاً، وأكثر نزقاً بينهما.

في الكأس الرابعة أشار لها أن تجعله صافياً دون ماء، فقالت:

-بدأت تتغير!

تجاهل ملاحظتها، وقال:

-حدثيني عن القذارة.

لم تكن صبوحة قد انتهت من كأسها الأولى، وإذْ استغربت سؤاله، الذي جاء مفاجئاً، رفعته وارتشفت رشفة عميقة، وبعد أن مصمصت شفتيها، سألت:

-لماذا لم تقل: حدثيني عن النظافة؟

أحسَّ أنه يمشي متعثّراً فوق أرض صلبة جفاها المطر منذ سنوات، ومن إحدى شقوق الأرض، تراءت لـه أفعى، لم يكلف نفسه أن يحمل عصا أو حجراً ليضربها، لكنه اكتفى ببصقة. تابع خطواته غير عابئ بالأرض القاحلة، وبالأشجار العارية. تراءى لـه قطيع من الذئاب. لم يرفع عصا ولم يهرب، بل اكتفى بنظرة قاسية، فولّى قطيع الذئاب هربا حيث الجبال.

ربتت على كتفه، وسألته:

-بدأت تتغير!

قال، وهو يحسّ خدراً ثقيلاً في لسانه:

-أنا سيد هذا الزمان.

وقهقهت صبوحة، ومع ضحكتها، قالت:

-أنت سيد الليل.

ها هي ذي الدنيا تميد. ها هي ذي النار تشتعل في صدره، وتطفو احمراراً على عينيه، وها هي ذي روحه تموج هلعاً فيمسك بيدها ويهزها بعنف محدِّقاً في عينيها، معتقداً أنه يغرس فيهما أشواكاً، ثم قال:

-تذكري.. أنني سيد المنخورة وسيد الليل، وسيد هذا الزمان.

نظرت إليه مستغربة، ومدت يدها إلى ستارة النافذة، وإذ أيقنت أن الفجر بدأ يلج العالم قالت:

-الحياة لا تعرف الإنصاف.

قال: ربما.

قالت ضاحكة: ها هو ذا الفجر.

قال: لن يتأخر فجري!

*

عندما فتحت الباب، تسلل قاسم المدهون على رؤوس أصابعه. عاد مجهداً إلى داره، وهو يحسّ بالأزقة تدور، وأن مئات الأيدي قد ارتفعت حاملة جسده العملاق إلى الأعلى. تذكر أن أحداً لم يحمله في ليلة زفافه، سمع الزغاريد تحاصره من كل الأنحاء، وسمع من يهتف باسمه:

-يا مولانا السلطان!

وإذْ فتح الباب، دخل غرفته، وارتمى بثيابه على فراشه، وإذ أغمض عينيه، أحسَّ صداعاً مؤلماً في رأسه، لكنه تساءل وهو يرى وجه منيرة، شقيقة زوجة أخيه: كيف باستطاعته أن يحول بينها وبين غالب الوالبي؟.

3

بعد ثلاث سنوات من مخاصمة المطر، هطل غزيراً، وليومين متتابعين، ليلاً ونهاراً، حتى خُيّل للناس أنه لن ينقطع.. وفرح قاسم لأنه ربما عاد لاستعمال طواحين أبيه.

في أوائل أيلول كان ذلك.

ندم كثير من الفلاحين على حميرهم التي أطلقوها من دورهم بعد أن نفذ التبن، وندم بعضهم وهم يرونها في ظاهر المنخورة على مقربة من الجبل وقد هجمت عليها الذئاب ثم الكلاب فتركتها عظاماً، حتى الذي كان باستطاعته أن يشتري تبناً، فإنه وصل بعد فترة من الزمن إلى اليأس، عندما أضحى التبن مفقوداً، وراح يبحث عنه في القرى المجاورة، التي لم تكن أفضل حالاً.. وإذا ما وجده، فإنه كان يضطر ليدفع ثمناً باهظاً.. صبر.. وصبر، ولكنه لم يجد أخيراً إلا أن يطلق ما لديه من حمير كما أطلقها غيره من الفلاحين مردداً: "وما من دابة على الأرض إلا وعلى الله رزقها".

لم يتمهلوا، فلقد أسرعوا إلى الأرض لفلاحتها، وكلما شقَّ المحراث الخشبي ثلماً جديداً، فإن بعضهم، كان يتوقف، ليحمل التراب الرطب بين يديه.. وهو يبتسم.

لكن المطر توقف بعد ذلك. توقف تماماً كأنه كان حلماً، وكان على الفلاحين أن يعيشوا سنة أخرى من القحط.

عند صلاة الظهر، وفي أول يوم "اثنين"، جاء المطر بعد انقطاع ، كان أبو المدّاح يحثُّ إمام الجامع ليبتهل إلى الله بدعاء الاستسقاء، فلا بدَّ من أن الله عزَّ وجل قد استجاب لدعواته.. فهطل المطر بتلك الغزارة.. وهزَّ قاسم المدهون رأسه موافقاً. لكن إمام الجامع اعترض قائلاً أن هذا الدعاء لا يجوز إلا يوم "الجمعة".. فقال قاسم المدهون: "المنخورة تعاني من القحط.. فهل دعاء الاستسقاء من المحرمات في غير أيام الجمعة؟"، ولم يجب خطيب المبطون على سؤاله، بل قال:

-لا تنسوا أن هذا اليوم هو يوم الاثنين.. وها نحن قد انتهينا من صلاة العصر، فلا بدَّ من درسنا الأسبوعي"!

وعلى عادته، فقد راح يشرح مسهباً، بعض آيات القرآن. كانت لديه المقدرة على أن يشدَّ إليه مستمعيه، بما ملك من حركات مؤثرة بيديه وعينيه وتلك الابتسامة التي لا تفارق وجهه والتحكم في توترات صوته من علوٍّ وانخفاض إلى درجة الهمس.

كان غالب الوالبي واحداً من الذين صاروا يترددون على حلقة خطيب المبطون، لم يكن يداوم على ذلك الدرس الأسبوعي بشكل منتظم، وربما يعود ذلك لعدم اقتناعه بمثل تلك الدروس، فما جدوى أن يرفع خطيب المبطون صوته بالدعاء إلى السماء لعلها تأتي بالمطر، والسماء خاصمت أرض المنخورة منذ ثلاث سنوات؟.. وما جدوى الصلاة لواحد مثل قاسم المدهون الذي يعاقر الخمر ويتسلل ليلاً إلى صبوحة الخليل تاركاً زوجته؟

وعلى الرغم من أنه يعتبر أن مثل هذه الأسئلة، هي أسئلة هامشية، فإن نقطة خلافه الجوهرية مع مثل تلك الدروس أنه يضع الأمور المادية الحياتية في الصدارة ثم يليها الفكر.. ويتساءل بحرقة: ما الذي توصلت إليه دروس خطيب المبطون لمكافحة الجفاف؟ يهزون رؤوسهم تعجباً وعجباً للجنة الموعودة والجحيم الذي ينتظر أولئك الذين لا يقومون بتأدية فروض الدين من صلاة وصيام وزكاة.. إنهم،- كما يحلو لـه أن يشبههم- يعيشون حالة من حالات اللامبالاة.

إنه يفهم أشياء كثيرة، يراقب ويحلل، وهو على قناعة أن التاريخ لا يعيد ذاته، مثلما هو على قناعة أن هناك جديداً كل يوم تحت الشمس، وهو كذلك على قناعة أنه يهدر وقته سدى في مثل تلك الدروس، لكن الشيء الوحيد الذي يشده إليها كانت (منيرة) ابنة أبي المداح التي عاهدها على الزواج، ولأن أبا المداح لا ينقطع عن الجامع ودروس خطيب المبطون، فإنه يرغم نفسه أحياناً على الذهاب إلى المسجد والتردد على تلك الدروس أحياناً أخرى.

أسئلة كثيرة كانت تجول في ذهنه، عندما كان يحضر تلك الدروس، ولكنه على يقين تام، أنه إن تفوّه بها، فسيجد نفسه مطروداً من المسجد. إنهم جدار كتيم لا تنفذ منه الأسئلة، فكيف سيناقشهم؟

كان خطيب المبطون قد استغرق في شرح الآية: "قل الروح من عند الله"، وتابعه غالب الوالبي؛ تابع حركات يديه، وتقلصات عينيه.. ولم يعد يسمع شيئاً، على الرغم من أنه كان يرى شفتي خطيب المبطون وهما تتحركان.. وبحركة لم يكن يقصدها رفع غالب الوالبي يده، وسأله:

-يا شيخ.. قل لي.. من أين يأتي المطر؟

وساد الصمت.. لكن إمام الجامع، ابتسم وقال:

"-كله بإرادة الله.. فلو أراد عزّ وجل أن يمُنَّ علينا بالمطر لهطل حتى أغرقنا، لجاء كالطوفان الذي شهده نبينا نوح، ولكنه حبسه عنا لامتحاننا نحن البشر فمن صبر ظفر ومن لجَّ كفر".

ولم يقل غالب الوالبي شيئاً عن البحار، وكيف أنها مصدر الأمطار.. كما قرأ عن ذلك، ولكنه قال:

-لماذا لا نحاول أن نحفر الآبار؟

وقبل أن يجيبه إمام الجامع بأية كلمة، كان قاسم المدهون ينظر إليه بطرف عينه نظرة ذات مغزى. وقطع خطيب المبطون فترة الصمت القصيرة، حيث قال:

-لو أن باطن الأرض فيها ماء لما حفّت الينابيع، فما جدوى أن تحفر الآبار؟ كله بإرادة الله. لنعد إلى الأرض، إن الإنسان يظن واهماً أنه يملك القوة، فكم يتجبّر وكم يطغى وكم يمشي على الأرض بخيلاء.. لكنني أسألكم كم هو ضعيف إذا ما ألمَّ به المرض، إنه إن حمل حملاً فإنه سرعان ما يتعب ويلهث، ولكن لماذا لا نفكر بذلك الثور الذي سخّره الله ليحمل الكرة الأرضية حتى يوم النشور".

وكادت أن تنطلق ضحكة من غالب الوالبي، ولكنّه كتمها، وعبثاً حاول متابعة الدرس، حيث كان في عالم آخر؛ عبثاً حاول أن يسمع الكلمات التي تتحرك بها شفتا خطيب المبطون. كانت منيرة قد تحولت إلى رؤية سيطرت على حواسه، لم يستطع أحد أن يغتصب حزنه إلا منيرة، استطاعت أن تحول أيامه إلى غابة من الفرح.. منذ ضحى ذلك اليوم الربيعي الذي ما زال منقوشاً في ذاكرته وقلبه، قرر أن يكون مخلصاً حتى النهاية لملكوتها. قال لها يوماً:

-أخشى أن تغيّرك الأيام؟

فقالت: الإنسان موقف، والموقف لا يتجزأ يا غالب!

عقّب: ربما طال الانتظار، والزمن لا يرحم.

قالت: كن مطمئناً. ما دامت هناك سماء وأرض وبشر فأنا لك.

كان يلهو بربط الخيطان المفككة في السجادة العتيقة التي يجلس عليها، وأصابعه تتحرك وهو ما زال موغلاً نحو البدايات، فلم يكن يسمع شيئاً مما يقال من حولـه، حتى أحسَّ بيد أبي المداح تربت على كتفه داعياً إياه إلى صلاة المغرب، وحانت منه التفاتة إلى قاسم المدهون فرآه يبتسم.

يرتفع صوت خطيب المبطون: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

وترتخي الأيدي الموضوعة فوق البطون أو الصدور، إلى الجانبين ثم تستند إلى الركبتين مع انحناءة الجذع ثم.. ثم يندفع مع الآخرين إلى الأزقة.

***

زقاق يؤدي إلى زقاق.

درب ترابي يؤدي إلى درب ترابي.

تشخر الأبواب الخشبية القديمة وهي تحتك بالأرض كباب غالب الوالبي وباب هدّال الحسن، أو أنها تُغلق على مهل دون أن يُسمع لها صوت بسبب ارتفاعها عن الأرض المعبّدة بالاسفلت كباب قاسم المدهون.

إيقاع الخطوات يأتي أحياناً مندّغماً مع النفس، ويأتي متناقضاً معها أحياناً أخرى، وقاسم المدهون يصرخ شاتماً حسنة لأنها تأخرت قليلاً في تقديم عشائه، وغالب الوالبي يمدُّ يده إلى رغيف خبز يحتضنه ويخرج به إلى باحة الدار. يقطف عدة وريقات بصل خضراء. يأكل على مهل، مستعيناً بحبات من الزيتون وكأس من الشاي.. ثم يحمل واحداً من كتب التاريخ، وتحت الضوء الكازي الشحيح يقرأ إلى ساعة متأخرة من الليل.

في غالب الأحيان يأكل قاسم المدهون مع أخيه. تبتعد الزوجتان حسنة وخديجة عنهما.. ودائماً يجب أن تزيّن الخمر مائدتهما.. وفي هذا العشاء باح قاسم لأخيه بفكرة حفر الآبار الارتوازية، وقال له: كنت أفكر بهذا المشروع منذ زمن، لكن ابن الوالبي، همس بهذه الفكرة في درس اليوم، سأصبر عدة أيام، ثم أقوم بالتنفيذ.. آبار ومزارع يا أخي!

هزَّ غصّاب رأسه علامة الموافقة وحمل قاسم المدهون كأس الخمر ثم نهض ليقف قبالة صورة أبيه المعلقة على الجدار، وقال:

-أبي هل تسمعني!؟

وبعد أن دلق كأسه في جوفه، تابع قائلاً:

-لكل قرية صولة ورجال.. أتسمعني يا أبي!؟

وقهقه غصّاب، ثم قال:

-لو كان يشاركنا الكأس.. لسمعنا.

تلفّت قاسم مبتسماً، ثم قال:

-أيها العاق... الصفعة لمن سبق.. أنسيت حسني الزعيم والشيشكلي؟

سأل غصّاب:

-ما علاقتك بالزعيم والشيشكلي؟

قال قاسم:

-العجلة من الشيطان.. فقد خلق الله الدنيا في ستة أيام ثم استوى على العرش في اليوم السابع.

عقّب غصّاب، وهو يرفع كأسه:

-نخب اليوم الثامن.. يا أخي!

وكأغلب لياليهما، خرجا إلى باحة الدار وتمددا على فراشين متقابلين، وسحبتهما الخمر بطيئاً وسريعاً إلى وديان الدوار وجبال الطموحات.

بين لذة الدوار والتساؤل عن كيفية تحقيق الطموحات، ها هي ذي الأرض، تميد بقاسم المدهون. تعلو وتنخفض، تتأرجح هنا وهناك. عندما كان صغيراً، يتذكر أن أباه ثبّت حبلاً في غصن شجرة الزيتون الوحيدة في دارهم القديمة وصنع له أرجوحة. لم يكن بحاجة- آنذاك- إلا للدفعة الأولى. تحركت الأرجوحة، وكان يزيد من سرعتها باندفاعة من جسده إلى الأمام والخلف،

وها هو ذا قد كبر، ولكنه بحاجة إلى أرجوحة يصنعها لنفسه. عندما كان صغيراً استعان بأبيه، أما الآن فإنه سوف يستعين برنين المال وعلاقاته.. بالمال الذي تركه أبوه، وتلك الطواحين المهجورة.

بين ترانيم نشوته وأهازيج طموحاته، سوف يصنع ما يريد، فهذا خطيب المبطون (والد زوجته) وهذا أبو المداح الأشرم (والد زوجة أخيه).. "سراج وفتيلة"، أنه سيعرف كيف يجعلهما ينصاعان لما يريد، بضاعته المال وبضاعتهم الكلام، فمتى يبدأ؟.. وكيف يبدأ؟

ها هو ذا يستلقي على فراشه، يضع يديه تحت رأسه وينظر إلى النجوم في السماء. يسافر بعيداً مع النجوم، يتحرر من عالم الأرض ممتطياً في ذلك الفضاء صهوة جواد، إنه يسبح في كون آخر. لم يعد فيه بحاجة إلى الكلمات، يكفي أن يشير بيده، يكفي أن ينظر بعينيه، يكفي أن يهزَّ رأسه موافقاً أو رافضاً ليتحرك رجال عن يمينه ويساره وأمامه وخلفه لتنفيذ رغباته.

ها هو ذا يحسُّ برطوبة الفضاء فيغمض عينيه ويستنشق الهواء عميقاً، تتراءى لـه صبوحة الخليل. يغذّ الخطوات مسرعاً للقائها، يضمّها إلى صدره. يضع يده على كتفها ويقودها إلى غرفته، يفاجئه أبوه متّكئاً على عصا. ينظر إليه نظرة قاسية، وقبل أن يرفع عصاه، يحسُّ قاسم المدهون أن جسده يتضخّم أكثر، وأن ذراعه أضحت رمحاً وأن لهيباً من نار راح يندفع من عينيه.. وبحركة سريعة، انقذف الرمح إلى صدر أبيه؛ وأن ثيابه بدأت تشتعل فيها النيران. تراءى لـه أبوه وقد انكمش جسده. صار يمشي على يديه ورجليه، وبصوت أجش، صرخ بأبيه صرخة اهتزت لها جدران الدار فتحوّل إلى كلب، وراح ينبح متضوراً جوعاً فأمره، بإشارة من يده، أن يذهب إلى خُمِّ الدجاج، ولم يخالف أبوه أمرَ ابنه، فتوجه صاغراً حيث خُمَّ الدجاج.

انتفض قاسم المدهون وهو يمسح قطرات العرق فوق جبينه، وراح يردد: أعوذ بالله من الشيطان.

قال غصّاب: لا بدَّ من أنها صبوحة!

قال قاسم: لن يوقفني شيء.. على الرغم من كل شيء؛ فلن يوقفني شيء.

قال غصّاب: لا تندفع كثيراً!

قال قاسم: لعن الله الكوابيس والأحلام.

سأل غصّاب، وهو يبتسم: متى تنتهي معها؟

قال قاسم بعد أن كزَّ على أسنانه وقد ضيّق من فتحتي عينيه:

-بماذا تفكر؟

قال غصّاب: أبداً.. إنني أشتهيها، فهي لك كما لغيرك.

صرخ قاسم: لي دون خلق الله، أفهمت؟

وضحك غصّاب، وهو يكتم بقية كلمات، وقال:

كنت أمزح، فمباركة صبوحة لك.

*

منذ تلك الليلة رسم قاسم المدهون مساراً لنفسه، فراح يدعو إلى داره في كل أسبوع، وبعد صلاة الظهر من يوم الاثنين تحديداً، أولئك الذين يترددون على درس خطيب المبطون.

لم يقل أنه يدعوهم إلى الغداء ولكنه كان يقول: ما دمنا نملك الوقت حتى صلاة العصر والدرس، فما رأيكم أن تباركوا دارنا بزيارتكم بجلسة قصيرة. إن العمر يمضي فلنكسب مثل تلك الجلسات. لكنه فاجأهم بالغداء في المرة الأولى حتى لقد اعتادوا على غداء قاسم المدهون كل أسبوع.

كان يقول لنفسه: النفوس مجرات مجهولة، ولكل نفس نقطة ضعف.. فلأكتشفها.

وقال غصّاب يوماً: إنهم يركضون وراء كروشهم.

فأجابه قاسم: أطعم الفم، تستحي العين.

منذ تلك الليلة لم يعد قاسم المدهون يحلم، بل راح يضع قدميه في درب آخر.

ومنذ تلك الليلة، ما عاد يسأل صبوحة الخليل: حدثيني عن القذارة.

بل راح يسألها: أتعرفين شيئاً عن مجد أجدادي؟

تضحك صبوحة الخليل، وتقول: حدّثني عن الليل!

*

كان معجباً بالمهاتما غاندي.. وإعجابه هذا، ربما كان مردّه إلى سياسة "اللاعنف" التي نادى بها غاندي. ولكنه عندما يتأمل الأشياء والأحداث التي تجري حوله، فإنه يفضّل الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي صار قائداً في مرحلة من مراحل التاريخ العربي.. فأي طريقة عليه أن يسلكها؟

طال تأمله، حتى وجد نفسه ذات مساء وهو يستعيد انتظاره في محل الحلاق أبي خالد. كان آنذاك- في الثانية عشرة من عمره- جلس بانتظار دوره حتى إذا حان موعد حلاقته، دخل شاب.. فصّله أبو خالد عليه، وحلق قبله.. ثم جاء آخر وتركه أبو خالد منتظراً. أحسَّ أن دماءه تغلي، وأن أنفاسه أضحت مضطربة، وبلحظة خاطفة كالبرق، انطلق خارجاً من محل الحلاق. التقط حجراً من الطريق وقذف به محل الحلاق. أصابت مرآته الحائطية الكبيرة التي تكسّرت إلى شظايا.. لقد دفع أبوه ثمن المرآة لأن الحلاق أقسم أن غالباً هو الذي كسرها، وظل غالب حتى آخر لحظة وهو مُصرٌّ على إنكاره، لكن ذلك لم يحُل دون أن يدفع أبوه ثمنها. كان خائفاً من أن أباه سيعاقبه عندما يصل إلى البيت، لكن أباه كان هادئاً- على عادته- فسأله أن يخبره بالحقيقة دون زيادة أو نقصان.. فاعترف غالب وأخرج البيضتين اللتين كان من المفترض أن يقدمهما أجراً لأبي خالد من جيبيه وأعطاهما لأبيه وهو يقول:

-كنت أرى الحلاق يهزأ بي، فالشاب ليس أفضل مني ليأخذ مكاني على كرسي الحلاقة.. إنه ظلم يا أبي!

ويتذكر أن أباه ابتسم حينذاك، وقال:

-دعك من أبي خالد من الآن فصاعداً واذهب إلى الحلاق أبي راغب، فهو أكثر عدلاً.

ولم يقل غالب الوالبي شيئاً، ولكنه خرج وهو يتمتم:

-هذا ما أبحث عنه، العدل.. العدل في هذه الأرض!

**

لم تفارقه ذكرى تلك الأمسية. حتى وهو في أشدِّ ساعات العمل، حيث كان يساعد أباه في شحذ المحاريث والسكاكين في فصل الصيف.

تلك الذكرى ظلت تلاحقه؛ وعادت إليه في ظهيرة أحد الأيام عندما كان يلعب كرة القدم مع زملائه، حيث وجد أن بعض المتفرجين من زملائه يودُّ لو أنه يلعب، لكن الفرصة لا تؤاتيه.. فاقترح أن يكوّنوا أكثر من فريق، وأن يكون هناك أكثر من كرة واحدة.. فلِمَ هي اللعبة الوحيدة المفروضة عليهم؟ لِمَ لا تكون هناك كرة السلة، وكرة الطاولة، والكرة الطائرة؟ لِمَ- إضافة لرياضة الجسد- لا تكون هناك رياضة للفكر؟

ولم ينتظر، فقد باح لأكثر من زميل بفكرته، وإذ قوبلت فكرته بالاستحسان كان عليه أن يبدأ بالتنفيذ. شكّلوا من بينهم لجنة لجمع التبرعات الأسبوعية، ليرة من كل زميل في كل أسبوع.. وانتُخب أحدهم ليكون أميناً على ما يجمع لشراء الأدوات الرياضية والكتب.

توسّعت فكرته في المدرسة، ووجدت أنصاراً آخرين، انضموا إليهم. إنه يتذكر ذلك، كأنه يعيش توهجها وحماستها في لحظاته هذه، كما تعيش حادثة أبي خالد الحلاق داخل كيانه في كل لحظة. حتى إذا انتهت أيام الدراسة، باشروا باستئجار دار لتكون ملتقى لهم، وخُصصت إحدى غرفها الواسعة لكرة الطاولة وقاعة للمطالعة، ووقفوا طويلاً أمام اختيار اسم لهذا المكان الذي جمعهم، فكان هناك عدة اقتراحات توقفوا عند أربعة منها:

-نادي الملتقى، نادي الشعلة، نادي النهضة، نادي الشباب".

وكادت أن تحدث مشادّة بين أصحاب الاقتراحات لكنه تدخل، فقال:

سنوافق على الاسم بالتصويت.

ونجح اقتراحه، وتمت التسمية على الشكل التالي:

"نادي النهضة.. رياضي، ثقافي، اجتماعي".

**

أضاف النادي إلى أعضائه السابقين أعضاءً جدداً، وكان أن جيء بالكتب: لجبران خليل جبران، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وطه حسين، وعباس محمود العقاد. وغيرهم. أخذ

على عاتقه اختيار الكتب وشراءها بما يتوفر لـه من الاشتراكات وما تأتي به كرة الطاولة من ريع، وراح "نادي النهضة" يفتح أبوابه حتى الساعة العاشرة مساء، كان من أوائل الذين يدخلون غرفة المطالعة، وكان آخر من يخرج.

توقف عند كتب كثيرة، لكن الكتاب الذي أعاده أكثر من مرة هو كتاب "كوخ العم توم".ـ وفي كل مرة كان ينتهي إلى تساؤل لا يجد إجابة عليه:

-ألن ينتهي الظلم من هذا العالم؟

ثم يضيف متحسراً:

-زمن غير هذا الزمن الذي نعيش عاشه المهاتما غاندي.. ولهذا فإنه نادى بسياسة اللاعنف، وزمننا يرفض هذه السياسة لأنه يقابل البسمة بالصفعة. ويتذكر أن أباه، انتظر زملاءه وهم يودعونه في إحدى سهراتهم، فقال له، وهو يهزّ رأسه:

-دعك من السياسة- يا بني!- فللسياسة رجالها. ابحث عن لقمة الخبز فأنت أكبر أخوتك. لا تنسَ هذا يا غالب!

ونظر إليه وابتسم ثم قال:

-"لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. يا أبي!

أشار الأب برأسه موافقاً، ولكنه قال:

-الحذر واجب.. ولا تعاند من إذا قال فعل.

**

كان يحب في ساعات ضيقه من القراءة أن يلعب بكرة الطاولة ثم يعود ثانية إليها، لكنه لا يستطيع أن يكتم فرحته وهو يستمع إلى المناقشة التي تبدأ هادئة بين زملائه وأصدقائه في نادي النهضة، ثم لا تلبث أن ترتفع إلى جدل صاخب. جدل ترتفع فيه الأصوات مشيدة بالماضي، متأففةً من الحاضر، يائسة من المستقبل. كان يستمع ويناقش.. وفي كل الأحوال، فإنه يحس بالفرحة فهذا النادي مثلما بدأ برياضة البدن، صار يعطي ثماره في رياضة الفكر.

لقد أشرقت الشمس، أشرقت التلال التي تحيط بالمنخورة، فهل تبقى مشرقة مع شروق الشمس وتغيب مع مغيبها؟ لمن يبث أفراحه، ولمن يهمس بأحزانه ولواعج روحه؟ لمن يمكن أن تستكين نفسه، ولمن يبثّ طموحاته وآماله؟.. وربما كان الأهم: هل يمكن لكل ذلك أن تأتي عليه رياح مفاجئة فتقتلعه من جذوره؟ إنه يعيش حالة قلق من الناس؛ يعيش حالة قلق مع المنديل الذي أهدته إياه منيرة، مثلما يعيش حالة القلق مع حفنة تراب من أرض المنخورة، يحتفظ بها دائماً في منديلها، وكم تساءل دون أن يصل إلى إجابة مقنعة: ما معنى الاحتفاظ بحفنة التراب الصغيرة في منديل منيرة؟

"الماضي، الحاضر، المستقبل".

ثلاثة محاور تدور حياته حولها أحياناً، ويدور حولها في أغلب الأحيان.ـ يحاول- دائماً- كلما كان وحيداً أن يعرف لِمَ لمْ يكن أبوه يضحك؟

مرة واحدة سمعه يقول: الضحك للأطفال. لكنه كان يتساءل: حياتنا- منذ لحظة الولادة وحتى الموت- ومضة سريعة، فلماذا لا نضحك؟

ذات مساء وهو يذكره جيداً، كانت هناك غيوم كثيفة سوداء، حوّلت عالم المنخورة إلى ليل قاتم، راح البرق يلمع من كلّ الإتجاهات، توالى هزيم الرعد قاصفاً، مدوّياً، أحسَّ بالجدران، كأنها ستتهاوى فوق رؤوس البشر، تكوّر أبوه في فروته الصوفية أمام مدفأة الحطب، وتمتمت أمه: "يا رب.. اجعله خيراً"! وإذ فتح الباب لينظر إلى السماء، صرخت أمه:

-عُدْ وأغلق الباب. أنسيت الصاعقة؟

أغلق الباب، وعاد إلى المدفأة، وقال يومها، وهو ينظر إلى نار المدفأة:

-لم يخلق الله الإنسان من الطين، لقد خلقه من النار.

وإذ نظر إليه أبوه بقسوة، قال:

-يا غالب استغفر ربك فلقد خُلق الإنسان من الطين.

4

بلهف حارٍّ يركضون حيناً، وبخطى واثقة وسريعة، يتقدمون وهم ينظرون إلى الوحل العالق بأحذيتهم حيناً آخر. على جباههم وفي أعماق عيونهم تلوح لذة الانتصار. ينظرون إلى المنخورة، يخيّل إليهم أنها تبتسم أو ربما تضحك، فيتطلعون إلى الوراء، وينظرون إلى أيديهم التي استقبلت الدفعة الأولى من الماء، حيث راحوا يتراشقون بها على غير هدى.

ها هي ذي المنخورة تستقبلهم وقد جاؤوا من أطرافها، يحملون البشارة إلى قاسم المدهون.

استمع لبشارتهم مبتسماً، وأزاح الكرسي الآخر الذي كان يمدد يده عليه ونهض واقفاً، وبعد أن نظر إلى الأرض لعدة ثوان، رفع رأسه، وقال:

-وجوه الخير تستأهل الخير.. انتظروني.

وإذْ تركهم في باحة الدار، دخل إلى غرفته وراح يحصي بعض الأوراق المالية، قلّبها بين يديه، وقال محدثاً نفسه:

-ارمِ للكلب عظمة يتبعك.

خرجَ راسماً على شفتيه ابتسامة، وقال:

-وجوه الخير تستأهل الخير.

وبعد أن سمع أحدهم يدعو لـه بطول العمر، قال:

-لهذه القرية واجب علينا، فلنعمل من أجلها.

وقبل أن ينصرفوا، قال لهم:

-غداؤكم سنحتفل به عند البئر غداً.. لكنني أريدكم أن تنتهوا من البئر الثانية بوقت أسرع.

وبعد أن أغلق باب الدار على مهل...

عاد إلى جلسته ليضع رِجْلاً على أخرى. تلمّس كرشه أولاً، ثم بسط راحتي يديه وراح يتطلع إلى أصابعه. تراءت لـه أن بسمة ذات مغزى راحت تتلألأ أمام عينيه.

منذ عشرين يوماً أحضر آلات الحفر، وها هي ذي المياه تدفق من البئر الأولى؛ منذ عشرين يوماً لمَّح غالب الوالبي في درس الإمام خطيب المبطون إلى محاولة البحث عن المياه وها هي ذي البئر الأولى.. وسوف تليها الثانية والثالثة والرابعة، فلقد جعلنا من الماء كل شيء حي!

أربع آبار.. ولتعمل على مدار الليل والنهار، ولتتدفق المياه، سيحرث الأرض ويزرعها قمحاً وشعيراً وسوف يسيّجها بأسلاك

شائكة ثم بأشجار الحور والصفصاف.. ولم ينته إلى قرار بشأن الأشجار المثمرة الأخرى التي سيزرعها.

*

"اجرِ يا غالب.. فالمنخورة ضيقة والصحراء شاسعة، مترامية الأطراف، وصفحة الأحزان والألغاز لها بداية لكنك لا تعرف لها نهاية؟

اجرِ يا غالب... ولا تسألن كيف سكت بعض الناس عن أراضيهم التي ملكها قاسم المدهون في ظاهر المنخورة، وكيف ملك قطيعاً من الأغنام؟

لا تفكر: فقد أغمض الزمن عينيه.. وأضحى يوزع ابتساماته بالقسطاس على من يحضر جلساته في باحة داره التي تطاولت فيها الأشجار وزُينت بركته الصغيرة بنافورة ماء.

لا تتوقف يا ابن الوالبي لتتأمل الحاضر وتستنطق الماضي. لا تفقد الصبر، فأنت ما زلت في البداية.

اجرِ يا غالب!

لا تقل هذا زمان الأنانية والمنفعة. لا تقل شيئاً حين ترى أشياء تنغّصك. ابتلع غصتك وقل: ما رأيت.

لا تقل شيئاً إن سمعت ما يكدّرك. تذكر فقط أن أباك قال لك يوماً:

"-الزمن إما أن يكون معك وإما أن يكون ضدك."

لا تقل: لقد أغمض الزمن عينيه، كما تتوهم أحياناً، فالزمن لا يتوقف، إنه تارة كالسلحفاة يزحف زحفاً، وتارة يعتلي صهوة جواد ويركض.. فليكن لك من النهر قدوة ومن عاصفة الصحراء رمزاً".

وإذْ راح المساء يخيّم على عالم المنخورة، أحسَّ أنه بحاجة لأن يصعد إلى سطح الدار، كما يفعل في أغلب أمسياته. تراءت لـه الأضواء الكازية الشحيحة وهي تنبعث واهنة من الكوى العلوية. تأمل دخان المواقد الذي ينبعث من روث البهائم ويتلاشى في الفضاء. أحسَّ وهو يتأمل كلَّ ذلك، إنه يتخبط في خندق مليءٍ بالأحجار والأشواك والأفاعي، وأنه هوى مُكباً على وجهه، وإذْ نهض وهو يتحسس الدم النازف من جبينه ويديه تطلّع إلى الأعلى حيث السماء في مكانها والأرض هي الأرض والطريق مسارب شتّى؛ يفضي بعضها إلى اللذة والعزة وبعضها إلى الموت أو الفقر أو السجن.

في هذه القرية وُلد وما هو بالغريب عنها، وفي هذه الأزقة عرف طفولته وصباه. تعارك مع من تعارك، وظل صديقاً لمن أيقن أنه سيظل وفياً.

ها هنا تختلط حشرجات الفقر بعَواء المال، وها هنا تتضوّع بعض الثياب عطراً، ويوشم بعضها الآخر بملوحة التعرق ورائحته المتفصدة من الأبدان.

وها هي ذي آبار قاسم المدهون تتدفق ماءً، وترتفع سنابل القمح والشعير متمايلة مع الهواء، ويبحث الآخرون عن اللقمة فيهرولون إلى قاسم المدهون بحثاً عن العمل. تراقبه وهو يبتسم بعينين حياديتين، تحاول أن تلغي كثيراً من أسئلة، تتلولب في داخلك عن صدق البسمة لكنك ترفض ذلك.

أنت منهم، ولست منهم.

في الزمن نفسه أنت، وعلى الزمن نفسه تتمرد.

لا تصرخ، يا غالب الوالبي.. فالصحراء موحشة وللمنخورة عالمها الخاص، كما لمنيرة عالمها الخاص.. فما عليك إلا أن تستعين بالصبر والانتظار، فلعل الفرح يقترب من القلوب المكروبة فتستيقظ من حزنها على عالم جديد، بقدر ما تحلم به، فإنك تتوقعه يوماً.

*

في ساعات الصحو يقول إن الحياة كذبة كبيرة تنبحها مئات الكلاب بأصوات متعددة؛ تارةً تأتي حادة وتارةً تأتي ممطوطة.

وفي ساعات الخمر يراها دروباً محفوفة بالورود والنساء، ولأن هذه الدرب هي دربه المفضلة فلتكن خطواته دائماً إلى الأمام. في زمن ما، حيث كان يرى المال بين يدي أبيه ولا يستطيع أن يتصرف، فإنه كان يحسُّ بعذاب في جسده وروحه. إنه يتشوق إلى الانطلاق حيث عوالم أخرى يحلم بها، لكن أباه يقف دون أن يسمح لـه بمثل هذا "التبذير" الذي يفكر فيه، كما كان يقول.. ذلك أن "المال يجرُّ المال والقمل يأتي بالصئبان". في زمنٍ ما كان دائم التفكير بالوصول إلى صندوق المال الخشبيِّ، ولكن الجرأة لم تؤاته فظل حبيس الفكرة وعذاباتها، حتى جاء ذلك اليوم الذي هاجمت فيه الخفافيش أباه، ثم جاء موته. لم يكن يتوقع أن الأيام ستتسارع ليكون ثرياً متوهجاً، لم يكن ليتوقع أن الناس سيركضون إليه باحثين عن العمل واللقمة، حيث تكفي هزة برأسه أو إشارة بيده لِيُدخِل السعادة إلى قلوبهم أو ينتزعها.

إنه يتأرجح بين الماضي والحاضر. في الماضي كان أسير طموحات لا يستطيع أن يحقق منها شيئاً، حيث كان يعتقد أن أباه هو الحاجز الأكبر في حياته، وفي الحاضر، الذي يعيش توهجه، يريد للأيام أن تغذَّ السير، أن تتسارع بسرعة أكبر. طموحاته التي بدأ يقطف بعض ثمارها لما تتحقق بعد. إنه يحسّها- أحياناً- وكأنها واقفة، كأن شيئاً يشدها إلى الوراء، إنها حركة واهنة، لا تتسارع كما يشتهي، وإن كانت تبدو للآخرين في أبهى قوتها ولمعانها.. ومن حيث لا يدري تساءل: أين يكمن الخلل؟

ولأنه لم يصل إلى إجابة مرضية، فقد عادت به ذاكرته إلى دعوة الغداء الأولى التي أقامها عندما تدفقت مياه البئر الأولى، ودعوة الغداء الثانية والثالثة والرابعة، عندما تدفقت مياه البئر الثانية والثالثة والرابعة وفي كل هذه الدعوات كان يفتقد ثلاثة: غالب الوالبي، وطه الأعمى وابن عيسى.

بعد كل غداء، كانت تشتبك الأيدي برقصة جماعية، لكنه كان يفتقد فيها الحيوية التي ألفها عندما يكون طه الأعمى حاضراً. إن لضربات طبله وقعاً في النفوس قبل الأجساد. كان يرى قطرات العرق وهي تتكوّر فوق الجباه وتسيل على الخدود والرقاب. كان يلاحظ ارتفاع الأرجل إلى الأعلى لتعود إلى الأرض بعنف أقوى.. لقد جيء بأبي شعيب ليضرب على "الدربكّة" بدلاً من طبل طه الأعمى، لكنه كان يدرك وهو يتابع الرقص أن ابتهاج الناس ينقصه شيء ما، وهو يعرف ما هو هذا الشيء الذي يفتقده الناس من خلال عيونهم وحركاتهم وهمسهم ولكنه يرفض أن يتلفظ باسم طه الأعمى.. فمن طه الأعمى حتى يتلفظ باسمه؟.. ومن هو ابن عيسى؟.. ومَنْ هو غالب الوالبي؟.. إنهم يعيشون على هامش الحياة، والحياة لا تتوقف عند من يكون على هامشها. الحياة- كما يرى- تنقاد لمن في مركزها، وهو ليس في مركزها فقط، إنه مركز الحياة في المنخورة، وما دام كذلك فإنه لن يأبه لعالم المجانين فيها.

أحسَّ ضيقاً من هذه التذكارات التي وفدت إليه من أعماقه، وهو في كل مرة، يحاول أن يزيحها جانباً أو يلغيها ولكنها في كلّ مرة تتمرد عليه وتعكّر صفو جلسته، فإلى متى سيظل أسير هذه التذكارات؟

لن تسعفه إلا زجاجة الخمر.

الخمر وحــدها تجعله يحسُّ أنه أكــبر من الوقــوف عند هــذه الأسئلة الــتي تتــوالى في خـاطره، فيحـاول التخلص من ملاحقتها ولكنه يظل أسيراً لها دون الخمر.

لم يعد يطيق الانتظار ليتجرعها على مهل. إنه يريد للنشوة أن تبدأ بسرعة من كأسه الأولى، ثم تأتي الكأس الثانية والثالثة على مهل.. تبهت صورة الماضي، وتنفلت تطلعاته إلى المستقبل من أصفادها.

عندما أرغمه أبوه على أن يترك المدرسة وهو في المرحلة الإعدادية، بكى يومها، وبكى في ليلته الأولى والثانية، كان يشعر بالحزن مثلما كان يشعر بضرورة الانتقام من أبيه.. لكنه مع مرور الأيام تعوّد عالم البطالة الذي لم يطل حتى فوجئ بموت أبيه.

ها هو ذا ينتهي من كأس الخمر الثالثة. تتراءى لـه صبّوحة الخليل عارية على غصن الكرمة التي تطاولت في باحة داره.. وربما تكون هي المرة الأولى التي يتساءل فيها قاسم المدهون جدياً:

-لماذا لا يتزوج من صبوحة الخليل؟

وقبل أن يعيد السؤال على نفسه مرة ثانية، تراءت لـه منيرة على الغصن الآخر المقابل لصبوحة الخليل، فهزَّ رأسه وفرك عينيه.. وكان بحاجة لكأس رابعة من الخمر ليبعد صورة غالب الوالبي عن عينيه.

*

يعرف ابن عيسى أن زائره الوحيد في مثل هذا الوقت هو طه الأعمى، يعرف ذلك من خلال نقرات العصا التي يتوكأ عليها، يبتعد بوساطتها عن الحفر الترابية والأحجار الصغيرة التي قد يتعثّر بها.

إنه المساء، ذلك الوقت الذي يفضله طه الأعمى على كل الأوقات لزيارة ابن عيسى. وعلى الرغم من الرطوبة التي كانت تلفّ كونهما حيث تحمل لهما رائحة البراري، فإن طه الأعمى كان يحب أن يبتعد عن أطعمة الأعراس والأموات، ويحسُّ سعادة غامرة إن لم يكن هناك عرس أو موت، يفضِّل أن يجلس وحيداً، فيسيح بعالم خاص لا يعرف لـه بداية ولا يعرف لـه نهاية. لا يعرف كيف يبدأ عالمه هذا ولا يعرف إلى أية نقطة ينتهي؟ يحاول أن يتخلص من ذلك اليوم الذي كان فيه طفلاً لما يتجاوز التاسعة من عمره حيث كان يرغمه أبوه على قراءة القرآن حتى ساعة متأخرة من الليل.. وفي تلك الليلة، التي كلما تذكرها، يحس أن خنجراً يتلولب في أعماقه، من السرة وحتى القلب بحركة دائرية وحلزونية، في تلك الليلة حيث كان القنديل الكازي أمامه والقرآن في حضنه، راح يقرأ ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب. في تلك الليلة أقسم أبوه أنه سيضربه ضرباً مبرحاً ويتركه في الأسطبل حتى الصباح إذا لم يحفظ ثلاث صفحات من سورة يوسف.

إنه يتذكر، على الرغم من مرور خمسة وثلاثين عاماً على تلك الحادثة، أنه كان يقرأ (سورة يوسف).. وكانت تنتابه حالة من حالات الشرود، فيذهب بعيداً مع جمال يوسف وزليخة التي راودته عن نفسه. كان- آنذاك- يرسم صورة لها في خياله كما كان يرسم صورة ليوسف، ويقف عند هروب يوسف منها، وكيف أمسكت بقميصه من الخلف لإعادته إلى عالمها، وكان آخر سؤال طرحه على نفسه: ما معنى هذه العِفّة التي تمسّك بها يوسف عند امرأة في غاية الجمال؟

يذكر ذلك تماماً.

يتذكر السؤال، لكنه ما عاد يتذكر شيئاً إلا أن رأسه هوت على بلورة قنديل الكيروسين إذْ اخترق الزجاج المتشظي عينه اليمنى. أحسَّ بالنار وهي تشتعل في شعر رأسه ثم غاب عن الوعي بعد صرخة ألم، حيث شظايا زجاجة الضوء قد تعدّت إلى عينيه.

يذكر ذلك تماماً.

ويتذكر أنه بعد سبعة أيام فقَدَ بصره، فبعد أن وضع الشيخ (دقدوق) شيئاً من مسحوق كان يلفه بقطعة قماش في عينيه بكى ألماً، وفي الصباح اكتشف أنه أضحى أعمى، قال أبوه، وهو يضرب كفاً بكف:

"-لا حول ولا قوة إلا بالله.. المكتوب على الجبين لا مهرب منه".

بعد خمسة وثلاثين عاماً يذكر طه الأعمى ذلك ولكنه وصل إلى مرحلة التآلف مع عاهته، فماذا تفيده النقمة على الشيخ دقدوق وذلك المسحوق الذي وضعه في عينيه؟

يذكر ذلك تماماً ولن ينساه، ولكن ما دامت الحياة مستمرة، فما نفع الحزن؟.. يكفي أن المنخورة تبحث عنه في أعراسها وحفلات الختان، يكفي أن المنخورة تبحث عنه ليقرأ لها شيئاً من القرآن في أيام العزاء.

وها هو ذا يحسُّ ببهجة الفرح عندما يجلس وابن عيسى وحيدين، وأمامهما كأسان من الشاي يتلذذان بهما.

لم يكن ليخطر على بال طه الأعمى أن ابن عيسى يمكن أن يفكر في الذهاب إلى مقبرة القرية في هذا المساء الرطب، ولكن ابن عيسى قال له: أتخاف المطر؟

فقال طه الأعمى: أجل.ـ فأنت تعرف وعورة المقبرة.

قال ابن عيسى: يا طه.. لا تنسَ ما سأقوله لك، إن الغيوم خاصمت المنخورة، فلا تخف من رعد دون مطر.

وتساءل طه الأعمى مستنكراً: أوتشرك بالله يا بن عيسى؟!

قال ابن عيسى: البعرة تدل على البعير يا طه!

قاطعه طه الأعمى، وبعد قليل ستقول "لا دخان بلا نار.."؟

قال ابن عيسى: لو كنت مبصراً- يا طه- لرأيت قطرة المطر ترتفع إلى السماء قبل أن تصل إلى الأرض.

فقال طه الأعمى: لم أعد أفهم شيئاً.

قال ابن عيسى: وأنا لا أفهم أشياء كثيرة، لكنني أعرف أن رحمة السماء انقطعت منذ أن صار قاسم المدهون يصول ويجول.

قال طه الأعمى: ولكنه حفر الآبار وتكاثرت الأشجار في أرضه مثلما تكاثرت سنابل القمح والشعير كما يقولون.

قال ابن عيسى وهو ينهض واقفاً: تأخرنا عن المقبرة يا طه!

وإذ ضحك طه الأعمى قال ابن عيسى وهو يربت على كتف طه:

-تذكر ذلك يا طه.. فلربما متُّ قبلك.. لا بد من الغاشية.

***

لم يكن طه الأعمى بحاجة إلى عصاه بعد أن شبك يده بيد ابن عيسى، حيث انطلقا إلى مقبرة القرية بمشية كانت أقرب إلى الهرولة، وهناك جلسا متجاورين وقبالتهما كان ضريح أبي ذر الغفاري الذي لا يعرف أحدٌ من بنى حولـه بيتاً طينياً مغلقاً من كافة جوانبه باستثناء باب صغير صنع من الصفيح.. وقد أحاله الزمن إلى قطعة صدئة مثقوبة في أكثر من مكان.. ربما بتأثير الحصى التي تنهال عليه من مقاليع الأطفال في أثناء مخاصماتهم التي لا تدوم أكثر من بضعة أيام.

5

لم يعد باستطاعته أن يهرب من أعين المتطفلين وهم يتابعون مشيته ورأسه المرفوعة وثيابه الأنيقة إلا عندما يغلق باب الدار.

هنا في باحة الدار يعلو صوته..

يتمدد على الفراش الصوفي كيفما يشاء..

هنا يشرب الخمر. وفي الدرس الأسبوعي الذي لمّا ينقطع عنه إلا لأسباب تمنعه بالفعل عن متابعته، يعلن غضبته على "من يشربها ومن يحملها ومن ينظر إليها".

في داره يلقي بجواز سفره المزوَّر الذي يتوهم أن أحداً لا يعرفه. يغمض عينيه في شهقة طويلة، وإذْ يزفر ما حبسه من هواء في رئتيه وهو يفتح عينيه، يحسُّ بالراحة. ينتهي من جحيم العيون التي تلاحقه، وعالم الهمس الذي صار يظن أنه يتابعه حتى في نومه.

بين قطبين يعيش؛ قطب التمويه وقطب الحقيقة، قطب التدجين وقطب الطلاقة، وبين هذين القطبين كان عليه أن يستمر، إنه يتأرجح بينهما ولكنه على ثقة أنه لن يسمح لأحد القطبين باحتوائه، هو الذي عليه أن يحتوي هذين العالمين اللذين وجد نفسه بينهما.

وبعد أن يغلق باب غرفته، كان لا بدَّ من رشفة صغيرة من عالم الخمر، ثم يفتح الباب ويصرخ:

-أين الغداء.. يا حسنة؟!

وإذْ لا يأتيه جواب، يصيح بصوت أقوى:

-أين الغداء.. يا ابنة الكلب!؟

تعوّدت حسنة على صرخته في مثل هذا الوقت، وكم فكرت في مغادرة داره إلى دار أبيها، ولكنها ما أن فاتحت أباها ذات يوم بتلك الفكرة التي تدور في رأسها، حتى صفعها على خدها وقال:

-ماذا سيكون موقفي من أهل المنخورة؟.. لا تفكري بهذا الموضوع إطلاقاً.

قررت أن تبقى في هذا المنفى بعد أن أدركت أن زوجها قد استطاع بماله أن يسيطر على أبيها.

جاءته بغدائه مسرعة، محاولة أن ترسم على وجهها ابتسامة، ولكنه تطلع إليها غاضباً، وقال لها، وهو يشير إلى كأس الخمر الموضوع على الطاولة قرب النافذة:

-هاتيها!

فغّرت فاها وطوقتها الدهشة ولم تعد قادرة على الحركة، لقد وصلت معه يوماً إلى الطلاق بسبب هذا الموضوع. كل الأشياء يمكن أن تتحملها ولكن أن تحمل كأس الخمر وتقدمها له، فهذا ما لا تستطيع أن تقوم به، ولن تقوم به حتى وإن كان الطلاق.

قالت، وهي تضيّق فتحتي عينيها: موضوع اتفقنا عليه، فلا حاجة لإثارته، إلا إذا كنت تنوي شراً.

نهض واقفاً، ودفعها بظهرها وهو يقول:

-تموت إحداكن تأوهاً تحت الرجل، أما أن تقدم لـه كأس الخمر.. فهذا حرام.. تفو على أبيك وأبي أبيك.

ويترامى إليه صوتها من باحة الدار:

-شممت رائحة جيوبك يا قاسم!

ولم يسمعها، وهي تقول:

-لم تصل شجرة إلى السماء يا قاسم!

وإذ تركته، كان الإحساس الوحيد الذي رافقها أنها غريبة في ذلك البيت. كانت غريبة.. غريبة، كطائر غريب.

*

زغردت نفسه ببسمة انتصار..

تراءت لـه الجدران ضاحكة، حتى تلك اللوحة القديمة لعنترة وعبلة وهما يعتليان صهوة (الأبجر)، تراءت لـه ضاحكة، لكنه تساءل: لِمَ يظهر أبوه في الصورة المعلّقة إلى جانب اللوحة متجهماً؟

لم يتوقف عند تساؤله بل أشاح بوجهه إلى النافذة، حيث كانت السماء زرقاء صافية، تلفّت إلى الصندوق الخشبي في زاوية غرفته. تلمَّسه من الأعلى إلى الأسفل. إنه يعيش مفاجأة خاصة مع ما يتكدس في جوفه من مال وذهب، يحسّ أنه يتلمس حريراً ناعماً، فكأن الخشب وزخرفته النافرة قد اختفت تحت أنامله. لقد أضحى الخشب ناعماً كالحرير؛ طرياً.. يفتح شهيته إلى عالم الكلام وعالم الليل.. مثلما يفتح شهيته إلى كأس الخمر، ونهدي صبّوحة الخليل الممتلئين اللذين يستسلمان تحت راحتي كفيه وأنامله.

اخترقت عيناه زمنه الحاضر، فصدحت روحه بنشيد مجده المقبل الذي تراءى لـه وهو يزداد أبّهةً ونضارة.

هامت عيناه فوق أزقة المنخورة وكرومها ورجالها، الذين- كما يقول- ينحصر عالمهم، ما بين كروشهم وأقدامهم.

اقترب من المرآة الحائطية المستطيلة. غمرت وجهه لهفة فرح وهو يتأمل جسده العملاق، وإذْ حطت عيناه على وجهه وعينيه الواسعتين العسليتين وخاتمه الذهبي المتوهج في بنصره، تذكر ما قاله ذات ليلة لصبّوحة الخليل: "أنا سيد المنخورة".. ومن حيث لا يدري، خاطب المرآة قائلاً:

-دون منازع يا صبوحة.ـ والزمن قادم.

ارتمى على الكنبة الوثيرة. وضع رِجْلاً على رجل. راح يفرك جبهته بسبابته وإصبعه الوسطى وإبهامَه وقد أغمض عينيه وهو يحسُّ أن سفنه تدفعها الريح باتجاه مرافئ يعرف أنه سيجد فيها الطمأنينة ونشيد المجد الذي تدندن به روحه.

لم يكن يركض، بل كان يعتلي صهوة فرس سوداء اللون ذات ناصية بيضاء، تسير به على مهل إلى أراضيه وأشجاره. يمرُّ بها دون أن يترجّل. لم يكبح جماح فرسه، بل لقد انطلقت به خبباً في البدء ثم عَدْواً. وجد نفسه أمام قصر قديم مهجور في الصحراء، طغى عليه حبُّ الفضول. ترجّل عن فرسه وصعد الدرج الحجري الذي سقطت بعض أحجاره. كان يقفز سريعاً إلى الأعلى، وإذ وصل وجد بوابة صغيرة تقوده إلى الشرفة النافرة المطلة على عالم الصحراء الساكن، وعلى الرغم من أنفاسه اللاهثة، إلا أن الدهشة سيطرت عليه إذْ تطلع إلى الأسفل فوجد بحيرة صغيرة ماؤها عكر.. وهناك كانت ابنتاه بدرية وسعاد، تسبحان. بدتا لـه صغيرتين. ومن الدرج الحجري تناهت لـه أصوات خطى، تلفّت فإذا بصبّوحة الخليل تصعد إليه ولكنه بحركة من يده أشار لها لكي ترجع، وعاد ليتأمل ابنتيه وهما تسبحان بمهارة، وعندما اطمأن إليهما، عاد ليتأمل عالم الصحراء، لكنه ثانية سمع خطوات على الدرج، لم يرَ صبّوحة الخليل هذه المرة، لكنه رأى منيرة، ابتسم وهو يفتح ذراعيه ليحتضنها. سمع صوت سيف ينتزع من غمده. تلفّت خائفاً ناحية الصوت، فإذا به يرى غالباً الوالبي.

هزَّ رأسه وفرك عينيه. نهض عن كنبته الوثيرة مندفعاً إلى باحة الدار، وقال، وهو يمشي قلقاً:

-الزمن بيننا. يا غالب.. وسوف نرى.

بين الوعيد وتلك الرؤية التي أضحت غائمة وضبابية، أحسَّ بموجة من القهر تكاد تحبس أنفاسه. كان بحاجة لسيكارة يدخنها بعمق، وإذ أشعل عود الثقاب تراءت لـه المنخورة وهي تتحول إلى جحيم من النيران.ـ تراءى لـه غالب الوالبي يركض على غير هدى والنار تزغرد في ثيابه باحثاً عن ملجأ يحتمي به، لكن قاسماً المدهون أشار للناس.. فابتعدوا عنه.

*

يحلو لقاسم المدهون أن يشبّه أبا المداح الأشرم بوردة عطرة في جو خانق، وها هو ذا بحاجته الآن أكثر من أي وقت مضى. من خلال أبي المداح يشعر أن سلطته تتوطد أكثر، فهو لا يملك غير كلمات، لكنه يحسُّ أن كلمات أبي المداح هي الشعاع الذي يهتدي به في عالم الظلام. تراوده نزعة الشك- أحياناً- في صدق كلماته.. ومع هذا يحسُّ من خلال أبي المداح وأبي زوجته (خطيب المبطون) أن الناس صاروا يعرفون من هو قاسم المدهون.

لم يطل التفكير به، فقد دخل أبو المداح الأشرم وعلى وجهه ابتسامة لا تفارقه، ولم يكتف- هذه المرة- برفع يده إلى جانب رأسه معلناً عن تحيته، ولكنه انحنى بجذعه قليلاً إلى الأمام، مما أدخل فرحاً داخلياً إلى عالمه فارغمه على الابتسام هو الآخر، وقال من خلال بسمته:

-هذه التحية خاصة بالأمراء يا أبا المداح!

فقال أبو المداح، وهو يجلس إلى كرسي بجانب قاسم المدهون:

-وأنت أميرنا وأمير المنخورة أطال الله في عمرك.

حاول أن يعتصر دماغه ليتذكر من قال: "إذا هبت رياحك فاغتنمها" لكن ذاكرته خانته، لذلك قال بعد صمت قصير:

-ها.. يا أبا المداح كيف تراني؟... أريد الصدق!

ليست اللغة عصيّة على أبي المداح، ولكنه جاء بفكرة يبحث عن مخرج لها، عن مناسبة يفصح بها عن مراميه، وها هو ذا قاسم المدهون سهّل عليه مهمته. لقد تعوّد على الإطراء والمديح.. وأبو المداح، هو الوحيد- حتى الآن- الذي يعرف كيف يركز على هذه النقطة، فلتكن الكلمات من عسل. ألا يقولون في المنخورة "أن لكل رجل مفتاحاً"... وأبو المداح يعرف أنه المفتاح الوحيد- حتى الآن- لقاسم المدهون. إنه يتجاهل ما يسمعه همساً عن عالمه الليلي مع صبّوحة الخليل وما يتناقله الناس عن تعاطيه للخمر ويعرف أنه يظلم بعض العاملين في أرضه فيماطل في إعطائهم ما يستحقون عن أتعابهم.. تناهى إليه بعض من تصرفاته مع زوجته حسنة، وهو لا يريد أن يتدخل بين الرجل وعالمه، ولكنه ما دام المستفيد من كلمات الإطراء التي يكيلها له، فلِمَ يتوقف؟

وانتشله صوت قاسم المدهون:

-ها.. يا أبا المداح.ـ لم تجبني؟

وبعد أن هزَّ رأسه، قال أبو المداح:

-لا تبدو أميراً، بل ستكون سلطاناً.. بشرط واحد...!

وقهقه قاسم المدهون وقد أضحى عاجزاً عن إيقاف الصور التي راحت تتوالد في أفق نظرته البعيدة، وسأل دون أن ينظر إلى أبي المداح:

-سأكون سلطاناً؟.. دفعة واحدة.. يا أبا المداح!؟

وهزَّ أبو المداح رأسه موافقاً، ثم قال:
-العجلة من الشيطان، والعاقل من اتعظ بغيره.. أطال الله في عمرك، وأنت رجل ذكي وحازم وعادل، لكنك لا تعرف أهل المنخورة مثلما أعرفهم، سيدهم من بيده عصا أو خنجر.
قاطعه قاسم المدهون:
-أعرف.. أعرف ذلك يا أبا المداح!
قال أبو المداح مبتسماً:
-مع العصا والخنجر، عليك أن تشغلهم بأفعالك الكريمة، فلو كنت مكانك لقدَّمت شيئاً من أموالي صدقة للمعدمين أو لكنت سوّرت المقبرة.. فأنت تعرف كم نحترم أمواتنا.
قال قاسم المدهون بعد أن وضع شفته السفلى فوق العليا:
-ولهدمت السور الشمالي والغربي للمنخورة.
ورسم أبو المداح على شفتيه ابتسامة، وقال:
-الحرُّ تكفيه الإشارة أطال الله في عمرك.
أحسَّ أبو المداح أن حالة من الركود قد تطاولت بينهما، لذلك قال، وهو ينهض:
-لكل شيءٍ ثمنه في هذا الزمان.. حتى الرجال، لكل ثمنه.. وإن أنت عرفت نقطة الضعف فإنك تصل... والسلطنة- يا سلطاننا- تحتاج إلى الصبر والهدوء رعاك الله.
وإذ ودّع المداح عاد إلى غرفته. دلق في جوفه كأساً صغيرة من الخمر وخرج ليجلس تحت دالية العنب.
رويداً.. رويداً، أضحى جسده أكثر هدوءاً. تابع حُرْقة الخمر في حلقه؛ تابعها وهي تنساب عبر الحلقوم وحتى المعدة، أحسَّ أنه بحاجة إلى كأس صغيرة أخرى.. لكنه لم ينهض، بل تساءل " التعامل مع أبي المداح مثل التعامل مع الخمر.. الحرقة ثم النشوة ثم الصداع؟" وطغت عليه موجة من التأمل الذاتي.. فقال لنفسه: "إن أبا المداح مزيج من النشوة والصداع"، وتداخلت التساؤلات لأنه صار يعرف ثمن تلك المخلوقات البشرية التي يتعامل معها.. لكن السؤال الذي ألحَّ عليه في جلسته هو: كم ثمن غالب الوالبي ومنيرة؟

6

في خلوة التوجس مما كان يجري أمامه، أحسَّ أن يداً مجهولة قد ألقت به في حفرة عميقة مظلمة وخانقة.

راح يبحث في دفاتر دماغه ومما تعلمه من كتب التاريخ في أسباب هذه الاستكانة التي ركن إليها أهل المنخورة. إنه في حيرة مما كان يجري أمامه كأنما هناك غيمة سوداء قد احتوته. توقف ليبحث بين ركامات أبجدية الدهشة عن غيوم لا تجود بالمطر وعن شريحة من الناس لاذوا بمكاسبهم الفردية فاستكانوا وأغمضوا عيونهم وسدّوا آذانهم، فهم لا يرون ولا يسمعون.

توقف ليبحث بين ركامات أبجدية الخنوع عن معنى انضواء أبي المداح الأشرم وخطيب المبطون تحت مظلة قاسم والدعوة إليه؛ وإذْ لم يصل إلى نتيجة مقنعة غير المكسب الفردي، تساءل بمرارة: كيف رضي أهل نايف العباس بحفنة صغيرة من المال بعد أن سقط ابنهم في البئر الثانية وهو يحفرها حيث انتشل بعد يومين ميتاً؟ وتساءل بحزن أكثر: لِمَ لمْ يتنازل قاسم المدهون لتشييع جثمان نايف العباس إلى المقبرة؟

سؤال يقوده إلى سؤال، وإذ تتراكم الأسئلة، يعود إليه إحساسه بأنه ما زال في تلك الحفرة العميقة المظلمة والخانقة ألقته بها يد مجهولة.

يجادل ويحاور لكن أحداً لا يسمعه، حتى أنه لينتهي أحياناً إلى التقوقع على ذاته يائساً من جدله وحواره هذا الذي يتيه في زوبعة من الضباب، ويصل به الشك إلى درجة أنه قد أضحى مريضاً بصمته بعد أن فقد أمله في طبيب انتزعت منه إنسانيته وما عاد يهتم بمرضاه إلا بمقدار ما يضيفون إلى عالمه من أموال.

كانت به رغبة لا يعرف كيف يصفها، ولكنه عندما يعيشها في لحظات خلوته، يبتسم بسمة الفرح الممزوجة بالحزن؛ كانت به رغبة ليخرج إلى الأزقة أو أن يصعد إلى المنبر في جامع عمر بن عبد العزيز ليقول للناس: "إياكم.. والدنَس"!!

وإذا سألوه: منْ يقصد بالدنس؟.. فسيقول لهم هادئاً: إنه قاسم المدهون. لكن من يضمن عودته إلى بيته سالماً، دون أن تنهال عليه الشتائم من خطيب المبطون وأبي المداح الأشرم وربما غيرهما؟

لن يكون معه أحد إلا منيرة..

منيرة... فجر المنخورة.. ذلك الشفق الجميل الذي يتراءى لـه بعد أن تنحدر الشمس وراء الجبل.. فمتى باستطاعته أن يحقق وعده ويعيش معها حياة مشتركة، إذْ نورها يلغي ذلك الظلام العميق في داخله؟ ويبتسم إذ تتراءى لـه نوراً ساطعاً يلغي ظلام الأزقة، وذلك الظلام اللزج الذي التصق ببعض النفوس.

بعد خمس سنوات من القحط، تشيل نفسه هلعاً وتوجساً وربما قلقاً، تنبع جميعها من انتظار جريح.

يراقب، يتذكر، يحلل.. لكن الليل- كما يراه في أغلب الأوقات- كان يسبق النهار، فمتى يسبق النهار ليلاً طويلاً خيّم على المنخورة، ونسج خيوطاً دبقة تفرز سماً فوق الأرض؟

تحت صمت الليل كانت تبحر غرفته بالأسئلة التي تبدو أجوبتها مستعصية، ومع أصوات بنات آوى التي تتناهى إليه من سلسلة الجبال التي تحيط بالمنخورة، تتناهى إليه أصوات جريحة أخرى.

إنه يبدو مفصولاً عن العالم. فمن أين يأتي هذا العجز الذي يلفُّ كيانه، ويكاد يغيّب صوته؟ ويجيئه صوت منيرة؛ ذلك الصوت المتمرد على تصرفات أبيها والمتطلع إلى خلق عالم آخر أكثر نقاء:

"-أبي تائه.. ربما يجد نفسه ذات يوم وربما- وهذا الأغلب- لا يجدها، لكنني سأحدثك عن حبي. حبي لك.. لا أستطيع التعبير عنه باللغة. اترك لي أن أحيك على طريقتي، وأريد أن أسألك أن تكفَّ عن تذكيري بفقرك فأنا أعرف كل شيء".

يتذكر.. ويحلل..

في صباح يوم، منذ أكثر من خمس سنوات وقف معها. كان المطر ينهمر خفيفاً. اقترب منها، وعلى الرغم من قطرات المطر التي كان يحسُّ بها على وجهه، إلا أنه أحسَّ بأنها مطره الوحيد الذي يحيي موات العشب في داخله. لم يقل شيئاً، ولكنها قالت له، وهي تمدُّ يدها إلى رقبتها لتنزع قلادتها الذهبية:

-يا غالب!.. أبي يركع أمام الذهب فخذ هذه.. وتقدم بها مَهْراً!

في تلك اللحظة، أحسَّ أن سكيناً حادة اخترقت تلك المساحة الصغيرة ما بين عينيه، فتذكر أباه وهو يقول:

-المرأة تريد (رجلاً). لا تنسَ ذلك.

في خلوة ذلك الزقاق، حيث قطرات المطر الشحيحة والضباب الكثيف، قال لها:

-منيرة لا تكرري ذلك.. أريدك أن تدفعي بي نحو القمة، لا أن تنتهي بي إلى الهاوية.

في صباح ذلك اليوم.. تركها، وعاد حزيناً إلى غرفته. لم يعد باستطاعته أن يقابلها حتى استطاعت أن تتغلب على حزنه، وتلتقي به، لتقول له:

-هل ستتركني؟

فقال لها:

-وهل يستطيع الإنسان أن يحيا دون روح؟

سألته:

-ما رأيك لو تركنا المنخورة وعشنا بعيداً عنها؟

وبعد صمت قصير، تقول لـه بثقة:

-وسوف نعيش.

ها هي ذي روحه تسافر بعيداً في رحلة مجهولة، ويعتصم بالصمت، وإذ تسأله عن قراره، يقول لها:

-لا نريد أن نموت رخيصَين.

في ذلك الصباح والصباحات التي جاءت بطيئة أحياناً ومتسارعة أحياناً أخرى نسيا ما لفَّ عالميهما من غضب، وأحسّا بالدفء.. ما داما قريبين إلى بعضهما.

*

ركنوا باستكانة تحت فضاء الانتظار..

توّجوا الانتظار بهاجس من التساؤلات تجاه السماء التي ما زالت تخاصم المنخورة حيث أضحى المطر حلماً لا يراودهم إلا في نومهم، وتجاه قاسم المدهون الذي يميد في عالم يبدو لهم دافئاً، وزاهياً، وشفافاً، بخاصة بعد أن خصص قسماً من داره لاستقبال الناس في المضافة شتاء، وفي الحديقة صيفاً، وأوكل أمر القهوة المرة والشاي لهذال الحسن.

تحت فضاء الانتظار، اختلطت الحقائق بالأكاذيب. راح بعضهم يرى العالم نقياً، وظل بعضهم الآخر مُصرّاً على رأيه.. أن العكر يمور في الأعماق ولا بدَّ لـه من أن ينشق يوماً إلى السطح.. وعندما يسمع أبو حسين القحطاني كلام الفريقين، يهزّ رأسه.. ويقول:

-كبرت.. كبرت يا جماعة.. ربما ستضحكون مما أقول، لكنني أرى أن لكل زمن كلابه.

ها هي ذي الريح الصرصر تهب عاصفة من كل الاتجاهات، لكنها لا تحمل غبار الطلع؛ وها هي ذي امرأة أخرى.. تتوحم، لكنه الوحم الذي ينبئ عن وهم بلا حمل، وها هي ذي الغيوم تتكاثر، فيتوهم الناس بالبرق والرعد والمطر لكن شيئاً لا يحدث.

تحت خيمة الانتظار والزمن الذي أضحى مرصوداً بعيون قاسم المدهون، راح الناس يتهامسون، حتى لقد أضحى الهمس شريعة وقانوناً.

إن سئلوا عن قاسم المدهون، قالوا:

-أدام الله وجوده، فها هو ذا سوّر المقبرة، فلم تعد تمرح الكلاب فيها.

وإن سئل خطيب المبطون، قال مبتسماً:

-لندعُ لـه بالتوفيق. فما أعرفه عن تقواه وعدله، وما يفكر به لخير هذه القرية وأهلها لا تعرفون عنه شيئاً.

وعندما سئل ابن عيسى، مدَّ يده اليسرى مضمومة الأصابع أمامهم، ثم قال وهو يفرج عن إبهامه وسبابته واصبعه الوسطى بالتتالي:

-باء، تاء، ثاء...

وإذ ضجَّ مَنْ يتحلقون حوله بالضحك، نظر إليهم متألماً، لكن أبا المداح، قال له:

-اشرح لنا.. يا ابن عيسى!

-الباء.. أن تضحكوا في الوقت الذي يجب فيه أن تفكروا. والتاء، تتخبّطون في الوحل وتظنون أنكم تمشون على الأعشاب. والثاء، تعرفون أن الأشواك في حلوقكم ولكنكم تنافقون فتقولون: ما أجمل الورود.

وإذ لم يضحك أحد كما كانوا يفعلون، اندفع بعيداً عن جلستهم، وهو يقول:

-سكارى بالنفاق.. أريدكم أن تسكروا بالحقيقة.

*

على الرغم من مزارع قاسم المدهون ومضافته؛ وعلى الرغم من أنه هدم سوريْ المنخورة، الشمالي والغربي، وبنى سوراً حول المقبرة، فإن المنخورة كانت متوحشة وموحشة. كان بعض الناس فيها إذا كرهوا فإنهم يكرهون بحقد، وإذا أحبوا فإنهم يحبون حتى التهور أو الموت.

وترسم الخمرة في أعماقه وهجاً ساخناً فتغدوا الأشياء في ناظريه باسمةً ورواقصة. يكاد يضحك إذْ تختلط عليه الألوان، اللون الأحمر يلجُ الأبيض. واللون الأزرق يتسلل إلى اللون الأصفر. أي فرح هذا الذي يتموج فوق سطح الأشياء ويتراقص على أغصان الأشجار، ويتبلور في أعماقه لامعاً كالخاتم الذهبي في بنصره؟

يحسُّ ارتخاءً في عينيه ورغبـةً ملحة لـيرتمي فـوق فراشـه، لكنه يرفض ذلك. لا يريد لأطيـاف طموحاته أن تهـرب منـه؛ يريد أن يقبض دائمـاً على الأشـياء والأشـخاص من العنـق، إنه سـيد اللحظة، وسيد زمانه. ألم يصفه خطيب المبطـون في كل خطبة من خطب الجمعة بأنه (العـادل) و (المتفهم لأمـور النـاس) وأنه قد (استوعب الدين بالقلب والعقل وأن أفعاله تصدق أقواله..)؟

إلى الأمام يا قاسم المدهون!

الطريق طويلة ومتعرجة لكنك بـدأت بـالخطوة الأولى ولن يوقفك شـيء.. والخطـوة الأولى لا بـدَّ لها من خطـوات أخـرى؛ لتكن الجـرأة، وليكن الحـذر، لتكن الأبّهة والعظمـة، ولا تنسَ أن الأفعى قد تتسلل إليك وأنت غافل عنها.

يرفع كـأس الخمر باتجـاه الشـمس. تـتراءى لـه صـبّوحة الخليل، كومضة البرق، خاطفةً، بهيةً، راقصة.. يحسُّ شـوقاً إلى أناملها المكتـنزة وبسـمتها الـتي تعـبر به إلى عـوالم غامضة من الشبق على أجنحة لياليه السريّة.

تطاول النهار، حتى إذا أَزِفَ الليل، كانت أعماقه تعلن فرحـاً متوهجاً وهو يغذّ الخطـوات باتجـاه صـبوحة الخليـل. تـتراءى لـه الفـوانيس المثبتة على الأسـطحة ومفـارق الـدروب متوهجـة، فاضحة. أحسَّ عداوة مكبوتة تجاهها. تمنى لو أنها لم تكن أصـلاً. إنه يعشق عالم الظلام، الذي يبعده عن المفاجآت، واتخذ قـراره أنه سيقنع الناس بعدم ضرورتها، بحجة القحط والفقر.

همدت خطواته، بعد أن تلفّت إلى الوراء مستكشفاً أن أحداً لا يتتبعه.

انشقَّ الباب عن قامتها السامقة وتلك الجُـزرْ المتوحشة في عينيها، كم يعشقها، وكم يخافها.

يبـدو العـالم –في لحظاته المتـوترة تلـك- صـامتاً، صـاخباً، بمقـدار ما يحسُّ أنه أضـحى منتصـراً، لكنه الانتصـار المشـوب بمسحة من الخوف.

ألقى برأسه إلى كتفها، دون أن يقول كلمة.

-أهذا أنت؟.. قالت صبّوحة الخليل بحيادية.

أجاب هامساً: أنتِ قمري الوحيد.

تقدمته كعادتها، وإذْ انهدَّ على الفراش، قالت:

-أحاول أن أصدقك، وأنا أعرف أنك تكذب.

بعد أن ابتسم، قال:

-كل الأشياء استطعت أن انتصر عليها إلا لسانك.

وبعد أن رددت الغرفة أصداء ضحكتها الماجنة، وضع سـبابته على فمها عدة مرات، وقال:

-لا نريد فضائح.

قالت، وهي تغمزه:

-أموت في طهرك.

قال: منذ مولدي وأنا مُلَوَّث بالنساء والخمر.

عقّبت: والقتل؟

أخـرج علبة سـكائره، وبعد أن أشـعل لفافـة، تـذكر كيف أنه رتب أمر مقتل نايف العباس الذي قال وهو يعمل في حفر الآبـار ذات يوم:

-سوف تعرفون يوماً.. أن قاسماً المدهون ذئبٌ في ثياب حمَل.

تجاهل ما أومأت إليه، وقال:

-لا أستطيع أن أتخلّص من سلطان حبك.

وبعد أن مدت يدها بكأس الخمر، قالت:

"لنكن صريحين مرة واحدة.. فكل الذين عرفتهم يدّعون الحبَّ، لكنهم لا يطلبون إلا الجنس، ليس هناك حبٌّ في عالم المقايضة يا قاسم".

محاصر –الآن- بالتساؤلات وتلك الفسحة الصغيرة من الزمن، فكيف له أن يفلت من هذه الحصارات؟

رفع كأسه وقال:

-لنشرب نخب فرح قادم.

قالت، وهي تلامس أنفه بسبابتها:

-بعد دقائق، أو بعد سنين؟

أجاب:

-ألم أقل لك إن لسانك.. لسانك طويل.. يا صبّوحة!

ها هي ذي الخمرة تشيل تأججاً في الجسد..

وها هي ذي تأوهات الجنس، ترفعه إلى عالم تختلط فيه الألوان والأصوات.

ها هي ذي المنخورة، مطوّقة بالصحراء... والجبل والنهارات القائظة، والليالي الباردة التي تنتظر فجراً ماطراً.

***

عندما وصل إلى غرفته، أمسك بكتاب "المهاتما غاندي" ومزقه نتفاً صغيرة.. ثم أحرقه، وراح يتطلع إلى السنة النار وهي ترتفع في أوراقه..

وقال غالب الوالبي، وهو يدخن سيكارته:

-إن العقول الخالية من الثقافة والنور، لا تعرف هدفاً، سوى الصيت والنفوذ والمال. لا معنى لـ "اللا عنف" وسط غابة من الأفاعي ولا معنى للحياة مع الخنوع. إنني أعيش في سجن كبير، فما الأهمية أن يكون سجناً صغيراً أو أن يكون موتاً بشرف؟

بدأ نجم قاسم المدهون بالصعود.

بالمال بدأ؛ وبالقتل. كانت البداية نايف العباس، فهل سيتردد في ترتيب مؤامرة للانتهاء مني؟ إنني أعرف زملاء المدرسة الذين صاروا أصدقاء. إنني على ثقة بعقولهم ومؤازرتهم، ولكن ما معنى للعقل أمام جنون الصعود؟

كان كل شيء أمامه يبدو كالنار التي التهمت كتاب "المهاتما غانـدي" وها هو ذا يـرى النـار بخياله تلتهم من يقف في طريقها في عالم المنخورة.

***

منذ أن ترعـرع في شـبابه، وتبـدّلت رؤيته وإعجابه بالمهاتما غاندي، فإنه صار من أنصار الحجاج بن يوسف الثقفي؛ ما عـادت تمرُّ ساعة من حياته إلا ويقـول لنفسـه: "إن الحجـاج، وهو معلم الكتـاتيب المنسـي، جعل نفسه سـيد مرحلته التاريخية بسـيفه" وكـانت هـذه الفكـرة تُـدْخل البهجة على قلبـه، فتنتشـله من تشـاؤميته وذلك لأنه اعتقد أن الكلام لن يجـدي نفعـاً مع عـالم قاسم المدهون.ـ ولكنه، كـان كثـيراً ما يتسـاءل: لِمَ لَمْ يكن أبي غنياً كأبي قاسم المدهون؟

وفي محاولة منه ليعزي نفسه، يقـول: "وسط هـذه الأقـدار التي وُجدت فيها، تبقى لي نفسي.. وعلي أن أقرأ المجتمع مثلما أقرأ التاريخ".

7

بعد عصر ذلك اليوم..

الشمس تميل نحو الغـرب. تقـترب حثيثة من الجبل لتختفي وراءه. ها هو ذا غصّـــاب المـــدهون يحسُّ أن أيامه تتكسّـــر إلى شظايا صغيرة في المزرعـة. يتـابع العمـال، يـأمر وينهي، الـزرع ينمـو، الأشـجار تكـبر. لكنه –وحـده- الـذي يـدرك أنه قد أضـحى منسياً من عالم المنخورة التي تترامى لناظريه كجنةٍ حُرِمَ منها.

كان يُتابع المياه وهي تتغلغل في الأرض عندما ضـجَّ السـؤال من عينيه: لولا المـاء لما نما الـزرع ولما كَبُـرَتْ الأشـجار. ولكن ضجيج جسده هذا الذي يُباغته في أوقات مختلفة، فكيف يرويـه؟ وأجابت أعماقه: لا بدَّ من الارتواء.

بعد عصر ذلك اليوم..

الجسد أضـحى جامحـاً، وتلك المكـامن الخفية فيه أضـحت توّاقة للتمـــدد في بحر شـــهوتها. تشـــرئب بأعناقها إلى الليل والأزقة ورائحة جسد المرأة معروقاً، حيث لا حدود للغته السريّة الـــتي يحسُّ شـــوقاً عارمـــاً إلى جحيمها وجنتهـــا؛ إلى بركانها وهمودها؛ مثلما يحسُّ شوقاً إلى لونيه الأحمر والأزرق.

في ذلك المســـاء لم يكن يفكر بجسد زوجته خديجـــة، لكنه كان ممتلئاً بالرغبة والحنين إلى جسد صبّوحة الخليل، الـذي كـاد ينسى تفصيلاته منذ أن استهلكته أمور الأرض.

في ذلك المســـاء..ســـبقته شـــهوته إلى المنخـــورة وركض جسده لاهثاً ليلحق بها، إنه داخل الـزمن ومـرميٌّ خارجـه، يعتقد حيناً أنه قد غدا متـوغلاً في رحم الأشـياء وأعماقها لكنه غالبـاً ما يرفض هذا الوهم عندما يتذكر أنه أضحى بعيداً؛ غارقـاً في عـالم الأعشـاب والأحجـار والأبقـار. إنه إذ يـتردد إلى المنخـورة، فـإن زيارته تكـون مع المسـاء، وفي صـباح اليـوم التـالي، يعـود حيث الأرض والحياة اليومية الـتي تـراءت لـه ذات يـوم مليئة بالحركة والحيويـة، ولكنها أضـحت سـاكنة باهتة بعد أن فقـدت حرارتهـا؛ فإلى متى يظل مبتعـداً وجسـده يصـرخ حنينـاً إلى تذكاراتـه؟... إلى مـتى سـيظل قانعـاً، مكتفيـاً بـاجترار الـذكرى وأخـوه قاسم يعيش الحياة بكل أبعادها؟

ها هو ذا يتوجه إلى المنخــورة، وفي أعماقه اهــتزت عــوالم من الكلمـــات، لكنها ســـرعان ما تكثّفت بجملة واحـــدة، رددتها شفتاه: سحقاً لهذا الضجر، وأهلاً بعالم الليل.

في ذلك المساء استمع إلى أخيه..

كان حاضراً وفي ذات الوقت كان غائباً. كان يتابع أعمال أخيه؛ وها هو ذا، يستمع إلى طموحاته الجديدة، لكنه كان غارقاً في تأملاته حيث جسد صبّوحة الخليل.. ومثلما كان الليل يتقدم راسخاً وثقيلاً فإن الخمرة التي تتوسطهما كانت تتقدم في جسديهما.

تشيل ضحكاً إلى حدود القهقهة من أعماق قاسم وهو يقطف ثمار مجده الذي بدأ يتصاعد، وتشيل صمتاً وانتظاراً في أعماق غصّاب وهو يتلهف حنيناً، لعلّ الليل يتقدم بسرعة فينطلق إلى صبوحة الخليل؛ فلا بدَّ من أن طموحات أخيه أنسته صبوحة.

تنبّه إلى يد تربت على كتفه:

-أين أنت شارد يا غصّاب.. للمرة الثانية أسألك؟

قال غصّاب وهو يداري ارتباكه:

-كنت أفكر بالبقرة، أظنها ستلد الليلة.

قال قاسم:

-أريدك أن تصعد إلى سُلّم المجد.

وبعد صمت قصير، قال:

-لنتعاون يا غصّاب على بناء مجدينا. اليد الواحدة لا تصفق، كيف يمكن لك أن تصعد والمزارع قد شغلتك؟

قال غصّاب:

-لو أن البقرة ولدت ولادة طبيعية لما كان هناك حاجة للطبيب البيطري.

تساءل قاسم:

-ماذا تقصد؟

قال غصّاب:

-طابت لك الحياة وما تدرّه لك المزارع من أموال، لكنك لو فكرت جدياً بقدومي إلى المنخورة، فإننا سنعهد بالمزارع إلى الآخرين الذين يظلون تحت عيوننا وأقدامنا.

ضرب قاسم المدهون كفاً بكف، وقال وهو يضحك:

-من بطن واحد خرجنا.. دع الأمر لي.

ضحك غصّاب وقال وهو يتأمل وجه أخيه:

-ومن صُلب واحد جئنا يا قاسم!؟

في تلك اللحظة تراجعت كلمات كان قاسم يريد أن يتفوّه بها. كان بوّده أن يقول: لنسأل أمنا، لكنه تماسك لأنه يعرف أن أخاه شديد التعلق بأمه، فاكتفى بأن رفع كأسه، وقال: في ذكرى الصُلب الذي جئنا منه. يا غصّاب!

وإذ توارت ساعات المساء وراحت ساعات الليل تنسفح على عالميهما، نهض قاسم مدّعياً التعب وحاجته للنوم ونهض

غصّاب مدعيّاً –هو الآخر- التعب وحاجته إلى خديجة التي لم يرها منذ شهر.

**

بعد منتصف الليل بقليل كانت أصابع قاسم المدهون تتحسس شريط النافذة.. لكن صبّوحة الخليل لم تستجب كعادتها. أعاد المحاولة مرة ثانية، حيث جاءت لمساته عنيفة.

سألها غصّاب بإشارة من يده: من هذا؟

همست: "ربما ابن أخي". وكانت تعرف أنها تكذب، فلمسات قاسم المدهون تعرف كيف تميزها.

همس غصّاب: هل ستفتحين الباب؟

هزت رأسها نفياً، وإذ تحسس مسدسه تحت إبطه الأيسر، قال غاضباً:

-لا أريد فضائح.

ورفعت يدها ثم وضعتها على فمه، وهي تقول:

-أسكت... سيذهب.. أنا متأكدة من ذلك.

بعد أن تحول الصمت القصير بينهما إلى وحش مفترس كشّر عن أنيابه للانقضاض على فريسته، راح يخبو قليلاً قليلاً وتوارت تكشيرته بعد أن انقطعت اللمسات على الشريط، ثم كأن أن امتدت راحة يده إلى صدر صبّوحة الممتلئ النهدين، وراحت تتحسس الحلمتين اللتين أضحتا نافرتين بلمسات خفيفة حيناً وبطيئة حيناً آخر.

وهمست صبوحة، وهي تحاول أن تستبعد قاسم المدهون في وقفته وراء النافذة:

-لنجلس على الفراش.. يا غصّاب!

قال متجاهلاً كذبتها عن ابن أخيها: لربما عاد ابن أخيك؟

وتجاهلت ما لمّح إليه، وقالت: أحسُّ عندما أكون معك أنني أطير إلى الأعلى.

قاطعها، وهو يرتمي على الفراش: ومع أخي قاسم، كيف تحسين؟

حاولت أن ترسم على عينيها استنكاراً وغضباً، ولم ينتظرها لتتكلم، ولكنه قال:

-اسمعي يا صبّوحة.. كثيراً ما أفكر وأنا بعيد عنك، بالحياة.. حياتنا غير نقية، فهل تتوقعين أن أطلب منك بعد أن ترميك الظروف وقسوة الحياة في بركة ماء أن تخرجي منها دون أن يتبلل جسدك وثيابك بالماء؟

قاطعته: الله.. الله.

قـال: لنكن صـادقين مع النفس، قبل أن نكـون صـادقين مع الآخرين فأنا أعرف أن الذي طرق نافذتك هو أخي.

قاطعته: غصّاب!

قال: وهو يشير لها بيده لتسكت: هذا شيء لا يهمني إطلاقاً، وما دامت الحيـاة سـلعة قابلة للـبيع والشـراء؛ فليس مهمـاً من الذي يبيع، ومن الـذي يشـتري.. بعضـهم يتلهف إلى جسـدك من أجل متعة عابرة.

سألت: ثم؟

قال: لكنـني أريد أن أسـألك.. هل أحسست أن أحـداً يتلهف لمعانقة روحك؟

سألت: ولماذا يريدون الـروح، ما دامـوا يطلبـون شـيئاً غـير الروح.

قال: في زمن المكاسب الشخصية والأنانية تـذوب الفـوارق بين الصالح والطالح، أحسُّ -أحياناً- وأنا تحت الأشجار بأنني نـبي في عصر الشياطين؛ وأحسُّ -أحياناً أخرى- بأنني شيطان صـغير بين مئات الشياطين الكبيرة.

قـالت، وهي تنهض: سأحضر لك الخمر فـأنت حين تشـرب تغدو ملكاً.

أشـعل سـيكارة، وابتلع دخانها متلـذذاً، وراح يتـابع جسـدها يتلـوّى تحت ثوبها الأبيض الشـفاف. وإذ عـادت يـدها إلى علبة سكائره، حيث مدَّ يده هادئاً إلى القداحة وأشعل سيكارتها.

وإذ رفعت كأسها، لم يقل لها إن كل شيء فيه نشـوان حـتى الضجيج، وأنه شرب وخياله يستحضرها منذ العصر.

لاذ إلى عالم الصمت. راح ينظر إلى عينيها متأملاً حركتهمـا، حيث كانتا تهربان من النظر إليه مباشرة، وقبل أن يصل الكـأس إلى شفتيه، قال:

-حتى القطرة الأخيرة يا صبّوحة!

قالت، وهي تبتسم:

-سأكون سعيدة.

عندما وصلت الكـأس إلى شـفتيه، أغمض عينيه ودلق الخمر في جوفه دفعة واحدة، ووضع الكأس على السـجادة سـريعاً، ثم مصَّ دخان سيكارته بعمق، وإذ نظر إليها وراها تبتسم، قال:

-عادة لا أستطيع التخلص منها عندما أكون معك.

قالت: ملك الخمر.

سأل: وأخي؟

قالت: زعيم المنخورة.

استفسر: لم أسمع.

قالت: سيكون زعيم المنخورة، كما قال.

قال، بعد صمت قصير: لم أحفظ من دروس الجغرافية وأنا في الابتدائية، إلا شيئاً عن البراكين والهزات الأرضية.

قاطعته: لكنه أخوك يا غصّاب، ومجده مجدك.

قال: أعرف، لكنني أخاف الزمن يا صبّوحة.. وأولئك الرجال الذين يدورون في فلك أخي.. أتعرفين شيئاً عن البراكين؟

قالت ثانية: لكنه أخوك.

قال: أخشى أن يخدعه بريق الدنيا.

سألت: وأنت؟

قال: طموحاتي صغيرة.. الخمر وأنت.

وإذ ضحكت ضحكة أقرب إلى القهقهة، قالت وهي تمدُّ يدها إلى كتفه:

-غصّاب.. لنعش لحظاتنا، فلكل ساعة ملاكها وشيطانها.

***

ها هي ذي امرأة تتعرّى على ضوءٍ قنديل الكيروسين الشحيح، وها هو ذا رجل توقّف عن الركض بعد أن لحق بعالم شهوته التي كانت تسابقه.

ها هو ذا قاسم المدهون يطرق الباب على خديجة ليسأل عن غصّاب، وإذ يعرف أنه ليس موجوداً، يتأكد ظنه أن غصّاباً في غرفة صبّوحة الخليل.. فيعود إلى غرفته لتنقذه الخمر من أعصابه المتوترة.

في تلك الساعة خرج أبو حسين القحطاني أكبر المعمرين في المنخورة إلى باحة داره متكئاً على عصاه، وبعد أن توضأ، رفع يديه إلى السماء وهو يتأمل النجوم بخشوع، وابتهل إلى الله لعلّ المطر يعانق الأرض التي تشققت وأضحت كالحة بعد أن غطت سطحها طبقة ملحية.

ومع فجر تلك الليلة، استيقظ أبو المداح الأشرم فزعاً من نومه، وراح يردد:

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. قل هو الله أحد، الله الصمد.." وإذ استيقظت زوجته، سألته وهي تفرك عينيها: خيراً.. يا أبا المداح!؟

قال، وهو يبعد اللحاف عن جسده: قاسم المدهون يا امرأة!

سألت: حياتنا ميسورة بسببه، فما الذي جرى لك؟

قال: "اللهم أبعد عنا أضغاث الأحلام.. رأيته يركب فرساً بيضاء ويرتدي ثوباً أبيض طويلاً وذقنه طويلة بيضاء، وقد اندفع نحوي بفرسه، بكل ما تملك تلك الفرس من قوة على الركض. رأيت الغبار يتطاير في الفضاء حتى صار عاصفة من الرمل؛ رمل أسود وأصفر يا امرأة... اقتربت الفرس وهي ترفع قدميها الأماميتين إلى الأعلى لتضربني، فصرخت خوفاً..

الحمد لله أن ذلك كــان في الحلم يا امــرأة.. وإلا لكنت في عداد الأموات الان".

قالت زوجته: اللهم اجعله خيراً، سـيكون قاسم المـدهون ذا شأن يا أبا المداح.

عقّب أبو المداح: ولكن اللون الأبيض في الحلم لا يـدلُّ على الخير يا امرأة!

قالت: قم وتوضأ وتوكل على الله.

في تلك الساعة من فجر ذلك اليوم، خرج غصّـاب المـدهون من عـالم صـبّوحة، وانطلق إلى عـالم آخـر، هو عـالم المـزارع والأبقار.. ممنيّاً النفس بعـودة دائمة بعد أن أتفق مع أخيه ليعـود إلى المنخورة.

**

كانت صبّوحة الخليل جميلة..

وغالب الوالبي، الذي كان أصغر منها سِنّاً؛ أُعجب بها.. ولكنه إذ كان يشـتهيها، فإنه كـان يكرهها لأنها لم تكن لقاسم المـدهون أو أخيـه، ولكنها كـانت لمن يـدفع.. ولهـذا فإنه كـان يتسـاءل: ما معنى الحب في عالم هذه المرأة؟

أُعجب بقامتهـا، بمشـيتها، بفمها الصـغير الـذي كـان يُشـبّهُ بحبة الكـرز؛ بعينها اليمـنى الـتي اعتـادت أن تغمز بها في أثنـاء حـديثها. تمـنى يومـاً أن تضم أسـنانها الرائعة إلى بعضـها ليقبلها فــوق بياضــها الناصع ولكنه حــاول أن ينــتزع تلك الفكــرة من أعماقه، إذ تصورها أنها وهبت جسدها لمن يدفع. كان يحسُّ وقد التقاها أكــثر من مــرة في بيتهم، مع أخته الأكــبر منه ســناً، أنها تصغي إليه.

وكان يتساءل: لم تصغي إليَّ صـبّوحة الخليل بهـذا الشـكل؟ إنها بموقفها هــذا تفتح شــهيتي للكلام، ولكن: هل تســتوعب ما أتحدث به؟

ذات يوم، قالت له:

-لعن الله الفقر، لو كنت غنياً يا غالب!

أحسَّ بالكلمــات وقد غــارت في صــدره، وتحجــرّت فــوق شــفتيه، حــتى أنه لم يعد يتـذكر: هل أجابهــا، أم أنه توقف عن حديثه؟ لا بدَّ من أن صبّوحة أحست بذلك، فقد قالت بدهاء أدرك مغزاه يومها:

-أن يعيش الإنســان فقــيراً أفضل من أن يــرث المــال عن طرائق قذرةٍ.

يومها، حدثته عن المال الذي ورثه قاسم المدهون عن أبيــه، واستفاضت في الحــديث عن الســيدة الفرنســية الــتي كــان إسماعيل المدهون يرعاها.

كان يسمع ولا يسمع، ففي ضحى ذلك اليوم، تضاءل عالمه، وقال معزّياً نفسه: تحت هذه السماء وُجدتُ لأكون ابناً لصاحب محل لشحذ المحاريث، لكنني أملك عالماً آخر يتمناه الكثيرون. فليكن لي عالمي وللآخرين عالمهم. إنني بحاجة إلى بعض الملذات. وكاد يصرخ: إنني بحاجة إلى جسدك يا صبّوحة!.. ولكنه نهض غاضباً وهو يقول: في عالم المنخورة كل شيء يسير متمهلاً إلا صعود قاسم المدهون.

وعندما سألته: إلى أين يا غالب؟

قال: أتمنى ألا أسمع شيئاً منك عن عالم الأنذال.

***

صبّوحة الخليل التي أُعجبت به، وبحجة أنها تريد أن يقرأ لها أوراقاً قديمة ورثتها عن أبيها اصطحبته إلى دارها، وفي ذلك المساء قدمت له أوراقاً قديمة –بالفعل- كانت مكتوبة بالقصب. وقرأ لها عن أرض تعود ملكيتها إليها بعد وفاة أبيها من العهد العثماني في ظاهر المنخورة.

سألته، وهي تجلس إلى جانبه:

-ما رأيك أن نذهب يوماً إلى تلك الأرض؟

أصابته الرجفة من رأسه إلى أخمص قدميه، ولكنه كان يرى رجفته أكثر في ركبتيه.

حاول أن يلصقهما ببعضهما لأنه لا يريد أن تراه مرتجفاً. أمسكت بيده وضغطت عليها، وسألته:

-ماذا علّمتك الكتب غير الحرب؟

قال وهو يحسُّ أن لسانه يرتجف:

-علمتني أشياء كثيرة غير الحرب؟

وضغطت على يده، فوق فخذه، وهي تغمز بعينها اليمنى، وقالت:

-هل علّمتك..

ولم تكمل، فقد أحاطته بذراعيها، وراحت تقبله.

كان مدهوشاً، حتى أنه –في البدء- حاول الابتعاد، لكنه أحسَّ بالدفء في جسده وأحسَّ بريقاً في عيني صبّوحة(..)...

في مساء ذلك اليوم، وقبل أن يغادرها، سألته باسمة:

-هل أنت مسرور؟

وإذ لم يجبها، قالت له:

-هل تحدثني ثانية عن الحرب والتاريخ؟

*

لم يتحـدث غـالب الوالـبي في حياته بثقـةٍ وطمأنينة إلا إلى ((محمود العبّـاس)) (شـقيق نـايف العبّـاس) زميله منذ المرحلة الابتدائية.. حـتى فرّقتهما الأيـام، فأكمل غـالب الوالبي دراسـته الجامعيــة، واكتفى ((محمــود العبّــاس)) بشــهادة أهلية التعليم الابتدائي، فأضحى معلماً في مدارس المنخورة.

وفي ذلك المســاء الــذي خـــرج فيه من تجربته الأولى مع صبّوحة الخليل، كان يحسّ بالنشوة، لكنه –في ذات الوقت- كان يعاني من تأنيب الضمير.. وكـان التسـاؤل الممض الـذي أقلقـه: هل يبوح لمحمود العبّاس بتجربته أم أنه يقنع بالصمت؟

تُرى ما الذي سيقوله؟ وماذا سيكون ردّ الفعل الذي عليه أن يتلقاه من محمود العبّاس؟

ظلّ قلقاً متوجساً ولكنه أنهى تـرددِه عنـدما همس لنفسـه: "هي تجربتي الأولى مع المرأة.. وهي التي أدخلتني إلى عالم لم أكن أحلم به.. لقد كنت متوتراً، مرتجفـاً، حـتى إن العـرق تفصّـد من كلّ خلايا جسـدي، فلم لا أعيد هـذه التجربة وبعد ذلـك، أبـوح لمحمود العبّـاس بكل شـيء؟"، وإمعانـاً منه في تـبرير تصـرّفه، همس لنفسه ثانية: هل سأكتفي بحبّ منيرة بالكلمات والوعود؟ وانتشــلته من تســاؤلاته زقزقة العصــافير، فتســاءل: تُــرى هل عرفت صبّوحة الخليل الحبّ في حياتها وهي التي قالت لـه، ربما ساخرة: هل تحدثني عن التاريخ والحرب؟.. فلو أنها سـألته: هل تحدثني عن الحبّ، فما عساه أن يجيب؟

وفي حالة تأمله: تساءل:

-هلّ بدأت أحبّ صبّوحة الخليل في أول لقاء جسدي بيننا؟

وإذْ تــراءت لـه منـيرة، فقد هبّ واقفـاً، متضـايقاً، من هـذا المأزق الـذي وجد نفسه فيه دون إرادتـه.. وانطلق إلى بسـاتين القرية.

8

في صباح مـا، شـذّب أبو حسـين القحطـاني ذقنه بـالمقص، وقبل أن يعلن المــؤذن لصــلاة الجمعــة، ارتــدى ثوبه النظيــف، وألقت زوجته العبـاءة على كتفيه وناولته عصـاه الخشـبية ليتوكأ عليهــا. لم ينسَ أن يتعطّر بالمسك كما كــان يفعل في كل يــوم جمعة.

وإذ خـــرج متمهلاً، تابعته زوجته وهو يتمايل بجســده يمينــاً ويساراً حتى غاب عن ناظريها في منعطف الزقاق.

كان من عادته أن يصل إلى المسجد مبكراً، فيتناول القــرآن ويقــرأ بعضــاً من آياته مسـتنداً بظهـره إلى الحائط حـتى يحين موعد الصـــلاة حيث يغلق القـــرآن، ويُقبّل الغلاف ثلاث مـــرات ويرفعه ليلامس جبينه في كل مرة.

أفسح لـه المصلون مكانـاً بينهم، لكنه إذْ شم رائحة منفـرة، تلفّت إلى يمينه حيث تنبّه لقاسم المـــدهون إلى جانبـــه.. ولم يتجــاوب مع ابتسـامته بل انتقل إلى صف آخـر؛ مما أثـار انتبـاه بعض المصلين.

في ظهيرة ذلك اليوم..ـ

صـعد خطيب المبطـون إلى المنبر وبعد أن حمد الله وأثـنى عليه، راح يرتفع صوته حاداً ممطوطاً؛ مُنبّهـاً المصـلين إلى "ليلة القدر"... وكان أبو حسين القحطاني الذي يعاني آلاماً في ركبتيه قد نسي تلك الليلــة، لكنه قــرر أن ينــام بعد الظهر ليتمكن من السهر حتى الفجر. إنها الليلة التي هي "خير من ألف شهر.." لن يشغله شيء عن السهر.

كان أبو حسين القحطاني مستغرقاً في أفكاره ولياليه الــتي سهرها في مثل تلك الليلة من كل عام. منذ متى كان ذلك؟.. إن ذاكرته لا تســـعفه، لكنه على يقين أنه داوم على الســـهر لتلك الليلة منذ أربعين عاماً على الأقل، ومنذ أربعين عاماً لم تُفتح لـه أبــواب الســماء، إنه لا يريد شــيئاً، كــان يتطلع إلى طفل حرمه الــزمن منــه، يريد –لو فُتحت لـه أبــواب الســماء- أن يـدعو الله ليرزقه طفلاً، لكنه، وبعد زواجه للمـرة الثالثة –حيث طلّق الأولى وماتت الثانية- قنع بأنه ربما يموت دون طفل، ومع هــذا، فإنه لم يفقد الأمــل. إنه يعتقد بصـحة ما يتناقله النــاس من أن الرجــل- بعكس المــرأة- يســتطيع أن ينجب ما دامت لديه المقــدرة على تحريك إبهام قدمه، إضافة إلى اعتقاده بـالمعجزة حيث يمكن أن يدعو الله لعله يستجيب لـه بطفل يسمع بكاءه ومناغاته، ويتابعه وهو يحبو في أرض الغرفة وباحة الـــدار، حـــتى أنه ابتسم وهو

يتصـــور أنه دخل غرفته وارتمى على الأرض متكئـــاً على يديه وركبتيه وأن "حسـين" قد ركب على ظهـره، وراح يـدور به في أرجاء الغرفـة، لكن "حسـين" ظل لقبـاً، وتتـابعت السـنوات بين الرجاء والقنوط، وها هو ذا يدرك أنه سيبلغ المئة بعد عدة شهور، لكنه قال لنفسه:

"ما دامت إرادة الله كذلك.. فلتكن".

وتنبّه أبو حسـين إلى جَارَيه وهما يرفعـان أيـديهما لترديـد: "آمين". فرفع يديـه، وراح يـردد: آمين. وتوقف إذْ سـمع الإمـام خطيبـاً المبطـون وهو يـدعو الله لإطالة عمر قاسم المـدهون.. فكيف لـه أن يـدعو الله إلى ذلك وهو منذ لحظـات تشـمم رائحة منفرة منه، هي رائحة الخمر، كما قيل له؟

وبحركة لا شـعورية وضع يديه على فخذيه رافضـاً أن يقـول كلمة واحدة حتى ينتهي الإمام من ترديد اسم قاسم المدهون.

تمهّل قاسم المـــدهون وهو يختلس النظر إلى أبي حســـين القحطاني، وأثنى على خطبة الإمام بحضور أبي المداح الأشـرم، حتى إذا تيقن أن أبا حسـين صـار على مقربة من بـاب المسـجد الـذي يرتفع عن الزقـاق بثلاث درجـات طينيـة.. أسـرع قليلاً، وأقسم أن يخرج خطيب المبطون أمامه، ومن ثمَّ قصد أن يـدفع بأبي المداح ليصطدم بأبي حسـين القحطـاني، الـذي هـوى على الأرض، بعد أن انـزلقت عصـاه من يـده، وشُـجَّتْ رأسـه، فأبـدى قاسم المدهون حزنـه، وشـارك في تضـميد جرحـه، وإعادته إلى داره.

في تلك الليلة

مات أبو حسين القحطاني مع الفجر..

***

الليل يهمي على المنخورة، والخمرة تنسـاب توهجـاً في دم قاسم المدهون رويـداً رويـداً.. بـدءاً من الحنجـرة حـتى الـدماغ مروراً بالمعدة، وفي تلك الساعة من شهوات الليـل، حيث تجمّع أصدقاء أبي حسـين القحطـاني وبعض جيرانه في داره مؤاسـاةً لزوجته، خطَّ قاسم المدهون دربه المعهود إلى صـبّوحة الخليـل، وعلى عادته تحسس شريط النافذة وتسلل خفيفاً حيث البـاب.. لكنه دُهِشَ إذ فتحت النافذة، ليسألها ورنة غضب بين كلماته:

-صبوحة.. لماذا لا تفتحين؟

قالت، وهي تفرك عينيها:

-لن يكون باستطاعتي أن أرضيك.

تساءل: لماذا؟

قالت: العادة الشهرية.

سألها: لم نتوقف بشأنها في المرات السابقة؟

قالت: لن يكون باستطاعتي أن أرضيك.

وقبل أن يتكلم أغلقت النافـذة.. فــانتظر قاسم المــدهون لحظات ثم عاد إلى داره مهموماً.

عند الضحى جاء أبو المداح ليصطحبه إلى جنازة أبي حسـين القحطـــاني، وفي مســـجد عمر بن عبد العزيز ادّعى قاسم المدهون أنه سيتوضأ، وعندما صـار في الميضـأة، لم يتوضـأ، بل إنه تبوّل وابتسم، وقال محدِّثاً نفسه:

-إذا لم تجد أحداً في المقبرة يا أبا حسين فعُدْ إلينا.. لندفعك دفعة أقوى، ثم نضمد جراحك ونصلي عليك.

وقف مع المصـــلين محركـــاً شـــفتيه، وإذ انتهى خطيب المبطون من دعائه بعد أن تمَّ دفن أبي حسين القحطـاني، وقف مدهوشاً كغـيره، وهم يشـاهدون ابن عيسى واقفـاً عند شـاهدة القبر يقول بصوت مرتفع:

"-يا أم حسين.. اتركي البكاء جانباً. يا نـاس اتركـوا الحـزن.. واسمعوا ما أقول. كل الأنبياء ماتوا، وصحابة الرسول مـاتوا وأبو زيد الهلالي مـــات.. لكنـــني أســـألكم: ما الفـــرق بين الحق والباطـل؟.. ما الفـرق بين الصـدق والخيانـة؟.. ما الفـرق بين القاتل والقتيل؟.. لا تنظروا إلى بعضكم. كلنا جميعاً سـنعود إلى ديارنا، وكل واحد سيأكل وينـام ويضـحك فـأبو حسـين مـات. لن ينفع بكاء ولن ينفع حزن. لكنـني أقـول لكم لم يمت أبو حسـين، بل مات الوجدان في صدورنا. مـات الوجـدان.. اختلطت النذالة بالشرف واختلط الدم بالمال. مات أبو حسين فمـات الخـير في المنخورة.. ماتت الحكمة.. أيها الناس".

وإذ دفعه طه الأعمى في ظهره، قال:

-يريدني طه أن أسكت. سأسكت، لكنني سأغنّي، ما دمنا لم نعد نميز بين القاتل والقتيل وبين الفرح والحزن.

وبعد صـمت قصـير، توجه ابن عيسى ناحية قـبر أبي حسـين القحطـاني ووضع يـده على أذنه اليمـنى وأغمض عينيـه، وغـنى بصوت حزين:

"قالوا لي جد الصبر.

لا يا خالي.. لا يا ابن أمي.. لا يا عمي..

صبرنا وتحملنا..

ها القلب مو ألنا..

آه... وين المودة وين؟.."[1].

وتقـدم قاسم المـدهون من ابن عيسى وصـفعه على خـده الأيمن ثم الأيسر وبصق على وجهه وهو يدفعه بصـدره، ثم قـال بصوت عال:

-ألا تحترم الأموات يا كلب؟!

---

[1] () مقطع من أغنية شعبية ريفية: جد الصبر: عليك بالصبر. مو إلنا: ليس لنا. وين المودّة وين: أين المودة أين؟

وأسرع أبو المداح فأمسك بيد قاسم المدهون، وقال:
-أعرفك أكبر من هذه التوافه.
فعقّب قاسم المدهون بقوله:
-أين نحن، وأين هـو؟.. نحن نـدفن أبا حسـين –رحمه اللـه- وهو يغني، لم يعد ينقصنا إلا المجانين على المقبرة.
كان ابن عيسى ينهنه ببكاء مكتوم لكنه لم يستطع أن يحبس دموعه فرفع طـرف ثوبه وراح يمسـحها وحيث أنه سـمع ما دار بين الاثنين من كلمات، قال وهو يشير إلى السماء:
-ستحكم بيننا يوماً يا قاسم المدهون.. ستحكم بيننا السماء.
وتلفت إلى طه الأعمى وقال له:
-يا طه.. هل هناك سماء؟
فتمتم طه الأعمى:
"-استغفر الله العظيم الذي رفع السماء دون عَمَد".
قال ابن عيسى بصوت عال:
-إذن ستحكم السماء بيننا ذات يوم.
وأفلت قاسم المـدهون يـده من قبضة أبي المـداح وأسـرع إلى ابن عيسى فضربه على صدره ولطمه على خديه، ثم انحـنى على الأرض ليلتقط عصا طه الأعمى، وإذ رفعها ليضـرب بها ابن عيسى، ركض غالب الوالبي فانتزع العصا من يده، وقال بصـوت مرتفع:
-كفى يا قاسم.. كفى!
ونظر قاسم المدهون إلى غالب الوالبي نظرة غضب، وقـال له:
-من الـذي عضّ على ذنبك لتتـدخل؟.. "قبل أن تـدافع عن الناس دافع عن جوعك!
قال غالب الوالبي:
-الجوع ليس عيباً والفقر ليس عيباً، لكن النذالة هي العيب.
صرخ قاسم المدهون:
-اخرس.. وإلاّ فإنني سأجعلك تشبع من تراب هذه المقبرة.
قال غالب الوالبي، بعد أن أعطى العصا لطه الأعمى:
-هـذا أنا أمامـك.. فتقـدم لـنرَ من سيشـبع من تـراب هـذه المقبرة؟
قال قاسم المدهون:
-أتهددني؟.. ستدفع الثمن.ـ لكنني لن ألّوث يدي بك.
وإذ أسـرع أبو المـداح ليبتعد بقاسم المـدهون عن المقـبرة، تعثّر قاسم المـدهون بثـوب أبي المـداح، وسـقط على الأرض، حيث جرحت قطعة من الزجاج يده، فأسـرع أبو المـداح وأخـرج

منديله ليلفَّ الجرح النازف.. فقال ابن عيسى، الذي كان يراقب ما حدث:

-الدم بالدم.. الدم بالدم.. يا أهل المنخورة!

وبعد أن ابتعد عن المقبرة مصطحباً طه الأعمى، قال:

-ماذا جرى للناس يا طه!؟

ولم يسمع ابن عيسى جواباً إلا صوت عصا طه الأعمى وهي تصطدم بالحجارة.

قال ابن عيسى ثانية:

-ماذا جرى للسماء يا طه!؟

عندها توقف طه الأعمى، ولم تعد عصاه تصطدم بالحجارة، اتكأ عليها ليبحث عن حجرٍ بطرفها، حتى إذا وجده، قال لابن عيسى:

-السماء في مكانها، والأرض تدور.. فتارةً يكون هناك نهار، وتارةً يكون هناك ليل.. تارةً يكون هناك شتاء وتارةً يكون هناك صيف؛ تارةً يكون هناك ربيع، ما عدنا نشعر به، وتارةً يكون هناك خريف مثل أيامنا.. فالأجدر بك يا ابن عيسى أن تقول: ماذا جرى لأهل الأرض؟.. عندها سأقول لك: الكل مشغول بنفسه والكل تقوقع على ذاته... أضحى شعارهم: أنا ومن بعدي الطوفان.

***

عكست غيوم السماء الداكنة لوناً قاتماً على البيوت التي أضحى يراها مخيفة؛ وراح يفكر وهو يخطو بين القبور: أن المنخورة كانت امرأة جميلة، وقعت فريسة نزوةٍ طائشة لقاسم المدهون فصارت بشاعتها عصيّة على التفسير. بزغ أمامه (المتنبي)؛ الذي يقول تاريخ المنخورة أنه مرّ بها على صهوة فرسه... وتضخّمت في مخيلته مجموعة هائلة من جماجم البشر الذين لم يرحمهم سيف الحجاج أو معاوية بن أبي سفيان.. وتساءل غالب الوالبي حزيناً عن زمن الفراعنة الذين أرهقوا الشعب ليبني لهم القبور؟

القســـــم الثـــاني

1

كانت، فصارت..

كـانت المنخـورة –كما قـال أبو حسـين القحطـاني أكـثر من مرة- حاضرة الصحراء- مطوّقة بالأشـجار من كل الأنـواع.. لكن أكثر تلك الأشجار كـانت من النخيـل.. لم يكن النـاس بحاجة إلى الفأس والمعول لحفر الأرض بعيـداً في أعمـاق الأرض بل كـانوا يستخرجون الماء بأيـديهم، يحفـرون الأرض، حيث يتـدفق المـاء عذباً وغزيراً.

كـــانت كـــأي مدينة أو قرية عربية معرّضة للغـــزو والنهب والانتصار والانكسار، عرفت جحافل الأمويين والعباسـيين، مثلما عرفت جنود الدولة العثمانية من الانكشاريين.

يتوقف أبو حسـين القحطـاني –رحمه اللـه- وهو ينظر مليّـاً إلى الأرض ثم يحمل بيده قليلاً من التراب، يلهو بالحبيبـات وهي في راحة يـده ثم يلقيها بعيـداً، ويقـول: "تعـاقب الكثـيرون على المنخورة- كما يقول جـدي نقلاً عن الأكـبر منه سـناً- فمنهم من كـان تقيـاً ومنهم من كـان شـريراً واللصـوص، منهم من أمن بالسيف ومنهم من أمن بالعدل، منهم من أمن بالرصاصة ومنهم من أمن بالكلمة.."

وكان إن جاء زمـانٌ قـاس، زلـزلت الأرض فيها زلزالهـا، فلم يبقَ من القرى التي أحاطت بالمنخورة إلا أسماؤها، ولم يبق من أشـجار المنخـورة وينابيعها إلا بقية من أشـجار وبقية من ينـابيع، وعـــاد من نجا من أهلها يتعـــاونون في بنائها وتســـويرها بســـور أجرّي.

كانت المنخورة، كما يضيف أبو حسين القحطاني، لا تسـكت طويلاً على الظلم والضيم، ثم يتساءل متحسّراً: "ما الذي جرى، إن كان التاريخ صحيحاً في أخباره، فما الذي جرى؟"

كانت، فصارت...

كانت ذلك، فصارت قرية متوحدة مع عالم الصحراء، لا يـدلُّ على ماضيها إلا سورها التاريخي الـذي صـمدت حجارته الكبـيرة أمام الزمن.

كانت تحتضن الغرباء ضيوفاً..

فصار الغرباء يكشّرون عن أنيابهم.

في زمن ضـبابي جـاء قاسم المـدهون وأخـاه غصّـاب. ومن قبلهم أبـــوهم، ضـــيوفاً، وفي زمن آخر اختلطت فيه الألـــوان، تطاول قاسم المدهون وأخوه غصّاب، وراحا على أكتاف الرجال

والأصوات، الجوفاء منها والخشنة والمعربدة، يصنعان مجداً، يتراءى للكثيرين زاهياً، برّاقاً، إلى درجة الاشتهاء، والتمني واللمس؛ حتى مجرد اللمس.. وفئة ثانية، كانت تراقب ذلك بالعيون، وتسمع بالآذان، لكنهم يكتفون بهزِّ رؤوسهم ويكتفون بالانتظار، وفئة ثالثة، وهم القِلّة القليلة، كانت تصرّح بما يعتمل في نفوسها، وما تضيق بها صدورها همساً، وربما ببسمة صفراء، أو بشتيمة على دورة الأفلاك والزمن، فصار النزيه دنيئاً والدنيء نزيهاً.

بين (كانت) و(صارت).. ها هي ذي المنخورة تتأوه انتظاراً وصمتاً وحزناً.

بين الحاضر والحاضر الذي قد يحمل تحت جناحيه شعاعاً من الفرح، كان ينمو الحب ويتوهج تحت الشمس، وكان الحقد يتسلل في الأزقة وبيده مطواة حادة أو خنجر مسنون.

بين الذكرى والحاضر، كان الأطفال يلعبون ويضحكون خارج مدارات للحصار.

***

يبحر في عالم آخر...

إنه داخل غرفته، وفي الوقت ذاته خارجها.. تلفُّه قطرات الصمت اللزجة التي تهطل عليه من بين شقوق جدران غرفته الطينية المتشققة ومن بين شقوق خشب السقف، لكنه يحسُّ بركاناً محرقاً يغلي في داخله كلما إستعاد وقفته مع قاسم المدهون في المقبرة. كل الخلايا والأعصاب كانت متوترة، مرهفة، حادة. لم يكن بينه وبين (الموت أو السجن) إلا لحظات، لم يكن بينه وبين أن يكون قاتلاً أو مقتولاً إلا شعرة.

وفي هدأة الصمت المتوتر، تساءل: لماذا تراجع قاسم المدهون؟.. لماذا لم يتقدم ليصفعه كما صفع ابن عيسى؟.. تراءى له قاسم المدهون وهو يسقط أرضاً على مقربة من قبر أبي حسين القحطاني، ثم حمله بعيداً: وألقى به في حفرة مليئة بالأشواك حيث نزف الدم من الفم والأذنين والرأس. تراءى له خطيب المبطون وأبو المداح الأشرم وغصّاب المدهون وغيرهم، وهم يركضون نحوه بالهراوات والسكاكين، وإذْ أنهالوا عليه ضرباً بهراواتهم، وهوت السكاكين في الصدر والعنق، وانساب دمه إلى التراب ساخناً. كان يغمض عينيه ويفتحهما متألماً، ولكنه قبل أن يغمضهما الإغماضة الأخيرة تراءت له منيرة بثوبها الأخضر الطويل وهي تلوّح له بيديها ليرتفع معها عالياً من عالم المقبرة والأموات.

هزَّ غالب الوالبي رأسه ليبعد هذه الرؤى التي تطوف في دماغه وعينيه.

إنه يبحر في عالم آخر؛ عالم تختلط فيه العفونة بالنقاء، كما تختلط فيه أصوات البشر بأصوات بنات آوى التي تتناهى إليه من

الجبال، لكنه غالباً ما يرى عالم النقاء مهما أضحى ضيقاً، أكثر اتساعاً؛ غالباً ما يسمع أصوات البشر واضحة وإن تكاثرت أصوات بنات آوى. لمّا يفقد الأمل في الكون والإنسان، إنه يؤمن أن شبكة العنكبوت مهما اتسعت لن تصمد أمام الزمن والحقيقة.. ويبتسم لأنه يشبّه قاسماً المدهون بشبكة العنكبوت.. لكنه يتألم غاضباً لأنه يرى ذلك بوضوح.

يبحر غالب الوالبي في عالم الصمت والتساؤلات. وتبحر المنخورة في عالم الليل، الذي سَجى فوق جبالها وطوّق أزقتها وبيوتها. وانشقَّ منتصف الليل بهدوئه وبركانه عن صوت منيرة متسائلاً:

-ألم تنم حتى الآن؟

فرك عينيه فرحاً؛ فتراءت له طيراً أخضرَ يرفرف في سماء غرفته ولوّحت له بجناحيها، فنهض راكضاً ليلحق بها. إنها تسبح في الفضاء. بإمكانه أن يمدَّ يده ليلامس طرف ثوبها لكنه لم يفكر في ملامسته. يكفيه أن يرفع رأسه ليتكلم إليها. يكفيه أن يسمع شهيقها وزفيرها.. خطواته تتلاحق سريعاً لكنه لا يحسُّ تعباً. يدرك تماماً أن قدميه تطآن الأرض لكنه يحسُّ أنهما ترتفعان عنها. يعرف ذلك، وكاد أن يهمس بهاجسه لمنيرة لكنه تدارك كلماته وهي في حنجرته فتوقف حتى لا تظن به الظنون. تابع خطواته، حتى إذا ارتفعت إلى الأعلى أكثر.. واختلط عليه لون ثوبها الأخضر بخطوط حمراء، سألها بصوت مرتفع: إلى أين يا منيرة؟!

واكتفت بأن أشارت له ليتابع مشيته.

دون أن يحسَّ بأحجار المقبرة وأشواكها؛ كان يتابع مشيته أحسَّ فجأةً بدائرتين من الرجال تحيطان به وقد أضحى في مركز الدائرتين. حاول أن يبتسم لكن بسمته تجمدت على شفتيه إذ أدرك أن رجال الدائرة الثانية يشبهون القرود وفي أيديهم الغليظة سهام حديدية صدئة مصوّبة إليه.

تقدم رجل من الدائرة الأولى، وتبعه اثنان من الدائرة الثانية، فقال:

-لتختر إما أن تكون معنا.. أو الموت؟

أحسَّ صقيعاً يتغلغل إلى عظامه وينفذ إلى العروق الصغيرة في لسانه. حاول أن يقاوم الرجفة التي لم يعد باستطاعته أن يسيطر عليها، فابتسم الرجل بسمة بلهاء وقال لها:

-أمامك دقيقتان.. فاختر مصيرك!

ارتفع رأسه إلى الأعلى. تراءى له طيف ابتسامة على شفتيها، لكنه استغرب أن لون ثوبها صار أحمر، وأن خطوطاً خضراء هي التي أضحت موشّاة في نسيجه، وعاد لينظر إلى الرجال والقبور، ثم سأل:

-من أنتم؟

قال رجل وهو يهرش خلف رقبته:

-نوالي القوي الذي يـدفع ونقتل الضـعيف دون أن تأخـذنا به رحمة أو شفقة.

هـزَّ غـالب الوالـبي رأسه عنيفـاً كـأن ريحـاً من السـموم قد لعبت به، وقال:

-القوي العادل لا يدفع.

وقاطعه الرجل بإشارة من يده:

-بعض الرجـال أقـوى من الأحـداث.. وقاسم المـدهون رجل الساعة، هل فهمت؟

أطرق إلى الأرض، ثم عصر رأسه بيديه وهمس:

-لحظة اختيـار قاسـية - يا منـيرة! بين أن أكـون تابعـاً ذليلاً وبين أن أموت واقفاً.

أحسَّ بيدها تمتـدُّ سـريعة وهي تحمل العصا الـتي كـان يتوكأ عليها أبو حسـين القحطـاني فانتزعها منها برغبة جنونية ثم باعد ما بين قدميـه.. ولـوّح بها فـوق رأسـه.. وصـرخ متقـدماً. وعلى الـرغم من السـهم الـذي تـراءى لـه وهو ينطلق باتجاهه من أحد الرجلين، فقد استغرب أن السهم ارتفع عالياً حيث الفضـاء.. وإذ تابعه تراءى لـه رجل يشبه "حمدان القرمطي" –كما رسـمه في ذاكرته- يمسك بالسهم ويعيده إلى أرض المقـبرة قطعة حديدية استقرت في إحدى الحفر.

يبحر بين الماضي والحاضر.. وها هي ذي هواجسه تنقله من الحاضر إلى عالم أشبه بالكوابيس. تلمّس جسده ومسح العـرق الذي تكـاثر على جبينه ورقبته وخـرج إلى باحة الـدار، لكن طيف منيرة وطيف حمدان القرمطي ودائرتي الرجال.. لم تعد تفارقه منذ ذلك الحين.

***

في تلك الليلة الـتي دُفن فيها أبو حسـين القحطـاني، انتظر أبو المـداح الأشـرم هبـوط الليل ليهـرول إلى قاسم المـدهون؛ فلعـلَّ مجالسـته تُـروّح عنه آثـار الصـدمة الـتي تلقاها من غـالب الوالبي.. لكنه –إضافة إلى ذلك- كان يفكر بأمر آخر..

لقد قرأ ذات يوم: "انتهزوا الفرص فإنها تمرُّ مرَّ السـحاب".. حفظ الجملة عن ظهر قلب، وحـاول أن يفكر فيمن قالهـا، وإذْ أتعبه ذلك، قـال: لا يهم مَنْ قالهـا، لكن يهمـني فحواهـا. وها هي ذي الفرصة تهبُّ عليه من حيث لا يتوقـع، فلتكن خطواته هادئة مثلما ينبغي أن تكون واثقة.

.. وأدرك أبو المـداح الأشـرم أن قاسـماً المـدهون، يتحـدث بنبرة عالية متجاهلاً انكساره في المقـبرة. حـاول أن يرحل معه ببسـمة مجاملـة، بموافقة من رأسـه، حـتى بالقهقهة حـاول أن يجامله. إنه يريد أن يصل إلى كلمة تفتح لـه آفاق حـديث جـاء به بعد تفكير. ما أصعب تلك الكلمة، إنها تبدو كقطرة زئبق، تقـترب

لكنها سرعان ما تهرب. يريدها أن تكون في مرمى السهم، لا يريد لسهمه أن يذهب دون جدوى، يريده أن يكون قريباً من القلب إن لم يكن في القلب تماماً.

"اقتربت الساعة وانشقَّ القمر".. فمتى يقترب ابن المدهون من حديث المقبرة؟ عندها فقط، يكون باستطاعة أبي المداح أن يوجه سهمه حيث يريد، فمتى ينتهي من حديث المزرعة والأبقار وأخيه غصّاب؟

مدَّ يده إلى علبة سكائره فسحب واحدة منها وأشعلها، وبعد أن عبَّ الدخان ونفثه في سماء الغرفة وراح يتابعه على مهل سأل أبا المداح سؤالاً، جاء مفاجئاً:

-قل لي –يا أبا المداح!- ما الفرق بين النبي والشيطان؟

"ها هي ذي الفرصة التي تشتهيها يا أبا المداح جاءتك.. فالتقطها.. وحذارِ أن تهرب منك.. أنت منذ هذه اللحظة الذي عليه أن يدير كفةَ الحديث.

ها هو ذا الأمل الذي طاردته من أول الليل يغدو بين يديك في لحظة صحوة من عالم الخمر فحذارِ أن يرمي بها ابن المدهون في لحظة إطلالة أخرى على رشفةَ من خمر يعبُّها من غرفته الأخرى فيعود تائهاً".

قال أبو المداح: -نبي المنخورة أنت- أطال الله في عمرك- وشياطينها نوعان.

قاطعه قاسم المدهون: نوعان؟

قال أبو المداح: شياطين النوع الأول، ابن عيسى وطه الأعمى وغيرهما، وهم لا يجيدون غير الثرثرة.. وشياطين النوع الثاني، أولئك الذين لا نعرفهم، مثلهم مثل الأفاعي، لا تعرف متى تأتيك لدغتهم.

سأل قاسم المدهون: إذن.. هناك أفاعٍ يا أبا المداح!؟

قال أبو المداح: أعرفك –أطال الله في عمرك!- حكيماً.. مثلما أعرفك كريماً.. فاستمع إليّ.. شياطين النوع الأول يمكن إسكاتهم بالطعام؛ وإلا فالمال. أما شياطين النوع الثاني، فيجب معرفتهم أولاً، وإسكاتهم بطريقة أخرى يا سيد العارفين!

نظر قاسم المدهون إلى يده التي تحتضن السيكارة، فتاه زهواً بأصابعه الممتلئة وبخاتمه الذهبي الذي يزيّن بنصره. حاول أن يغطي زهوه بأن نفض سيكارته.. وراح يلهو بالرماد الذي تكاثر في نفاضة السكائر، لكنه قال كأن الأمر لا يعنيه:

-الصبر مفتاح الخير.. يا أبا المداح!

قال أبو المداح: أنت لا تعرف أهل المنخورة، مثلما أعرفهم كما قلت لك يوماً –يوالون من كانت العصا بيده... القوي –أطال الله في عمرك- مرهوب الجانب، مسموع الكلمة لديهم، وأنت.. أنت القوي.. فابحث عن العصا قبل أن تبحث عن الأفاعي.

ثانية، ينظر إلى خاتمه الذهبي في بنصره، وإذ يلمع تحت الضوء، تعصف برأسه تيجان الملوك التي سمع الكثير عنها.

حاصرته عالم التيجان المتلألئة يحملها عبيد.. فأشـار إلى أجملها وأخفها وزناً وأغلاها ثمناً فوُضعت على رأسه.

انتشله أبو المداح من صمته: الطريق الطويلة تبدأ بخطـوة، فتلكن خطوة قوية.. أطال الله في عمرك.

قال قاسم المدهون: سأفكر في الأمر.

قـال أبو المـداح: من أطـال التفكـير في العـواقب، هـانت عزيمتـــه.. أنت تملك المـــال، ومن يملك المـــال يملك القـــوة والرجال.

***

الليل رطب وصـامت إلا من كلاب تتنـاوب النبـاح ومن عـواء لبنات آوى حيث الجبال.

النهارات قائظة تدبُّ فيها الحياة والحركـة، لكنها تخفي تحت سطحها اسـتكانة وهجوعـاً.. وها هو ذا يطل بنظـرة جديـدة على لياليها ونهاراتها.

يتلفت يمينـاً حيث وزير الميمنــة، ويتلفت يسـاراً حيث وزير الميسرة، وفي كل مساء يهرول إليه رئيس البصاصـين بما تنقله إليه العيــون والآذان، فيوافق ويــرفض، يبتسم ويكشّــر، يهمس ويصرخ، وكلٌ طوع بنانه.

منذ الغد سيخطط ليكون لـه رجاله.. وعيونه.

2

تأهبت غيوم الشتاء لمغادرة فضاء المنخـورة دون أن تلامس قطـرة مطر واحـدة تربتهـا. دفعها الهـواء بعيـداً، حيث الجبـال فالصـحراء.. وبـدت السـماء زرقـاء صـافية.. ثم كـان أن جـاءت النهارات القائظة.

وعادت المنخورة لتهجع بانتظار شتاء آخـر، ممنيّة النفس أن المطر، مهما تطاول في مخاصمتها فسـوف يـأتي. وكـان قاسم المدهون الذي يراقب تلك الغيوم وهي ترحل يمنّي النفس بالتاج الذي تراءى على رأسه لامعاً. وبلحظةٍ خاطفة مثل البرق، تراءى لـه ذلك التاج بين فسحة من الغيوم.. واستغرقه المنظـر. كـانت أعصابه تتوتر عندما يغيب التاج لدقائق تحت طيات غيمة وافـدة؛ فإلى متى ستظل هذه الغيوم تعكر عليه متابعته لتاجه الموعود؟

مزارعه تتطور وتزداد مساحة وتعطي ثماراً. يعمل الكثيرون من أهل المنخـورة فيهـا، وكـان من يعمل فيها يـدعو لـه ولأخيه بطـول العمر والـرزق الوفـير؛ فهم –إذا أراد أن يقـوم بمشـاريع جديدة- لن يكونوا ضده، سـيكونون معـه. إنه على ثقة من ذلـك؛ فـــأين يعملـــون واللقمة شـــحيحة والقحط يتمطّى في عـــالم المنخورة؟

إنه الغيمة الــتي بها يســتظلون؛ فكيف يــزداد تحكمــاً في مصـائرهم ويجعلهم يلهثـون ركضـاً لكسب رضـاه فيبسط عليهم ظلـه، ويتكـرم عليهم بشـيء من سـخائه؟ منذ مـتى قـال لـه أبو المداح: "عليك أن تجعل يدك في أفـواه أهل المنخـورة للكـوع.. وعليك أن تحمل قطعة عظم لترميها إليهم، فتحافظ على ملازمتهم لك؟". لم يتذكر منذ متى كان ذلك.. ولكنه يعضّ على شفته العليا ويهزّ رأسه موافقاً على صحة تلك الملاحظة.

فجأةً تراءت لـه مجموعة من الكلاب، تَهـزُّ أذنابها مسـتكينة، إلا أنه تضـايق، لأن بعضـها كـان ينبح، وتسـاءل: هـذا النبـاح كيف سأنتهي منه؟

ولم يتوقف بحثــاً عن الإجابـــة، فقد تـــذكر تلك الفســـحة السماوية الصـافية الـتي كـانت تظهر لـه واضـحة عنـدما تتفـرق الغيـوم عن بعضـها، لو أنها ظلت مترصـة، متكاثفـة.. لما كـانت هناك فسحة في السـماء، فكيف لـه أن يخلق مثل تلك الفسـحة في عالم الأرض، وفي عالم المنخورة بالتحديد؟

ابتسم مطمئناً لفكرة سطعت بذهنه كالبرق، وما عليه إلا أن يبدأ هادئاً بتنفيذها.

يعــرف ما يريــد، لكن لا بــدَّ لـه من البداية ليصل إلى نتيجة يقطف ثمارها منتصــراً، مزهــواً. تبـدو لـه البداية واضـحة حينـاً، مشوشة في أحـايين أخـرى، يمسك بأطرافها لكنها تتخلص منـه، يتعقبُّها راكضاً، حتى إذا أمسك بها أفلتت منه.

كم هي صعبة البداية، كقطرات الزئبق، تبدو لـه قريبة، مثلما هي موغلة في البعد. لا بدَّ لـه من الاستدارة والالتفاف للوصـول إلى رحم الأشـياء، إلى رحم الكـون، لا بـدَّ من التمكن من العنق والحنجـــرة، عند ذلك يمكن لـه أن يتحكم في الأنفـــاس؛ في الشـهيق كما في الزفـير، فمـتى يبـدأ، وكيـف؟ كيف سـيلتقط قطرات الزئبق، وكيف سيقبض على عنق الأشياء؟

منتصف الليل يتقــدم بطيئـاً وثقيلاً. أضــحت النفس توّاقة للتحـرر مما يـدور في أنحائهـا. أضـحى تواقـاً ليبثّ ما يعتمل في داخله لهذّال الحسن، الذي رأى أنه الوحيد الـذي يمكن أن يكـون جسراً لتنفيذ فكرته، فمتى يغادر الرجال مضافته؟

متى ينتهون من أحاديثهم المكرورة، ونكاتهم الممجوجة؟

راح يتصنّع التثـاؤب ويرفع يـده ليضـعها على فمـه. نظر إلى ساعته أكثر من مرة، فقال أحـدهم: "علينا أن نغـادر، لقد تأخرنا بالسهرة"..

ولم يجب، لكنه اكتفى بابتسامة باهتة.

***

بعد أن اهـــتزت الكـــواكب؛ بعد أن ودّعت الغيـــوم عـــالم المنخـــورة، وبعد أن غـــادر المضـــافة آخر رجـــل، تمطّى قاسم المدهون، وزفر الملالة التي تراكمت في صدره.

منذ عـدة أيـام وهو يبحث عن الملاذ الـذي يسـتريح إليه في تنفيذ خطته الـــتي رســـمها في ذهنـــه، وقلبّها داخل روحه المتوهجـة. ورماها بين الأزقة فتراكضت حيث بيـادر المنخـورة ومقبرتها وأطرافها، وأخيراً عادت لتستقر في حنجرته. تضخمت الكلمـات في الحنجـرة بحثـاً عن اللسـان والشـفتين، ومن ثمَّ البوح. لو كانت رؤيته في صبّوحة الخليل كما كـانت فيما مضـى؛ لبـاح لها بهـذا العـالم الـذي يضـطرب في داخلـه.. لكنها أضـحت بعيـدة، هي الـتي فرضت عليه أن يكـون بعيـداً. سـينتظر يومـاً يعرف فيه كيف يـردَّ عليهـا، لا يريد لصـبّوحة الخليل أن تسـاعده فيما اعـتزم عليـه، لكنه كـان يثق بما تقـول، لا يعـرف من أين تشـبثت به تلك الثقـة. إنه يثق بكلماتها وكفى. كلمة منها تكفيه لأن يستمر في خطته أو يبحث عن غيرها.

أرادت أن تبتعد.. فليكن ذلك يا صبّوحة.. لن تتوقف الشمس عن شروقها وغروبهـا، سـوف تسـتمر مثلما سيسـتمر الليل في تعقبه للنهار. "لن يكون أمامي إلا هـذّال الحسن فهو الأداة الـتي ينبغي أن أسـتخدمها وسـأظل بعيـداً؛ إن سـقط فلن أرحمه وإن نجح فإنني سأعرف كيف أمـدَّ لـه يد المسـاعدة، وفي الحـالتين؛ ينبغي أن أكون بعيداً".

ها هي ذي العتمة في الأزقة..

أُسدلت الستائر على النوافذ، وكان قاسم المدهون يتصنّع الهدوء، لكنه على يقين لو أن أحداً تأمل في عينيه بعمق لأدرك أنه يخفي توتراً محموماً وأن ما يظهره من هدوء ليس إلا قشرة خارجية من هدوء مزيّف.

انسكب ضوء قنديل الكيروسين، فبدت الأقنعة تتوارى عن وجهه رويداً، رويداً. تمزقت البشرة الخارجية لوجهه، ابتدأ ذلك من المنطقة القريبة للشفتين، ومن المنطقة التي تحيط بالعينين.

بدا وجهه لهذّال الحسن –وهما في عالم متوتر- وقد انتقل من لونه القمحي إلى سمرة قاتمة، أقرب إلى لون المداخن.

ظل هذّال الحسن على صمته، يصغي بانتباه شديد إلى كل كلمة يسمعها، لا يريد لنبرة الصوت أن تبتعد عنه، يود أن يحتفظ بمخارج الحروف التي يتلفّظ بها قاسم المدهون.. فهذه الخلوة جديدة إلى عالمه، وهذا البوح الداخلي الذي يسمعه المرة الأولى في حياته، يستدعي أن تكون أعصابه وأنفاسه مشدودة حتى النهاية.

من محطات ضبابية ستكون نقطة البداية.ـ وحيث العالم الذي ما زال مبنياً في الذهن ستكون النهاية.

من محطات اختمرت عوالمها في أعماقه، وحيث عالم سيكون مركزه ونبيه وشيطانه ستكون النهاية. البداية صعبة، والوسيلة مريرة لكنه إن توقف فإن أحداً لن يرحمه، لن يتوقف ليتفرج على التيار، عليه أن يصنع التيار الذي يريد، والريح التي يريد.

طريق المجد، ليس مزروعاً بالورود، وليس سهلاً. غايته أن يحقق ما يريد. لقد قال ذات ليلة لصبّوحة الخليل: "أنا زعيم المنخورة"... وما دامت هذه غايته، فليس مهماً أن يقف ليتساءل: كيف هي الوسيلة؟

هزَّ هذّال الحسن رأسه بعنف محاولاً أن يتحرر من دهشة مطّت أرجلها لتتعلق بعينيه وأذنيه، ضجَّ السؤال في داخله: أيسمع كلمات يقولها قاسم المدهون، أم أنه في حلم كابوسي؟؟.. دقائق كأنها عصور، دهشة كأنها صخرة سقطت على صدره. لو لم يتلمّس ركبتيه وهو في جلسته تلك لأقسم بأغلظ الأيمان أنه في حلم. ولكنه ينظر إلى كل الأشياء التي حوله للمرة الثالثة أو العاشرة، فيتأكد أنه يعيش الواقع بتفصيلاته.

-هذّال.. عليك أن تبحث عن "السفهاء".

انتشله صوت قاسم المدهون من شروده، فسأل بصوت مسحوق:

-السفهاء؟

وقبل أن يجيبه بكلمة، مدَّ يده إلى جيبه وأخرج رزمة من المال ووضعها في حضن هذّال الحسن. المرة الأولى التي يرى

هـذّال الحسن أوراقـاً مالية تتكـوم في ثوبـه. تبخـرت الدهشـة. تكسّر صداها وهو يتأمل ثانية ما صار معه من مال.

وتجاهل قاسم المدهون بسمة هذّال الحسن، وقال:

-لا بدَّ من الصعود.

هـزَّ هـذّال الحسن رأسه موافقـاً، بينما كـانت بشـائر الفجر تعلن عن قـدومها من النوافـذ، وإذ وقف ليعـود إلى داره، قـال قاسم المدهون: "تذكر.. أننا اتفقنا على الصمت.. يا هذال"!

كثيراً ما كان يستيقظ هذّال الحسن مع الفجر، لكنه في هـذا الفجر يحسُّ أن كل الأشياء قد تغيرت، الفجر تراءى لـه مبتسماً. الأزقة الـتي عليه أن يقطعها للوصـول إلى داره، تغـيرت. إنها المـرة الأولى الـتي تنبعث منها رائحة رطبة تنفذ إلى رئتيـه.. فيطلب المزيد من الهـواء ومن هـذه الرطوبة الـتي يحسُّ معها بنشوة، كتلك النشوة التي كـان يحسُّ بها عنـدما يـرقص في أحد أعـراس القرية فتلتهب الأيـدي تصـفيقاً لحركاته الخفيفـة. كيف سيظل صامتاً وجيب ثوبه الطويل الذي وُضع فيه المـال يهـتزُّ مع خطواته ويلامس فخذه مُذكراً إيـاه في كل خطـوة ببشـائر حيـاة جديدة؟

كيف سيظل صامتاً ويبقى لسـانه متجمـداً، فلا يبـوح لزوجته بانتصاره؟..

لكنه يتراجع إذ يتذكر أن قاسماً المدهون عنـدما حـذّره؛ رأى فتحتي منخريه وهما تنفتحـان بتـوتر محمـوم، ورأى عظـام فكّيه تـبرز بحركة صـاعدة وهابطة وتضـغط على بعضـهما. لو لم يكن الأمر يستدعي الحذر، لما أعاد قاسم المدهون تحـذيره أكـثر من مرة. لو كان الأمر كتلك الليالي التي كان يذهب فيها إلى صيُّوحة الخليل، لما أغدق عليه قاسم المدهون هذه الكمية من المـال، لا بدَّ من أن الأمر أكبر من ذلك.. وهو هذّال الحسن سـيكون أمينـاً على كلمته، وسيكون أميناً على أفعاله. إن صعد قاسم المدهون سيصعد معه، وإن كانت الـريح ضـده فإنه لن يخسر شـيئاً. لو لم يكن قاسم المـدهون على ثقة من نفسه وتصـرفاته لما اسـتمر النـاس في الـتردد على مضـافته في كل مسـاء، وحـتى منتصف الليل. لو لم يكن كذلك، لما وقف خطيب المبطون، إمـام جـامع عمر بن عبد العزيز في كل يوم جمعة ليدعو لـه بطول العمر.

عندما فتح هذّال الحسن بـاب داره الخشـبي.ـ فشـخر؛ كـوّر بصـقة في فمه وبصق على البـاب مقـرراً أن يستبدلـه ببـاب حديدي بعد أن ينتهي من تنفيذ خطة قاسم المدهون؛ وإذْ أراد أن ينـام، طـوى للمـرة الأولى في حياته ثوبه الطويـل- بعد أن نزعه عن جسده- ووضعه مطمئناً، متمهلاً.. تحت وسادته.

***

في ذلك الفجر، استدار قاسم المـدهون على كعبيـه، ليواجه صـورة أبيه الباهتة في إطارها الخشـبي، مـرة ثانية أحسَّ أن

الصورة قد اهـتزت غضـباً وأن العيـنين قد تحجّرتا على دم أحمر قاتم.. فابتسم، وقال مخاطباً الصورة:

-أعــرف أنك غاضب من هــذا المــال الــذي قدمته لهــذّال الحسن.

وقبل أن يكمل كلماته أحسَّ ثانية أن الصــورة قد اهـــتزت بعنف أكثر من المـرة السـابقة. أحضر كرسـياً انتزعها وأسـندها إلى وســادة، وكــاد أن يضــحك بملء فمه عنــدما تنبّه أن كــأس الخمرة صارت تتوسطهما؛ لكنه قال:

-لكل زمان- يا أبي.- ثعالبه ورجاله.

وإذ رفع كأس الخمر بيده، قال مبتسماً:

-وخمره.

وإذ تذكر صبّوحة الخليل، قال:

-ونساؤه.

وعندما استغرقته صورة أبيه، قال:

-لا تغضب.. فكم أنا حزين على عمرك الـذي لم تعـرف كيف تسـتغله، لو أنك نهضت من قـبرك وزرتـني، فسـوف تـرى يا أبي أنــني ســأغدو أمـير المنخــورة بأزقتها وبيوتها وأناســها وكلابهــا، سيغدو كل شيء رهن إشارتي!

نهض مترنّحاً ليعيد الصـورة إلى مكانها في الحائـط، لكنه لم يكتشف إلا في ظهيرة اليوم الثاني عندما اسـتيقظ مصـدوعاً أن الصورة كانت مقلوبة، وكاد أن يضحك وهو يتساءل:

-كيف تحمّل هذا الوضع كل هـذه السـاعات، فلم يصـرخ ولم يتألم؟

وبعد أن أعــاد الصــورة إلى وضــعها الطــبيعي، ارتمى على كرسـيه في باحة الـدار، وعلى غصن دالية العنب غـادت صـورة صبّوحة الخليل لتتراءى له، لكنه رآها امرأة متلفّعة بثياب سوداء، ولم يعد يظهر منها إلا وجهها ويداها، فابتسم، وقال:

-الــزمن بيننا يا صــبّوحة، والــزمن لا يــرحم.. فــاغربي عن وجهي.

تناهت إليه ضحكتها هازئة، نفر كطير مـذعور، وقادته قـدماه هائمــاً حيث بســاتين المنخــورة المفجوعــة؛ وحيث الأرض في ظاهر المنخورة متشققة؛ وعطشى.. مفجوعة وقاحلة.

*

منذ ثلاثة شهور أو أكثر من ذلك بعدة أيام، أضحت المنخـورة غير المنخـورة، غادرتها الطمأنينة وهـربت السـكينة عن حواريها وأزقتها. أضحى نومها قلقاً، متوتراً، لا يعرف أحد من سيحلّ عليه الــدور ليكــون ملقى في داره بعد أن سُــرقت أمواله أو أرغمت

زوجته على أن تـنزع من أذنيها ومعصـميها ما تـتزيّن به من ذهب أو فضة.

مَنْ سيكون ملقى إلى جانب زوجته، موثوقاً بالحبال كما هي موثوقـة، وإن حـاول المقاومة فـإن عـدة طعنـات من الخنـاجر سـتناله في مواضع من جسـده.. وحـده قاسم المـدهون الـذي أطلق الرصـاص في باحة الـدار في منتصف ليلـة، فاستطاع أن يلقي القبض على أحد اللصـوص.. حيث اعـترف صـباحاً بـاثنين، شاركاه التسلل إلى دار قاسم المدهون.

وكـــان على المنخـورة أن تعيش انتصـــاراً جديـــداً لقاسم المدهون؛ انتصاراً جديداً توهّم الكثيرون أنه يستحق الإمارة على المنخورة دون منازع.. لكن هذّال الحسن –وحـده- كـان يضـحك من أعماقه، ولكنه الضحك الذي لا يراه أحد.

3

نفضت المنخــورة عن جســدها أغطية الخــوف وهــواجس القلق.. اجتمع الناس إلا المرضى ومن أقعدتهم الشيخوخة – في "ساحة المهابيل" وراح الطبل يضرب ضـربات غـير منتظمة في البدء، ثم تشكّلت حلقة الرقص حيث راح أبو حسـابا يعـزف على مزماره؛ كما كان يعزف عليه في نهاية المواسم التي كانت تأتي وفيرة خيّرة.

كان النـاس، فيما مضـى، يكتفـون بـرش المـاء في السـاحة اسـتعداداً للـرقص، وتفاديـاً للغبـار الـذي يرتفع تحت أقـدام الراقصـين، ثم تُـرتب الكراسي على شـكل نصف دائـرة أو ثلاثة أرباع الدائرة لمواجهة حلقة الـرقص.. لكن تغيـيراً ملحوظـاً بـدا للجميع في هـذه الرقصـة؛ فلقد وُضـعت الكراسي كما في كل مـرة، وفي مقابلها تمامـاً فرشت الأرض بعـدة حُصُـر ثم وضع فوقها السجاد، وفي منتصـفها تمامـاً جيء بفـراش صـوفي علاه كرسيان أنيقان من خشب الزان، مرصّعان بزخارف من صدف.

تـردد قاسم المـدهون في الجلـوس على أحـدهما، لأنه يريد لخطيب المبطون أن يجلس عليـه.. لكن إمـام الجـامع أقسم أن يكـون الكرسي لأمـير المنخـورة.. وكـان غصّـاب يجلس على الكرسي الآخر.

دُهش قاسم المـدهون من هـذه الترتيبـات الـتي رآها في سـاحة المهابيـل، وتلاشت دهشـته عنـدما عـرف أن ذلك كـان بتخطيط من هدّال الحسن.. وقـام أبو المـداح الأشـرم بتنفيذ ما أشير عليه بحماسة وحركة دائبة.

منذ خمس سنوات، أو أكثر، شهدت "ساحة المهابيل" هجوم الخفـافيش على أبيـه، حيث انتهى به الأمر إلى المـوت، وسـاحة المهابيل، التي ما تغيّر فيها شيء؛ تشهده ثانية، لكنها تشهده وقد تغيّـر، كـان نسـياً منسـياً. يمشي بين الأزقة والحـواري؛ يـركض كبقية الأطفـــال، أما الآن فإنه يجلس وأخـــوه على هـــذين الكرسيين. يطلّ على الآخرين بنظرة أخرى؛ بعينين غير العيـنين اللتين كان ينظر بهما إلى الأشياء الـتي حولـه. في يـده مسـبحة أنيقة لامعة من "العقيق"، يطقطق بحباتها على مهل. يعـرف أن الآخرين يتابعونه بأنظارهم الطفيليـة، لـذلك فإنه وضع رِجلاً على أخرى، ينظر إلى حبات المسبحة التي تنزلق بين أصـابعه بتـؤدة، متصـنّعاً التواضع والحياديـة. منذ زمن، منذ أن نجحت خطته في إدخال الخوف والقلـق، منذ أن تنـاهى إليه أن المنخـورة أضـحت تعيش على حافة الهاوية وعلى حفـــرة من الـــرعب.. بســـبب اللصوص الذين لا يعرفون الرحمة؛ كان ينظر طـويلاً إلى المـرأة

عندما يغدو وحيداً في غرفته ويبتسم، كان يحلو له أن يبتسم بمختلف الأوضاع: فهو يبتسم مرة حيث شفتاه مضمومتان، ثم يجعلهما تميلان إلى الناحية اليسرى، وتارةً تميلان إلى الناحية اليمنى، وإذ لا تعجبه تلك البسمة، يقرر أن تكون بسمته من شفتيه دون أن تميل إلى أية جهة، فلماذا لا يبتسم فتنفرج شفتاه على أسنانه؟ وبعد أن تأمل جيداً آثار التدخين على أسنانه، رفض أن تلازمه تلك البسمة.. وقرر أخيراً أن يبتسم مع هزة رأس وإغماضة مدروسة لعينيه، وتساءل: كيف يبتسم الزعماء؟.. وإذ لم يجد إجابة ترضيه، ترك لنفسه فسحة من الزمن، فلعل الأيام، تحمل له جلسة مع زعيم، فتسنح الفرصة ويلتقط بسمته.

كانت الرقصة إيذاناً بانتهاء مرحلة من الخوف وبداية لمرحلة من الطمأنينة، التي صار يتوق الناس إليها.

أكثر من مرة، اختلس غصّاب نظرة خاطفة إلى أخيه، وإذْ قارن يديه المتسختين بيدي أخيه النظيفتين حيث يتوهج خاتمه الذهبي في بنصره، أحسَّ بالمرارة، حاول أكثر من مرة أن يغسلهما بالصابون، وملح الليمون.. لعلَّه يزيل تلك الزيوت عن خلاياها، لكن ذلك، ذهب سدى.. شبكهما بعضهما وأخفاهما في حضنه؛ خشية أن تلاحظهما العيون التي ركزّت عليه وعلى أخيه.. وكان قاسم المدهون قد تنبّه إلى ذلك، ولكنه كتم ما يدور في نفسه، لأنه –وحده- الذي يملك القدرة على سبر المستقبل، والقفز فوق الزمن؛ فلو أنه ظل قانعاً بالحياة التي عاشها أبوه؛ لكان نسخة عنه، لكنه أدرك أن المال والقوة –وحدهما- يلويان أعناق الرجال، يصبح المستحيل ممكناً والممكن مستحيلاً، وحده الذي حفظ جملة قالها همساً خطيب المبطون بعد الدرس الأسبوعي في الجامع عندما خرجا سوية:

"-يا قاسم... هل ترى هؤلاء الذين يتحلَّقون منصتين لدرسي، لا تفلح الكلمة وحدها معهم".

منذ ذلك الحين حاول أن يزاوج بين المال والعصا، أو بين المال والخنجر، أو بين المال والرعب. وها هو ذا خطيب المبطون يعلنه أميراً بالإجماع في خطبة الجمعة بعد أن استطاع أن يقبض على أولئك الذين زرعوا الرعب والخوف في نفوس الناس، وأن يقودهم والسلاسل الحديدية بأيديهم في أزقة القرية ليتعظ الناس وليكونوا "عبرة لمن يعتبر"... وأمام ساحة الجامع –في ذلك العصر- أعلن قاسم المدهون بصوت جهوري أجش: "سيعرف هؤلاء، أيَّ منقلب ينقلبون؛ سيعرفون جزاء من يريد شراً بالناس، وممتلكاتهم". وكان أن تقدم من اللصوص الثلاثة وانهال عليهم صفعاً؛ حتى أنه بصق على وجوههم، وعندما ابتعد عنهم، قال:

"-يا أهل المنخورة.. عودوا إلى بيوتكم مطمئنين.. فإنني سأسلمهم إلى يد العدالة لتقتصَّ بدورها منهم".

في يوم آخر –وكان يوم الجمعة- أعلن خطيب المبطون إمارة المنخورة لقاسم المدهون ورفع المصلون أيديهم تأييداً.

كان بوده أن يقول لأخيه: "الحرب خدعة، والسياسة خدعة، والزعامة بسمة صفراء، وخدعة"، ولكنه لا يريد للآخرين أن يلحظوا شيئاً، فليضرب الطبل فالقاً صمت الليل، وليعزف مزمار أبي حسابا، لعل ألحانه تصل إلى صبّوحة الخليل التي افتقدتها عيناه في جمع النساء، ولتعرف أنه ودّعها حزيناً ذات ليلة، ولكنه لن يبدي تجاهها إلا الاحتقار.

جسده يتوق إلى الخمر في هذه اللحظات. يسمع صراخاً داخلياً من أعصابه وأمعائه إلى كأس مترعة من الصهباء التي ستجعل فرحه أكثر توهجاً، ولكنه ليكبح جماح نزوته الداخلية، ليعلقها بحبال الانتظار.. فكل ليل له نهاية، ولا بدّ من أن يعود إلى غرفته وهناك –مع أخيه- سيعزف معزوفة الفرح التي طال شوقه إليها.

من مكان ما، أعلن الزمن انتصاف الليل.

نقل قاسم المدهون مسبحته إلى يده اليسرى.. وبإصبع يده اليمنى، أشار لهذّال الحسن الذي تقدم مهرولاً.. وبعد أن همس له ببضع كلمات، تراجع عدة خطوات، وصاح بأعلى صوته:

-يا شباب... يا أهل المنخورة... استمعوا إلي!

وإذ توقف الطبل والمزمار والراقصون، قال هذّال الحسن:

"-أمير المنخورة.. يعتبر أن ماله مالكم والملك في نهاية الأمر، لله ربِّ العالمين.. لذلك فإنه يدعوكم بنفسه السمَحة وصدره الرحب، أن تأخذوا ما تشاؤون من المال الذي سيُقدم لكم على طبق من المعدن، ويمكنكم أن تتقدموا إلى غصّاب.. شقيق أميرنا؛ لتفصحوا عن شكواكم وآلامكم لأنها ستجد –بإذن الله- أذناً صاغية، وسيعمل على الانتقال بكم من آلامكم إلى سعادتكم".

وما أن انتهى هذّال الحسن من كلماته التي تلجلج ببعضها في أثناء إلقائها، حتى جاء ثلاثة رجال وهم يحملون طبقاً معدنياً كوِّمت عليه الليرات المعدنية، فوضعوه في منتصف الساحة، ثم تراجعوا تاركين الطبق.

عقدت الدهشة ألسنة الناس كما عقدت عيونهم لما سمعوا ولما رأوا، لكن طه الأعمى، ربما وحده، الذي مدّ سبابته اليمنى إلى أذنه اليمنى فحاول أن ينظفها، وكذلك فعل باليسرى، وإذْ ساد ذلك الصمت الذي تبع كلمات هذّال الحسن، سأل بصوت هامس:

-يا ابن عيسى.. ماذا ترى!؟

وعندما وصف له ابن عيسى طبق المال والرجال الذين يحملونه، قال:

-لماذا لا نقوم؟

قال ابن عيسى: قلبي غير مطمئن يا طه.. والله العظيم.. قلبي غير مطمئن!

سـأل طه الأعمى ثانيـة: هل أنت متأكد أن هـذا الـذي فـوق الطبق ليرات؟

قال ابن عيسى: نعم.. وقد بـدأ بعضـهم يمـدُّ يديـه، ويأخذ ما يريد.

قــال طه الأعمى: قم لنأخذ حصــتنا فشــعرة من الخــنزير كسب.

قال ابن عيسى: كفاني الله مال ابن المدهون.ـ فـإن أردت، فقم يا طه وخذ نصيبك.

لم يجب طه الأعمى، فقد نهض وراح يهتــدي بعصــاه حيث طبق المال، وعندما انحنى ليمدَّ يده مقتطعاً حصته، سقط مكبّـاً على وجهه، فتناهت إليه موجة ضحك قويـة.. وعنـدما عـاد ليقف وقد ساعده بعضـهم، لم يمـدّ يـده ثانية بل عـاد حيث ابن عيسى الذي ما زال مقرفصاً، ولكنه كان يتمتم:

"-إن لم يخب ظني.ـ فإن هذا المـال مـال حـرام.ـ فلا بـارك الله فيه".

ولم يتقدم أحد إلى غصّـاب للشـكوى.. وانتظر هـذال الحسن دقائق إضافية؛ لعل أحداً ينتهي من تـردده ويتقـدم بشـكواه ولكن النــاس ظلــوا على مــوقفهم، فشــكرهم هــذّال الحسن وأعلن انفضاض السهرة لهذه الليلة التاريخية في عالم المنخورة.

***

كان يعرف هذّال الحسن –حسب خطة قاسم المدهون- إلى أين سـيذهب باللصـوص بعد أن أكـرمهم وطيّب خـاطرهم. كـان يعرف أنهم سيعملون بعد اسـتراحة أسـبوع يقضـونها في إحـدى مزارع قاسم المدهون في بناء دار جديدة على الهضبة الملاصقة للمنخورة، لتكون "داراً للأمير وأخيه غصّاب"، وكان أن عـاد علي الضمراوي إلى المنخورة بعد عشرة أيام من تلك الليلة التاريخية في عالم المنخورة.

***

تــوالت انتصــاراته ســريعاً، لم يكن يتوقع أن تــأتي بهــذه السرعة. فَمَنْ الذي كان إلى جانبه: الـزمن أم الحـظ؟ وبصـوت جاء هامساً؛ ممزوجاً ببسمة واثقة، قال: إنه المال؟

يــذكر صــبّوحة الخليل ويتمناها جســداً متأججــاً ولكنه من الأعمـاق، يقـول: لا. يحـاول أن يصـرخ بهـذه الــ "لا".. ولكنها لا تخــرج إلا همســة، ثم ســرعان ما تتوقف عند شـفتيه. لو لم يعد أميراً للمنخورة لحاول أن يعود إليها، ولكنه لن يرضى لنفسه بعد الآن أن يذهب (هو) إليها، يجب أن تـأتي إليه راكعـة؛ مسـتغفرة، وعندها سيعرف كيف يردُّ إهانتهـا؛ سـيعرف كيف يكـون عـادلاً..ـ ألَمْ تقل لـه ذات ليلة:

-يا لك من رجل عادل.

في تلك الليلة عرف أنها تسخر منه، ولكنه تجاهل سخريتها، وها هو ذا الزمن يولي ظهره لصبّوحة الخليل، ويحتضنه بصدره وذراعيه... ولأنه "رجل عادل"، فسيعرف كيف يردُّ لها الصاع صاعين.

يذكر صبّوحة ويشرب..ـ

يذكرها ويحزن.. يذكرها، وتتراءى له القمّة التي نشدها منذ زمن بعيد أنها بحاجة إلى خطوات أخرى، إلى خطوات أكثر صلابة، وأكثر قوة، وأكثر زهواً.

ما بين الكأس والعينين، تتراءى له المسافة إلى القمّة قريبة، وهو إذ قد صار على ثقة أنه سيصلها، فلا بدَّ له من أن يهرول إليها ليحتضنها. بين القمة والإمارة التي صار يتربع على كرسيها، شعرة.. وهو سيعرف متى يتخلص من هذه الشعرة وكيف؟.. ما بين النزاهة والعهر، شعرة.. وهو لن يتخلص من هذه الشعرة، لن يتساءل: متى، وكيف؟.. هي الشعرة التي أدّت دوراً في وجوده وصعوده، فكيف يمكن له أن يفكر في التخلص منها؟ كانت وسيلته للارتفاع إلى سلم المجد، فكيف يمكن له أن يلغيها؟.. ليكن أكثر ثباتاً، عليه أن يعرف كيف يجعلها قوية، فلا تنتزعها تيارات الهواء القوية.

ألقى برأسه إلى ظهر الكنبة وأغمض عينيه. من الغرفة المجاورة سمع بكاء طفله "حكيم"، منذ عدة أيام، نحر الذبائح، وأعلن فرحته لقدومه إلى العالم بعد ابنتيه، بدرية وسعاد، ولكنه كان يتمنى في قرارة نفسه لو لم يكن هذا الطفل من حسنة ابنة خطيب المبطون- كان يتمناه من منيرة ابنة أبي المداح الأشرم.

بين بوح الخمر وصهيل الجسد، عادت التذكارات لتفتح في روحه منافذ لا يمكن أن ينساها سريعاً. اختلس -ذات ليلة- نظرة إلى كعبي منيرة الممتلئتين، في تلك السهرة العائلية. أحسَّ حنيناً إلى ذلك الدم الذي يكاد ينفر منهما، تغلّب الدم على البياض، فصهل جسده بصمت وحرقة: "آه!". أمكنة متعددة من جسده، في تلك الليلة.. زارت، لكن منيرة لم تكن تلحظ شيئاً، لم تكن تسمع شياطينه الداخلية، بل أكثر من ذلك فهي لم تكن تلتفت إليه، وإن تلفتت فإن نظراتها تأتي خاطفة غير مبالية.

موشوم بلعنة النساء.. لكنه تساءل: وهل هناك أروع من هذه اللعنة؟.

تذكر عينيها، فقال: إنهما تتوهجان بدفء الخمر، فهل هي عصيّة على الرجل؟ ومن عمق نفسه، سمع كلمات كأنما هي شعاره الذي رفعه لحياته في عالم النساء والليل:

"كلهن في الفراش سواء، ومع الضوء الخافت.. يتشابهن".

عاد الدم المتموّج في كعبيها يطغى على مساحة الرؤية أمام عينيه، فقال:

"ما أروع أن ألثمهما على مهل. أنتَ وحدك يا أمير المنخورة، الذي باستطاعتك أن تفعل ذلك، ولكن كيف الطريقة إليها، وهذا "الكلب" غالب الوالبي سيطر عليها؟.. الدنيا بيع

وشراء، مساومة سريّة والقليل منها مكشوف، لن يمتلك هذه الدنيا إلا من يدفع ليكسب؛ إنها أكبر زانية؛ لا تعرف الهوادة ولا تعرف الرحمة، تُقبِل ضاحكة راقصة لمن يدفع أكثر، وتعطي ظهرها لمن يتردد، وأنا الذي لا يعرف التردد طريقاً إلى حياته. كيف يمكن أن أحصل على منيرة؟.. مرة واحدة، لقاء واحد في الفراش يا منيرة، يا بنة أبي المداح! ثم، لتذهبي إلى الجحيم، ولكن كيف؟".

من طرف قصي في المنخورة تناهى إليه نباح الكلاب. رفع رأسه عن ظهر الكنبة، وقال وهو يرفع كأسه ليدلق ما بقي منه في جوفه: "كل من حولي كلاب، ولكن يجب أن يكونوا إلى جانبي لا ضدي. مسيرتي إلى القمة تتطلب ذلك".

وإذ تذكر "علي الضمراوي".. شالت نفسه بتوجس، تطاير على أثره تأثير الخمرة فقال:

-هل هذا أصعب منالاً من غالب الوالبي.. فكيف يمكن إسكاته؟. ولم يحاول أن يجيب عن السؤال، فقد أحسَّ خدراً عجيباً في أعصابه وظنَّ أن الأشياء التي أمامه تتحرك.. حتى لقد تراءى له "علي الضمراوي" يبتسم هازئاً. رأى شفتيه تتحركان صعوداً ونزولاً وإلى اليمين واليسار. رآه يهزُّ رأسه ويشير بيديه إشارة تعني عدم الاهتمام وربما الاحتقار.

وترنّح متجهاً إلى سريره، بعد أن سقطت الكأس من يده.

***

هل هي أيام تلك التي مرت على لقائه بصبّوحة الخليل، أم أنها شهور؟ كان يحمل بين يديه جريدة "المساء" ويقرأ فيها، فلا يستطيع التركيز على فحوى الكلمات عيناه غارقتان في السطور ولكنه لا يفقه منها شيئاً. كانت هناك أسئلة تقلقه من أعماقه، ولمّا يصل إلى إجابة تقنعه.

-فما معنى المثالية في عالم يمور بالخديعة؟

-وما معنى الحبُّ في عالم تدهور إليه –مرة واحدة- ولا يستطيع الفكاك من تذكره؟

لقد اختار آراءه.. وفي البدء لم تفرض نفسها عليه، إنما كان معجباً بتلك الآراء، حتى لقد اتخذت شكلاً معيناً لحياته الفكرية فراح يكرّس قراءاته لتعميق تلك الآراء؛ فهو مثلاً عندما اختار سياسة "اللاعنف"، كان معجباً بالمهاتما غاندي، ولكنه إذ أدرك أن تلك السياسة لا يمكن أن يكون لها من معنى في مجتمع المنخورة، فقد أصيب بخيبة أمل جعلته يصل إلى حدود المرض. ناقش هذا الموضوع مع صديقه محمود العباس الذي كان في الأصل يعارضه في هذه السياسة، وعندما أعجب بالحجاج بن يوسف الثقفي فإن محموداً العباس، أجابه بكلمات غامضة:

-الخطأ لا يعالج بخطأ يا غالب.. ونحن لا نريد أن تكون هنـاك دماء، علينا أن نتعمّق في "الحتمية التاريخية".

ظلَّ غالب الوالبي قلقاً، لكنه كان حريصاً على أن تكـون لـه آراؤه الخاصة.

إنه يعرف تماماً قريته الـتي تشـكل الأميّة نسـبتها الكـبرى، ولكنه يعــرف –كــذلك- أن الكثــيرين في قريتــه، يبحثــون عن الخلاص، ولكنهم يجهلــون الطريقــة. إنهم يفضــلون الاتجــاه التحرري على استبداد قاسم المدهون وشـريكه هـذّال الحسـن؛ فلا بدَّ من الشـرارة الـتي تحـركهم. كيف لـه ولمحمـود العبـاس وبعض أصدقائه الذين يؤمنون بأفكاره أن يقدحوا هذه الشرارة؟

أمسك ثانية ببعض الأوراق الــتي تــؤرخ جلاء المســتعمر الفرنسي عن سـورية واسـتعرض قائمة من الأسـماء: شـكري القوتلي- حسـني الـزعيم- سـامي الحنـاوي- أديب الشيشـكلي، وقرأ عن حزب الشعب والحزب الوطني وحزب البعث والحـزب العربي الاشـتراكي، وتـوقفت عينـاه من الاسـتمرار في القـراءة وإن ظلتا معلقتين في أوراقه.. وهمس مناجياً نفسه:

-"كل شيء سار سيراً سيئاً".

وإذ وضع أوراقه جانباً، قال كمن تنبّه إلى نفسه:

"وكل شيء في المنخورة يسير نحو الخراب.. فما العمل؟"

وقف ينظر من خلال النافـذة إلى الأزقة القـذرة والأطفـال الحفاة، فقال:

"-كيف لي أن أستوعب ابتهالات خطيب المبطون في خُطَبِه أيام الجمعة وهو يدعو لقاسم المدهون بطول العمر والبقاء؟"

وإذ تذكر لقاءه مع صبّوحة الخليل، قال:

"-حتى أنا سقطت في أول تجربة مع المرأة. إن العالم يبــدأ أولاً من إصلاح النفس والسيطرة على نزواتها".

***

منذ ذلك اللقاء حدثت تغييرات كثيرة في مناطق مختلفة من العالم، فهناك منطقة غدت مضطربة، وأخرى غدت هادئة. هنـاك اكتشاف لأسرار الحياة والكـون، وهنـاك أفـراد وجماعـات ذهبت دون رجعة. هنا يمحّي نمط حياة قديم، وهنا يضاف نمط جديد.

ومع أن الأيام والليالي في دار صبّوحة الخليل تجري بسكون وهـدوء دون أن تحـدث أية تغيـيرات مفاجئـة، فـإن الحيـاة على الرغم من ذلك لم تتوقف، بل إنها لتتغير تدريجياً، لكن ذلك يجيء ببطء شديد حتى لتظهر كأنها لم تتغير، هناك أشياء أخرى تحـدث وتلحظها العين من غــير تامــل، فقد انقطعت زيــارات قاسم المـدهون الليلية عن صـبّوحة الخليـل.. وغصّـابٌ أضـحى بـارداً تجاهها. لقد كـانت تحبُّ فيه تلك الكلمـات الـتي قالهـا، وكررهـا، اكـثر من مـرة عن عـالم الـروح؛ فما الـذي تغيّر في غصّـاب؟..

لامت نفسها لأنها واجهت قاسماً -ذات ليلة- بقتله لنايف العباس، فما الذي جعلها تتكلم بهذه الكلمات ما دام عالمها ينحصر في المنفعة الشخصية. إنه هو الذي يغدق عليها المال، وهي بحاجة للمال بعد أن مات زوجها وتركها وحيدة مع بناتها الثلاث. أراد أن يحدثها عن مجد أجداده؛ فأي مجد هذا الذي صار يخلقه؟.. لماذا لم أمسك بطرف الخيط من أوله؛ لعلني أزيّن له عالماً آخر؟

فجأةً، وجدت نفسها أنها لن تستطيع أن تقول ذلك.. فإسماعيل الدهون، لم يكن أكثر من رجل يرعى كلاب تلك السيدة الفرنسية... وقاسم لم يكن أكثر من شاب فاشل في حياته وجد المال بين يديه دون تعب أو جهد.

إنها بالفعل، كما قال لها قاسم المدهون: "طويلة لسان"، وهي لا تملك إلا أن تقول الحقيقة، ولأن أحداً لا يحب الحقيقة.. فإن قاسماً كان أول من ابتعد عنها وها هو ذا غالب الوالبي الذي أدركت أنه لم يعرف جسد امرأة يهرب منها، فلم قالت له في آخر لقاء معه:

"-هل تحدثني عن الحرب في المرة القادمة؟"

لقد أحست به كأرض لم تُحرث أبداً. كانت تلاحظ حبيبات العرق فوق جبينه.

شعرت برجفة أصابعه وهي تمسك بيديه، وتجاهلت ذلك. مسحت عرقه وهي تضحك. مدت يدها إلى صدره حتى شعرت أنه صار في طمأنينة من ذلك الخوف الذي كان يعاني منه. أحست به كأنه يعيش في عالم من الضباب، وهو يريد أن يهتدي إلى الطريقة؛ والطرائق وعرة، شائكة، مجهولة، بالنسبة إليه.. وهي، صبوحة الخليل، التي كان عليها أن تدله على الطريقة. حتى إذا اكتشف هذا العالم، فإنه سيبحث عنه، سيعود ثانية، وثالثة.. كانت تستعيد أحاديثه كلمة، كلمة. وبمقدار ما كانت معجبة بها، فإنها لم تستطع أن تعيد شيئاً منها. كان بودها ذلك ولكن الكلمات لم تطاوعها، كانت عصيّة عليها.

لم تكن ساخرة عندما قالت له: "هل تحدثني عن الحرب مرة ثانية؟" ولكنها، أحست -ربما بعد فوات الأوان- إنه ربما تضايق من كلامها، فعندما زارت أخته مرة ثانية، وثالثة ورابعة.. بعد ذلك، وكلها رغبة لأن تراه، فإنها لم تلحظ أنه متضايق منها. حاولت عدة مرات أن تركز في عينيه، لعلها ترى فيهما رغبة إلى لقاء آخر.

لقد أدركت أنه فقد الرغبة فيها؛ وأنه - ربما- كان نادماً.

4

تلك الهضبة القاحلة.. أضحت مبنى للإمارة..

سُوّرت بالأسلاك الشائكة..

ثم جــاء الحائط الإسـمنتي ببابه الحديــدي العــريض، وربض بابان حديديان آخران وراءه. ارتفع مبنى الإمارة بطابقين، إضافة إلى القبو. زُرِعت الأرض بشـجيرات الفواكه والـورود. راح الليل يبـدو ممتعـاً ومضـيئاً، بعد أن سُـلّطت القناديل الكهربائية على الأرض وما حولهـــا، وراحت تتلألأ في غرفها الواســعة بعد أن استقدم قاسم المدهون من أجل ذلك محرّكاً نفطياً.

ومثلما تحمل الـريح في فصل الخريف أوراق الشـجر لتلقي بها بعيـداً، فـإن الأسـئلة كـانت تتسـاقط من البشـر، من شـفاه بعضهم، ومن أعماق بعضهم الآخر، عن الكهربـاء. وتلك الهضـبة من الأرض التي كانت مهجورة لسنوات طويلة، فأضـحت محطة للنظر والدهشة، حتى أن الكثيرين كانوا يتشوقون للدخول إليها، ولكن الرجـــال المــــزودين بالخنـــاجر والهـــراوات، على بابها الخـارجي، كـانوا يحولـون دون ذلـك، حـتى أنهم كـانوا يلوّحـون بالهراوات لتبتعد العيون الفضولية عن مبنى الإمارة.

وعندما نُقلت أخبـار المبـنى إلى طه الأعمى، في إحـدى تلك الجلسات عند حائط مسـجد عمر بن عبد العزيـز، قـال وهو يلهو بعصاه في التراب:

"-ولقد جعلنـاكم درجـات.. يعطي الـرزق لمن يشـاء، ويمنع الرزق عمن يشاء".

عقّب ابن عيسى، وهو يهزُّ رأسه:

-أول الغيث –يا طه!- قطرة.. وأول الشرِّ شرارة.

سأل طه الأعمى:

-ماذا تقصد يا ابن عيسى!؟

أجاب ابن عيسى:

-ستأتينا أيام نحس وريح صرصر.

على الشرفة الشرقية التي تطلُّ على المنخـورة، صـار يحلو لقاسم المـــدهون أن يجلس عصـــراً بثوبه الحريــــري وحذائه المخملي الأســود، ليتأمل مبتسـماً، دخـان روث البهـائم الــذي يتصاعد كثيفاً من المداخن.

وفي إحدى جلساته مع خطيب المبطون، قــدّم لـه رزمة من المال، وقال، بعد أن رماها في حجره:

-لتكن الفكرة لك.

وإذ راح خطيب المبطــون يتلمّس رزمة المــال مدهوشــاً، تجاهل قاسم المدهون ذلك، واستطرد:

-هذا المال الذي قدمته لك من "فاعل للخير".. لكنني أريدك منذ الغد أن تحــوّل الــدرس الأســبوعي.. إلى درس "لتحفيظ القرآن".

ولأن الأمر بدا لغزاً مبهماً لخطيب المبطون، فقد قال قاسم المدهون ضاحكاً:

-لكنني أريدك أن تبتعد عن تلك الآية التي تقول: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها..."؟

فعقّب خطيب المبطون متأتئاً في البدء:

-بالعكس.. "أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم.." .....

قاطعه قاسم المدهون:

-ولكن لن ننسى تعبك.. فأفعالك الخيّرة في الحسبان.

قال خطيب المبطون:

-لم أقصد إلى ذلك ففضــلك غمرنا جميعــاً، ولكن مَنْ نــدعو إلى تلك الدروس؟

قال قاسم المدهون، وهو يلهو بمسبحة من العقيق:

-"العلم في الصغر كـالنقش في الحجـر".. عليك بالصـغار.. الكبار لا فائدة منهم، ذاكرتهم ضعيفة وأنت سيد العارفين.

قال خطيب المبطون:

-أقسم بالله العظيم أن الله –جلَّ شـأنه- حبـاك ذكـاءً ومـالاً، وأنت وحدك الذي تستحقهما.

وإذ أحسَّ أن قاســماً قد نظر إليه نظــرة غاضــبة، اســتدرك سريعاً:

-يا سيادة الأمير..

.. وإذْ تــراءى لهما أبو المــداح الأشــرم قادمــاً، وهو يصــعد الهضبة، قال قاسم المدهون:

-لا أريد لأبي المداح الأشرم أن يرى شيئاً أو يسمع شيئاً.

ولم يجب خطيب المبطون، لكنه تنـاول رزمة المـال ودسّـها في جيب ثوبه الفضفاض على مقربة من صدره.

وكــان هنــاك غــروب الشــمس، وكــان هنــاك شــفق أحمر كخضاب الدم..

ثم جاء الليل..

ما بين غروب الشمس ومجيء الليـل، كـانت هنـاك أحـاديث أســـدلت ســـتاراً على الماضي الحقيقي لقاسم المـــدهون، واستبدلت به حكايات جعلته مولوداً ليكون أميراً على المنخــورة ..لكن الــزمن الــرديء تجاهل إســماعيل المــدهون.. فلم يكن أميراً، ولكنه كان كريماً، حليمـاً، لم يـترك بيتـاً ليـتيم أو لأرملة أو

لفقير إلا عرف خيراته. كان يعطي دون أن تعرف يسراه ما تقدم يمناه، لقد عاد الزمن بدورته ليحقَّ الحقَّ والعدل، ورفعت الستارة. عاد قاسم المدهون أميراً على المنخورة أباً عن جد. وقد أقسم أبو المداح الأشرم في جلسته تلك أنه لم يقل كلمة واحدة مزيَّفة، فهو، وحده الذي يعرف شجرة عائلة أبي قاسم المدهون كما سمعها من العجائز في المنخورة. ولكن الأيام، كما قال، "تظلم أبناء الأصول".

ما بين غروب الشمس ومجيء الليل، نفض خطيب المبطون رأسه أكثر من مرة وهو يسمع تاريخ عائلة المدهون، كما حبكها أبو المداح الأشرم. أحسَّ أن الدنيا تدور به، وأنه أضحى في عالم من عواصف رملية، فهل يصدِّق أبا المداح أم يلغي معرفته الحقيقية بأبي قاسم المدهون الذي جاء فقيراً إلى المنخورة في ظروف غامضة من خمسين سنة؟.. هل يصدِّق ما رأت عيناه، أم يصدق ما تسمع أذناه؟.. صحيح أن أبا المداح أكبر منه بعدة سنوات ولكن أيكفي ذلك ليكون دليلاً على صدق ما يقول؟ وزهت نفسه بتساؤل هادئ: "لأفرض أن أبا قاسم المدهون كان كريماً وحليماً.."، كما قال أبو المداح.. ولأفرض أنه انحدر من سلالة الأمراء في أزمان ما عرفتها، فكيف يمكن أن أفسر معاملة قاسم المدهون لابنتي؟.. كيف يمكن أن أفسر ما يتناقله الناس عن معاقرته للخمر والبحث عن الزنا؟.. كيف يمكن أن أرفض ما قاله الناس عن وقوفه تحت نافذة صبّوحة الخليل بعد منتصف الليالي؟.. وهدأ البركان في داخله وهو يستعيد الآية القرآنية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. كل هذه التقوّلات يمكن أن يرفضها ما لم يقم دليل أكيد على صدقها، ولكنه أضحى في شكٍّ لا أول له ولا آخر حول أصول قاسم المدهون، وبحركة لا شعورية ارتفعت شفته السفلى لتحتضن شفته العليا وارتفع حاجباه في ذات الوقت؛ فلقد اختلطت عليه الأمور إلى درجة وصل الشكُّ فيها إلى أنه راح يحدّث نفسه تارةً بالتصديق وتارةً بالرفض.. ومالَ إلى التصديق في لحظات معينة متهماً نفسه بأنه لم يبحث يوماً عن الأصول الأولى لأبي قاسم المدهون، كما أن للعمر دوراً وللعقل دوراً مهماً، فليأخذ الأمور كما سمعها حتى لا يتهمه أحد في عقله. ألم تكثر زوجته منذ سنة –مازحةً تارةً وجادةً تارةً أخرى- من التحدث عن أنه صار رجلاً "خَرِفاً"؟

ليكن قاسم المدهون ما يكون، أميراً أو صعلوكاً. ليكن مظلوماً أنصفته الأيام، فتربّع على المنخورة أميراً ولكن المهم أن تأتي أفعاله خيراً للناس.. وهو خطيب المبطون الذي سيبتلع أحاديث أبي المداح الأشرم، سيهضمها وسيجترُّها، ولكنه لن يفرزها، سيحتفظ بها حبيسة صدره. لن يبوح بكلمة مما سمع، حتى لزوجته، لن يتفوّه بكلمة. سيكون الصمت صديقه في أيامه القادمات.. والزمن –وحده- هو الذي سيكشف الحقائق.

وكمن فوجئ بغتةً، انكمش على نفسه وهو يسمع عدة كلاب تنبح في ساحة الإمارة. فرك عينيه، وراح ينظر مليّاً إليها، راعه أن تكون على هذه الضخامة وبهذه الشراسة، لكنه تساءل -وهو لم يرَ مثيلاً لها في حياته- من أين جاء قاسم المدهون بهذه الكلاب؟.. وظل السؤال داخل جدران جسده، حتى إذا استأذن أبو المداح الأشرم بالانصراف، أحسَّ، حِمْلاً ثقيلاً، يتدحرج عن كتفيه.. لكن السؤال الذي لم يستطع أن يحتفظ به بعد أن اندفعا من الباب الخارجي، كان يدور حول الشباب الذين رآهم ذات يوم في ساحة القرية بتهمة السرقة. كانوا يروحون ويجيئون، بهراوتهم وخناجرهم عند الباب الخارجي لمبنى الإمارة، فما معنى ذلك؟.. كيف شتمهم قاسم المدهون وصفعهم أمام الناس في ساحة "المهابيل".. وتوعد أن تتولى "العدالة" أمرهم، وكيف هم –الآن- يحرسون مبنى الإمارة؟

وإذْ باح بسؤاله لأبي المداح الأشرم، بعد أن نظر وراءه، وإطمأن أنهما صارا بعيدين عن مبنى الإمارة، توقف أبو المداح، فأمسك بكوع خطيب المبطون، وبعد أن ضغط عليها قليلاً، قال:

-الزمن يدور- يا خطيب!- تارةً يدور معك، وتارةً يدور عليك، فهل نقف متفرّجين؟

وإذْ لم يجب خطيب المبطون بكلمة، قال مستطرداً:

-نحن أحقُّ بالثمرة، فلتكن لنا. فلتكن لنا يا خطيب... الزمن لا يرحم.

وردد خطيب المبطون، قبل أن يتابعا مسيرتهما منحدرين إلى المنخورة:

-صدقت.. الزمن لا يرحم.

ما بين غروب الشمس وتوغل الليل، كانت المنخورة تغطُّ في النوم، وتغطُّ تحت هيمنة القحط، وإذ ظنَّ أبو المداح الأشرم أن خطيبا المبطون استوعب ما يريد أن يقول، فقد تابعا خطواتهما... كان خطيب المبطون يرى أن الزمن قد لا يرحمه في الأيام القادمات، ولكنهما تابعا طريقهما، محتفظاً كل منهما بعالمه، بصعوده أو سقوطه.. حتى إذا غيّبت المسافة نباح الكلاب.. افترقا على أمل اللقاء، لكن خطيبا المبطون نام قلقاً في تلك الليلة، حتى أن عالم الكوابيس لم يفارقه ولم تنفع في إزاحتها عن صدره قراءته "لسورة الإخلاص" عدة مرات، ولا آية "الكرسي".. ظلت تلاحقه حتى الفجر.

بعد منتصف تلك الليلة، رفع قاسم المدهون زجاجة الخمر، التي أضحت فارغة وفتح النافذة فألقى بها إلى باحة الإمارة، وعندما أغلق النافذة، ألصق وجهه إلى الزجاج، ووضع يديه على جانبي رأسه، لعله يتبيّن شيئاً من عالم المنخورة الغارق في الظلام، وإذ لم يرَ إلا بعض أضواء القناديل الشحيمة، قال في نفسه:

-"في الظلام أنتِ لي، وفي النهار أنتِ لي.. فأين ستذهبين من قبضتي أيتها المنخورة؟

انفتل على كعبيه باتجاه صورة أبيه، وقال يخاطبها:
-"يجب أن ترتدي ثياب الأمراء.. فأنت أميرٌ، استخلف أميراً".
ولأنه أحسَّ صوتاً يسأله:
-كيف؟
قال، بعد أن رفع يده وفرك سبابته بإبهامه:
-بالمال... بالمال والعصا.
وبعد أن جلس على الكنبة واضعاً رِجلاً على رِجلْ، وممدداً يده اليسرى على ظهر الكنبة، استطرد قائلاً:
-بالمال فقط يا أبي يستطيع الإنسان أن يصنع كل شيء.. هل تستوعب كلماتي؟.. بالمال، سأعرف كيف أصنع رجالاً يزيّفون التاريخ. بالمال فقط، سأعرف كيف ألغي تاريخ الفقر من حياتنا، وكيف سأجعل منك ذلك الأمير الذي كان.
كان يحسُّ صداعاً في رأسه بتأثير الخمر الذي ارتشفه؛ فتمدد على الكنبة، مغمضاً عينيه. ليس في نيته أن ينام. النوم يجافيه، إنه سيغمض عينيه لعلَّ هذا الصداع في رأسه أن يتلاشى، أو أن يتلاشى شيء منه. انقلب على صدره، ملقياً خده الأيمن إلى راحة يده اليمنى، وراح يتنفس بعمق، محاولاً أن تكون أنفاسه هادئة، منتظمة.
في واحدة من تلك الجلسات التي صار يحلو له، مع العصر، أن يجلسها وحيداً على سطح الإمارة متأملاً عالم المنخورة، وإلى جانبه منظاره الذي أحضره خصيصاً ليتابع البشر والأشياء؛ "رأى موكب جنازة غالب الوالبي"، استغرب عالم البشر الذي كان يتدفق وراءها كالموج. ارتشف فنجان قهوته وهو يبتسم.
تطاولت ابتسامته إلى ضحكة كان يكتمها، فكانت تخرج من أنفه على شكل نهنهة متقطعة.. لكن ذلك كله انقطع فجأة، عندما رأى الجنازة وهي تهبط في المنعطف الذي يؤدي إلى المقبرة.. وأن رجلاً تعثّر بثوبه، فاصطدم به الآخرون حتى سقط الجميع، وتهاوت الجنازة على الأرض، متناثرة قطعاً خشبية صغيرة.. ووقف غالب الوالبي.. فانشقَّ كفنه الأسود، ليخرج مرتدياً ثوباً أبيض طويلاً، ووسط دهشة الناس، استلَّ سيفاً مثبتاً على خاصرته اليسرى، وطوّح به في الهواء عالياً، ثم أعاده إلى قبضة يده اليمنى بخفة، ووجّه مقدمته نحو مبنى الإمارة، حتى لقد أحسَّ قاسم المدهون بمقدمة السيف تكاد تنغرز في عينيه، فأبعد المنظار بحركة سريعة وصرخ مستنجداً بكلابه وهذّال الحسن، لكنه أصيب بخيبة أمل فقد ظلت الكلاب رابضة في أمكنتها مستظلةً بأغصان الأشجار، وأن هذّال الحسن، ظل مكبّاً على طاولته وقد تعالى شخيره.
قفز قاسم المدهون فزعاً. سقط على الأرض، والعرق يتصبب من جبينه، وإذ نظر إلى الكنبة التي غفا عليها محتضناً صورة أبيه، مدَّ يده إلى عينيه ماسحاً قطرات العرق تحت حاجبيه، وقال متأففاً:

-أوَ تلاحقني في الأحلام.. يا كلب!؟

وقبل أن يـــذهب إلى غرفته لينـــام، نظر إلى كـــأس الخمر الفارغـــة. فأمسك بهـــا، وضـــرب بها الأرض. حيث تطـــايرت إلى شظايا صغيرة... صغيرة.. صغيرة.

القســـم الثـــــالث

غالب اللوللبي

قبل أن يمـــوت أبي بأحد عشر يومـــاً، طلب إليَّ أن أُبعد الساعة الحائطية عن غرفته، فعلت ذلك دون كلمة لأنـني أعرفه عنيداً ولا جدوى من مناقشته في هـذا الموضـوع، لكنـني سـألته بعد يـومين: لمـاذا أراد أن يُبعد السـاعة من غرفتـه؟.. قـال وهو يسعل: ((لم أعد أحتمل ((تكتكتها)).. إنها تمنعني من النوم.

في اليـــوم الثـــاني طلب إليّ أن أطفئ ضـــوء قنـــديل الكيروسين، وعندما هممت بمجادلته حول هذا الموضـوع، أشـار لي بيده اليمنى، وقال آمراً بلهجة السؤال:

-هل سمعت ما قلت؟.. أطفئ الضوء!

في أيامه الأخيرة –رحمه الله- لم يعد يحب صـوت السـاعة، صار يكره الضوء. أضحى منفـذه الوحيد إلى العـالم تلك النجـوم التي يراها من نافذة غرفته في السماء وذلك الصمت الذي يتلذذ به.

مات أبي مع الفجر.

فجأة وجدت نفسي أُعطي للأشياء تفسيراً جديـداً، فلأن أبي كـان يحسّ بنهايته فقد تخاصم مع الضـوء ولأنه أحسّ بنهايته قد أضحت وشيكة، كره الأصوات حتى ((تكتكة)) الساعة.

تركني بعد أن أورثني عناده، لأظل في عـالم النهـار والليـل، ولأظل بين البشر أسـمع أصـواتهم، وتلك الكلاب الـتي يصـلني نباحها من مبنى إمارة قاسم المدهون.

وللحقيقة أضـيف أنه لم يورثـني عنـاده فقـط، لكنه أورثـني هدوءه، كما تركت أمي في دمّي انفعاليتها، وبين الهـدوء والعنـاد والانفعالية كانت -وما زالت- تنوس حياتي. إنها كبنـدول السـاعة الحائطية التي يهتزُّ بين اليمين واليسار.

بين مـوت أبي وذكـرى حياتـه، تتفتح الـذاكرة وتسـتيقظ في سـاعات الضـيق والضـجر. لم أسـأله يومـاً رأيه في ((منـيرة))، لأنـني أحفظ عن ظهر قلب رأيه في أبيهـا؛ أبي المـداح الأشـرم، ذلك الرجل الذي "باع دينه بدنياه" كما كان يقـول وإذْ سـألته عن قاسم المـدهون وكيف صـار أمـيراً لاذ بالصـمت –على عادتـه- وحمل سيكارته، وراح ينظر إلى نهايتها حتى تطاول الرماد شـيئاً فشيئاً.

سألته ثانية: لم تجبني؟

قال: انظر فما الذي تتركه النار؟

وإذ نفض رماد سيكارته في المنفضة..

قلت: رماداً
وبعد أن هزّ رأسه. قال:
-وربما وافق الرماد شرارة تحرق على غير هدى.
سألته هامساً:
-وكيف يمكنك تفادي الشرارة؟
قال، وهو يتنهد:
-للشرّ أوغاده في كلّ زمن.. يا بني!
مات أبي فجأةً مع الفجر. تعطّل كل شيء في جسده، ربما باستثناء ابتسامته التي كانت ترافقه في ساعات الكدر والفرح. تأملتها، وهو مسجَّى على فراش الموت رأيتها كما كانت.. لكن ذاكرتي أضافت لها عنصر السخرية، فهل كانت سخرية من حياة تنتهي إلى رماد؟
كل شيء تعطّل في جسده.ـ لكن بندول الساعة الحائطية ما زال يهتزّ؛ وأظن أنه لا يتوقف لأنه لا يملك مثل تلك الروح التي يملكها البشر.
برغبة موشومة بدوائر الأسئلة التي ترافقني اندفع إلى ظاهر القرية. ابتسم ألماً لغُصينات الأشجار التي ذبلت واصفرّت. أتابع طريقي لأجلس مستنداً إلى حائط أحد البساتين. وأتابع الأغنام وهي تبحث في الأرض عن عشب أخضر فلا تجد غير الأشواك.
أتساءل: ما الفرق بين الناس في المنخورة وقطيع الأغنام الذي يبحث عن العشب فلا يجد غير الأشواك؟
أتلفّت إلى المنخورة عبر المقبرة. أحسّ جفافاً في حلقي. ابتلع غصّتي وأحاول أن أنتشل روحي من وهاد الحزن وقاع الأنين.ـ لكن الراعي، زاد في حزني حزناً، وفي أذنيَّ طنيناً عندما راح يعزف بالناي ألحاناً شجية. صرت أتخيل أصابعه وهي تتنقل بين ثقوب الناي فكأنها لا تلامس مسام الجلد، بل إنها تضغط على منافذ الروح. أحسّ اختناقاً في وحدتي، لكن دموعي لم تطاوعني، ظلت مستعصية في الأغوار البعيدة للنفس.
أين أنت يا منيرة؟
وأين أنت يا أبي؟
بعيداً عني كان أبي، غيّبه التراب إلى الأبد.. ومنيرة يحاول أبوها، أبو المداح، أن يغيّبها عني.. يا أبا المداح سأجد طريقي إلى منيرة فهي وطني الذي لن أتخلى عنه، في ذلك الموقف الصعب، موقف الاختيار بين أن أكون تابعاً ذليلاً، وبين أن أعلن رفضي، لم أجد أحداً يقف إلى جانبي إلاّ منيرة؛ وحدها التي شجعتني على أن ارتفع عالياً فوق عالم المقبرة والأموات. بعيداً عن أولئك الذين يوالون من يدفع ويسحقون الفقراء أمثالي ممن لا صوت لهم؛ إلاّ أن يكونوا شهوداً على التاريخ، أو مَنْ يريدون أن يثبتوا دورهم التاريخي؟ ماذا أقول؟

لقد ذهب الوهم بي بعيداً، طار بي إلى عـالم الحقيقـة. نحن، في عالم كلّ ما فيه زيف وخـداع.. فـأيّ دور تـاريخي هـذا الـذي أعتقد أنه سـيكون لي. ما دام قاسم المـدهون أضـحى أمـيراً؟.. ومن هذا الذي سيسمع شهادتي؟

تباً لك أيها الناي الذي توغّلت في أعماقي...

لم تُثر في داخلي إلا أشجاني. ها أنت تصل بي إلى مشارف اليــأس والقنــوط. كــان أحد أســاتذة التــاريخ يلحّ في أغلب محاضـــراته على أن نتعمّق في دراسة الماضي للوصـــول إلى ((مستقبل أكثر حضارة وأكثر إنسانية)).

كــان يبتسم وهو يســتعرض لنا تــاريخ الحضــارة الفارســية وحضــارة ما بين النهــرين وإن ((شــمس العــرب)).. هي الــتي أوصلت أوروبا إلى ما وصلت إليه:

كنعانيون، وفينيقيون ثم آراميون..

روما، وبيزنطة، غساسنة، ومناذرة.

الاسكندر المقدوني، وجنكيز خان.. جـاهليون.. وإسـلاميون، الأمويون والعباسيون، خوارج وقرامطة..

الدولة العثمانية والمسألة الشرقية.. وثورات العرب..

لورانس ((العرب)) كان جاسوساً، باحثـاً عن النفـط، زارعـاً التفرقة بين العرب..

الثورة الفرنسية، والثورة الاشتراكية..))

ونحن يا أســـــتاذي؟.. أين نحن؟.. أســـــألك مـــــاذا عن "البيروسترويكا؟.

-"علينا أن نقــرأ التــاريخ، نهضــمه، نســتقرئه.. نبتعد عن مؤامراته وفتنه؛ نبتعد عن اضطهاد الإنسان للإنسان، حـتى نعـود إلى مسـيرتنا المشــرقة بين الأمم، ولكي نعــود فنأخذ دورنا بين الأمم".

دعك من محاضـراتك يا أسـتاذ التـاريخ، أنت واحد من الـذين يريـدون أن يكـون دورهم في الحيـاة دورين؛ دور للظـاهر ودور للباطن. في قاعة المحاضرة تقول لنا شـيئاً، ولكنك عنـدما تخلو في غرفتك فإنك تقول شيئاً آخر.

دعك من ابتسامتك التي تذكرني بابتسامة خطيب المبطـون إمام جامع المنخورة. ابتسـامة واحـدة لا أجد شـبهاً دقيقـاً لها إلا تلك الأعضاء التناسلية للأبقـار.. الفم مفتـوح، والشـفة السـفلى متدلية باسـترخاء.. فعلامَ تبتسـمان، يا أسـتاذ التـاريخ ويا خطيبا المبطون؟

((لنستفد من عبر الماضي)).. هكذا كنت تقول لنا يا أستاذ و ((أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم)).. هكذا يقول خطيب المبطون على منبر الجامع، ولا يملّ من ترديدها.

على الرغم من كل شيء –يا أستاذي– فأنت الـذي اعـترفت أن كثيراً من أخبـار الماضي كـانت أخبـاراً مزيّفة لخدمة الحكـام والـــولاة والأمـــراء؛ فكيف لي أن أميّز الحقيقة من الزيف في

عالمنا الماضـــــــي؟.. كيف لي أن أميّز الحقيقة من الزيف في عالمنا الحاضر، في عصر المنخورة وقاسم المدهون؟ كيف أميّز الأمراء من الدهاقين؟

اختلطت الألوان.. فصار الأبيض أسود وصار الأسود أبيض.

اختلطت الروائح... فصار العطر نتناً وصارت النتانة عطراً.

-"لنستفد من عبر الماضي" كيف يا أستاذ التاريخ؟

أسأل نفسي قبل أن أسألك: "لو جئت إلى المنخـورة فكيف باســتطاعتك أن تميّز بين الأمين والمــأمون؟.. كيف تمــيز بين الذئب والحَمَل؟.. كيف تميز بين الكذب والصدق؟".

برغبــةٍ جارفة أريد أن أفهم، أريد أن أعــرف.. فالمعرفة هي أولى أدوات العقل والتاريخ والرجاء... فأيُّ عقل وأي تاريخ، وأي رجاء.. هذا الذي نبحث عنه؟

آه.. لو أن الراعي يكـفُّ عن ألحانـه. فتح في روحي بوابـات للحـــــزن فكيف يمكن أن ألغيها –أو على الأقـــــل- كيف لي أن أتناساها لعلي أحسُّ بـوهم السـعادة؟.. أجـل.. إنـني مصـرٌّ على وهم الســعادة، فكيف ســأكون ســعيداً، وهــذا القحط قد عاهد المنخورة منذ خمس سنوات، كيف سـأكون سـعيداً، والكثـير من النـاس لا يـرون إلا مبـنى إمـارة قاسم المـدهون فـوق الأرض، لكنهم لا يعرفون شيئاً عن /القبو/.. والقليلون هم الذين يعرفون أن كلابــاً، ما عرفتها المنخــورة في تاريخها تســرح وتمــرح في النهـار، في ذلك القبـو، حـتى إذا جـاء الليـل، أطلقت في حديقة الإمارة.. فلماذا هـذه الكلاب؟ هل تتسـاءلون معي هـذا السـؤال الــذي يســبب لي الوجــع؟.. ألا يكفي هــذّال الحسن وهو من البصاصين الذين زُرعوا في المنخـورة؟.. عَمَّ تبحث عيـونهم وما هذا الذي تريد أذانهم أن تسمعه من الأصوات والهمسات؟

لم أكن أعـرف شـيئاً عن /القبـو/.. لكن علي الضـمراوي هو الذي أخبرني عنه، وهو الذي مدَّ سـبابته في وجهي ليحـذرني من عـالم قاسم المـدهون وكلابه وبصّاصـيه، لكنـني أتسـاءل: كيف عرف علي الضمراوي بحكاية القبو؟

أتـــــأرجح بين مـــــوقفين: الشك واليقين. هل يمكن لعلي الضمراوي أن يكون قد انتهى إلى جـانب قاسم المـدهون؟ إنـني أبعد هذا الشكّ، فعلي الضـمراوي هو أول من ذاق المـرارة على يديّ قاسم المدهون، فهل يمكن لـه أن ينسى ذلك؟ وكيـف؟ تبـاً لعالم الشك، لأبعد هذا التصور الـذي يتشـبث بـذهني، سأرفضـه. سأصــرخ في هــذه البريّة وأمــام الــراعي وأغنامــه: إن علي الضــمراوي لا يمكن أن يكــون في صــفّ قاسم المــدهون، هل يمكن للــذئب أن يتــاخى مع الحَمَــل؟.. الطبيعة العدوانية في الــذئب تــرفض أن تتــاخى مع الحَمَــل، بل هي تنتظر الفرصة لالتهامه..

فهل يمكن أن يكون علي الضمراوي مع قاسم المدهون؟

ابتعدي يا ذكريات الشك..

لكنني (...).. ويقطع أبي ذكرياته، أستعيد عبارته، عندما كان ذات مساء يدمج سيكارته على مهـل.. فقـال دون أن ينظر إليّ، بل كان ينظر إلى أصابعه التي تحتضن السيكارة.

((-طرائق الحيـاة شـائكة، بعض الرجـال صـلاب كصـلابة الصخر، وبعضهم ضعفاء يتفتتون كحبات الرمل.. وبعضهم الثالث ليس لـه من صلابة الرجال إلا المظهر".

هل يمكن أن يكون علي الضمراوي من هذا النوع الثـالث؟.. لماذا أتساءل ثانية وقد عاهدت نفسي أن أبعد عنه شكوكي؟

عندما قلت لـه: ((بماذا تفسر قدوم الغربـاء إلى المنخـورة؟ وبمـــاذا تفسر اختيـــارهم لقطعة كبـــيرة من الأرض في الجهة الشـــمالية من قريتنا وبنـــاء بيـــوتهم دون أن يســـكنوا في قلب المنخورة)).

لم يجبني يومها بل تركني في تساؤلاتي، حتى إذا سـألته عن غصّاب (شقيق قاسم المدهون):

-((لمـاذا تـرك عـالم المـزارع وصـار اليد اليمـنى لأخيه في شؤون الإمارة؟))

رفع سبابته محذّراً –على عادته- وقال:

-لا ترفع صـوتك.. ((الجـدران لها آذان)).. إنك تلعب بالنـار، أنتم (المتعلمون) مصيبة.

لماذا تهرّب علي الضمراوي من تساؤلاتي، ولمـاذا حـذّرني؟ هل كان ذلك تحذيراً أم أنه كان..؟

أردت أن أقول: هل كان ذلك (وعيداً)؟.. لكنني توقفت لأنني أتحـدث إلى علي الضـمراوي ولا أتحـدث لأبي المـداح أو خطيب المبطـون أو هـذّال الحسن فهـؤلاء لا يمكن أن يخطر ببـالي أن أتحـــدث إليهم بهـــذا الشـــكل وهم في فلك قاسم المـــدهون يسبحون، وعلى أعتابه يتمرّغون.

ابتعدي يا دوائر الشك..

سقط كثيرون في عالم زيّنه قاسم المدهون لهم...

هـذّال الحسن أضـحى رئيسـاً للبصاصـين في المنخـورة.. ليكن.

اللصوص الذين عاثوا فساداً في المنخورة، ونشروا الخـوف والهلع بين أهلها والذين أقسم قاسم المدهون بـأعلى صـوته في ساحة المهابيل أنه سيحيلهم إلى العدالة، صاروا حرّاسـاً للإمـارة فاضحت اللعبة مكشوفة..

غصّاب المدهون ترك عالم المزارع وصار اليد اليمنى لأخيه، ثم أعلن خطيب المبطـون من فـوق منـبر جـامع عمر بن عبد العزيز بأن ((قاسم المدهون، وبمشيئة الله وعونه، أصـدر قـراراً أميرياً بتولية غصّـاب المـدهون الشـؤون الداخلية للمنخـورة..)) ليكن ذلك..

ولكن، لماذا تميّزت البيوت التي أُقيمت في الجهة الشـمالية عن بقية البيوت في المنخـورة؟.. سُـمح لسـاكنيها بـالتجول ولم يسمح لأهل المنخورة بالتجول في حيهم ليلاً؟

أبو نادر الموشوم. افتتح محلاً على قارعة الطريق لبيع الخمر, وراح يعمل في محله ثلاثة من أبناء الحي الشمالي. وإذ بصق يوما ابن عيسى, وهو يمرُّ من أمام المحل على الأرض, فان أبا نادر صفعه على خديه, حتى إذا سقط ركله بقدمه. لم يتقدم أحد لنجدته. ليكن.. ليكن ذلك فان للغرور والمال أنيابا وأظافر.

أكاد أضحك ألماً وربما سخرية, فأنا لم استطع أن أتبيّن الحالة التي صرت إليها عندما سمعت خطيباً المبطون يرسم شجرة وارفة الظلال لعائلة قاسم المدهون حيث انتهت به إلى (سيف الدولة الحمداني)).ـ كيف لي أن أصدق ذلك؟

اختلطت الألوان فصار الأسود أبيض وصار الأبيض أسود.

اختلطت الروائح فصار العطر نتناً, وصار النتانة عطراً.

كتب التاريخ في مكتبتي تخفض عينيها خجلاً, وأبو المداح الأشرم وخطيب المبطون و هذّال الحسن, يصرخون بمجد قاسم المدهون ولا يخجلون, فكيف لي ان أصدق بعد أن اختلط الزور والبهتان بالواقع والحقيقة؟

يا إلهي.. يكاد رأسي يتفجر. لماذا أفكر بكل هذه الجزئيات؟ هل باستطاعتي وحيداً أن أقنع الناس في المنخورة أن النار قادمة؟

سيظنون فيَّ الظنون, فهم لن يصدقوني. لن يصدقوني حتى يروا النار.

لماذا أفكر بكل هذه الجزئيات, وأنا لا أملك مالاً أستطيع به شراء بعض الكتب التي أنا بحاجة إليها. كيف لي –إذن –أن اشتري صوتاً يكون معي؟ مادمت وحيداً إلا في حواري مع الذات وتأمل الأغنام, والابتعاد مع النشيد الحزين لناي الراعي؟

لولا منيرة لما استطعت أن أقدم لاولئك الذين قرأوا بعض آيات القرآن لثلاثة أيام بعد موت أبي شيئاً من المال. فكيف لي أن أضم إلى صوتي صوتاً آخر, وأنا افتقد المال؟ صارت كل الأشياء رهناً بالمساومة , بالبيع والشراء.. شريعة المنخورة, شريعة من يملك المال.. فهو الأقوى, هو الذي يقرر, هو الذي يبني إمارة, وهو الذي يلوي عنق التاريخ و.. والحاضر ليكون معه.. فكيف لي ان أفسر ما يجري في المنخورة؟

يا علي الضمراوي هل باستطاعتك أن تشرح لي شيئاً؟ هل باستطاعتك أن تجيب على تلك الأسئلة التي تتزاحم في روحي ورأسي وتعكر خلايا الدم في أعماقي؟..لو أن نايف العباس, الذي قتل عند آبار قاسم المدهون في أحوال غامضة كان حياً, فهل باستطاعته أن يجيب على أسئلتي؟

منيرة, للمرة الألف أقول لك, أنت واحتي الخضراء وشجرتي الباسقة, التي أجد الفيء تحت أغصانها.أسألك للمرة الألف: كيف تفسرين ما يجري؟

كيف تقولين ببسمة فيها من الألم أكثر مما فيها من الغضب ((لا تقطع الأمل في المستقبل)) يا منيرة...قطعوا الحبل بين الماضي والحاضر. صرنا إلى أرض مهجورة وقحط مخيف, صرنا عراة إلا من عالم قاسم المدهون,كيف يمشي كيف يتحرك, كيف ينام, لمن يتحدث, متى ابتسم؟ حتى لقد صوروا ((قضاء حاجته))بصور شتى فيها من عنصر الغرابة أكثر مما فيها من عنصر الضحك.

لست واهماً فيما أذهب إليه.. إنما الأمور التي تفرض نفسها على المرء حتى إذا تأملها وجيداً ليظن ان التوهم هو الذي يحملها على أجنحة ترتفع عالياً في الفضاء فلا تتمكن العيون بعد لحظات من متابعتها ومن ثم إلى تصديقها.

يا منيرة.. أنت أنثى.. فلا تذهبن الظنون بك بعيداً إذا قلت لك أرى وحشاً مفترساً يتقدم على سهل ليبتلع كل شيء, سيحاول أن يبتلع كل شيء, سيحاول أن يبتلع رحيق الروح في كل منا. أراه من مسافة بعيدة يتقدم. فماذا أعمل وإياك؟ وحش يتلذذ بعذابنا وآلامنا. يضحك في العلانية قليلاً, وفي سره كثيراً, فماذا أعمل أنا وأنت وسط هذه الروائح وصقيع الليل الذي طال كأن لا نهاية له.

ما كنت انتهيت من تلك الكلمات, حتى لفتني زوبعة من غبار. حاولت أن أحمي عيني وأذني بيدي.. لكنني, بغتةً وجدت نفسي مع أبي, وقطرات العرق تتكاثرعلى جبينه وفوق صدره. كانت رائحة الفحم تملأ جو المحل, وعندما أصابت عيني اليسرى شرارة تطايرت بتأثير الكير الذي كان ينفخ فيه على الفحم, صرخت, دون أن أشعر, فنظر إليَّ بطرف عينيه وقال:

-تعلّم أن لا تصرخ، الصراخ للنساء.

نظرت, والدمع يهطل من عيني الى المنجل الدي بيده, والذي اضحت شفرته حادة لامعة.. وعندما رفعه باتجاه الباب وقلّبه بين يديه تحت أشعة الشمس, ضغط على فكيه. كنت أعرف أن أبي في أثناء العمل, عندما يضغط على فكيه, فإن ذلك يعني أنه أنجز عمله مطمئناً.. وعندما ابتعد عن النار أخذ علبة تبغه المعدنية, ثم نظر إلي وقال, وهو يتابع, دمج سيكارته:

-اضغط على فتحة أنفك اليمنى وتمخط بقوة, بعد ذلك لن تحس بالألم.

تملكني خوف مبهم, والسؤال يتلجلج في أعماقي: "فما علاقة الأنف بالعين؟

مئة مرة يصل السؤال الى طرفي شفتي ولكنه يعود ليغرق في أعماقي.

كان عليَّ أن أعمل بما قال. خرجت إلى الباب وضغطت على فتحة أنفي اليمنى وتمخطت بقوة. أحسست أن شيئاً

تحرك بسرعة في فتحة أنفي اليسرى, لكن الدمع استمر يتساقط من عيني طيلة ذاك المساء.

عندما أغمضت عيني في تلك الليلة, كان بي شوق لأتحدث لأبي عن معاناة الإنسان, وذلك الفلاح الذي سيعود بمنجله فخوراً ليحصد سنابله سعيداً منذ الفجر.. لكن أبي ينام بعد صلاة العشاء، نظرت إليه وقد تمدد على فراشه وإلى جانبه علبة تبغه المعدنية. أحسست بعالم المنخورة غيمة لا تحتوي على المطر فقط, ولكنها تحمل في أحشائها ريحاً وصواعق , تلفّنا الريح, نرتعد ونحن نسمع الصواعق, ما هو هذا الشيء الذى في داخلنا الذي يجعلنا نرتعد؟ هل الجسد الذي يرتعد أم أن الروح هي التي ترتعد؟ بعد أن أطفأ أبي سيكارته وضع يديه فوق صدره شابكاً أصابعه, وراحت شفتاه تتمتمان بشيء ما. كنت أراقبه حتى سمعت أنفاسه وقد غدت منتظمةً لكن السؤال –منذ ذلك الحين – لم يفارقني أبداً, حتى وصلت الى إجابة أبدو ومقتنعاً بها حتى الآن, وسأظل مقتنعاً بها بقية حياتي, فالجسد وحده الذي يرتعد.. أما الروح فهي الغيمة التي تحمل الريح, وفيها الصواعق, وإذا كانت حياة الإنسان تنتهي مع نهاية الروح, فإنَّ هذا يعني أنَّ خلاص الانسان ووجوده ليسا موجودين في السماء لكنهما موجودان فوق هذه الأرض.

هل غابت تلك الأيام, أم أن ناي الراعي أعادها حيّةً, كأنها لم تغب عن ذاكرتي لحظة واحدة؟

انتهت زوبعة الغبار ومات أبي.. لكنه بين حين وأخر, وبشكل متقطع, كان هناك صوت يأتي تارةً كالرعد, ويأتي تارةً كالومض, وفي الحالتين ينبعث من الأعماق, فيهيب بي:

-لاترتعد.. لا تخشى شيئاً ما دمت على حق.

لابد –يامنيرة!- من أنك تذكرين تلك الليلة القصيرة كلمح البصر, والطويلة كموجات الألم. لم نكن شخصين في غرفة واحدة, كنا شابّاً وصبية , كنا عَالماً, وعَالماً آخر لكنهما العالمان المتطابقان. لم نكن في ليلتنا تلك نبني عالماً من الأوهام, كنا نبني عالماً من أحلام .. لكننا وضعنا أيدينا فوق بعضها وأقسمنا أن يكون الحلم واقعاً. على أشعة ضوء قنديل الكيروسين, رسمنا بيتاً وأشجاراً وأطفالاً, مشينا في أيام الشتاء والصيف والربيع والخريف وعندما صعدنا إلى الجبل لنطل على المنخورة, قلتِ لي:

-ما أبشع الصمت.

في ذلك الحين نظرت إلى عينيك أسألك ماذا تقصدين؟ ولكنك طلبت إلي أن أتابع طيور اللقالق في السماء.

بعد سنوات يا منيرة استوعبت تماماً ماذا يعني أن يكون الصمت بشعاً. ليس صمت الفم بشعاً لكن صمت الروح هو البشع، هذا التيار المزدوج من الدم, الذي يجري في عروقي, لا يهدأ لحظة واحدة, دم أبي الهادئ والعنيد, ودم أمي الانفعالي التي تريد كل شيء طوع بنانها. دم أبي منحني التأمل والتوقع

وأن لا أفقد الصبر، ودم أمي كان يحثني دائماً لأُغيّر ما يحيط بي من أشياء, لكنني لم أكن انتظر من العالم ليكون طوع بناني.

أتوق الى عالم خال من الظلم والقتل والغبن والكذب والادعاء , ولهذا فإنني أتساءل, وأنا في هذه البرية: كيف يمكن للمنخورة أن تقطع أنشوطة القتل وحبل الظلم؟ كيف يمكن لهؤلاء البشر أن يخجلوا من الكذب والادعاء؟ هل يكفُّ البشر عن عجزهم بالقتل والظلم ويقتلون المظلوم باسم العدل؟

لم أر أبي مرة واحدة ضاحكاً. كنت أكره تصرفه هذا, وأتحيّن أول فرصة لأهرب من جلسته, لكنني الآن, بعد موته.. صرت أحبه, لم يعد يفارقني في أحلامي. استعيد تفاصيل سهرةٍ جمعته مع جارنا أبي قاسم الذي كان يضحك

من أعماقه حتى تدمع عيناه, وأذكر أنه سأله:

-يا أبا غالب لم لا تضحك؟

أجاب أبي, وهو يربت على ركبة جارنا, قائلاً:

-لِمَ الغراب أسود يا أبا قاسم؟!

فما معنى أن يضحك المرء, إذا لم يكن تراب المنخورة مبتهجاً؟..

ما معنى أن يبتسم المرء وهو يدرك أن كل ما حوله يدور في حلقة الظلم والنفاق؟.

منـيرة

"مات شقيقي البِكر في عامةالثاني ,ثم جئت أنا وتلتني خديجة وتوقفت أمي عن الولادة بعد أن اجهضت مرتين خلال سبع سنوات, حتى شاء القدرفولدت أخي (مدّاح).

ولدت على يدي أم جهاد البدوي, و لهذا فقد بكيت كثيراً على قبر أبي حسين القحطاني. لا أدري لم رافقني إحساس منذ تلك اللحظة أنني سوف أموت أنا الأخرى في نفس الشهر الذي مات فيه أبي. عندما ولدت –كما تقول أمي _ لم أصرخ كبقية الأطفال. بقيت أكثر من ساعتين دون أن يصدر عني صوت.ظنّت أم جهاد أنني ميتة لامحالة، لكنها سمعت صوتي بعد أن انتهت من غسلي بالماء الفاتر والملح، ابتسمت. أبي ظل متجهماً، عابس الوجه لعدة أيام. قال إن قدومي إلى الحياة كان نذير شؤم, ففي اليوم الثاني لولادتي, تربص به شابان بعد خروجه من سهرته وانهالوا عليه ضرباً حتى نزفت دماؤه, وظل طريح الفراش أكثرمن عشرين يوماً (قال مرة إنهم خمسة رجال, ومرة أخرى قال سبعة رجال؟).

حاولت أن أبحث عن سبب تلك الحادثة، لكنّي لم أعثر على إجابة مقنعة، حتى أن أمي تهرّبت طويلاً من أسئلتي حول ذلك الموضوع، ذات مرة قالت:

"- يامنيرة! اتركي الموضوع جانباً. الطبع تحت الروح، الفتنة وكثرة الكلام تسريان في دم أبيك".

حاولت بيني وبين نفسي أن اعتبر كلمات أمي كلمات باطلة, فلا بدّ من أن أمي تأثرت بكلام البشر وللبشر ألسنة طويلة تنال أبي بالسوء كما تنال غيره.

أفضل ميزة للانسان هي النسيان. فمن الذي وهبه هذه القدرة هل هو الله, أم أن الأيام ترغمه على ذلك؟ لماذا أتساءل وأنا أحاول أن أنسى كلمات أمي في وصف أبي حيث, ((الفتنة وكثرة الكلام تسريان في دمه))؟.. منذ أن تفتّحت عيناي على الحياة, عرفت أبي لا ينقطع عن الصلاة وكان شهر رمضان مقدساً لديه, حتى أنه أرغمني على الصيام وأنا في السابعة من عمري, لكنني أذكر مساءً لا أستطيع أن أنساه أبداً وقد أعطاني خمس ليرات وطلب إلي أن أُحْضِرَ من جارتنا أم قاسم لبناً, لكنني وأنا أركضت مهرولة فقدت الخمس ليرات. بحثت عنها في الشارع الترابي وبين الأحجار.ساعدني بعض الأطفال في ذلك, حتى إذا فقدت الأمل عدت لأخبره بما جرى ولكنه –وعلى غير ما أتوقع –انهال عليّ صفعاً حتى أمي لم تسلم من صفعتين, لأنها

حاولت أن تتدخل في إنقاذي, وما زال صوته الغاضب يدوي في أذني, وهو يوجه الكلام إلى أمي:

((-يا امرأة.. المال يساوي الروح, أتفهمين؟))

وحتى الآن, بعد سنوات على تلك الحادثة, فإنّ السؤال الذي يقلقني هو: كيف لي أن أفهم أن المال يساوي الروح؟ لقد خلق الإنسان ليحزن, ليفرح, ليضحك. وفهمت بقناعة –لن اتزحزح عنها – أن المال وسيلة. فكيف يمكن للمال ان يساوي الروح حاولت ان أبرر لأبي تصرفه فلا بدّ لمن كان في مثل سنه وتجربته ان يكون لـه نظرة إلى الحياة غير النظرة التي أرى فيها الحياة, لابدّ وإنه كان غاضباً من أمي, أو أحد معارفه أو جيرانه فجاء فقداني للخمس ليرات متنفساً لـه. في ذلك المساء لم أستطع النوم. حتى تقدمت منه وقبلته علىخده.ـ فقال لي ناهراً متوعداً:

((-في المرة القادمة سأقطع أصابعك إن فقدت قرشاً واحداً.. ابتعدي! كيف يمكن لنا ان نصيربشراً إن بقينا في هذا الفقر؟)) أمور كثيرة أحببتها في أبي.ـ وإن كانت ذكرى تلك الحادثة تسبب لي الوجع والحزن, لماذا أتذكر, إذ طالما أن الانسان لا يعرف متى يغضب ومتى يحزن, ومتى يفرح؟ لماذا أتذكر ذلك ولا أتذكر جلسات أبي في أغلب الأمسيات حيث كان يحكي لنا عن ((الجنة والنار)).. التي وعد الله بها عباده الصالحين ؟ كان يؤكد لنا أن الدنيا هي دار الفناء وان الآخرة هي دار البقاء الأزلية, الدنيا هي رحلة صغيرة في حياة الإنسان, مهما امتد به العمر.. فلا بدّ لـه من أن ينتهي من هذه الرحلة. كنت أعشق تشبيهه لحياة الإنسان بأنها عبارة عن جلسة قصيرة تحت شجرة، ثم لابدّ لـه من الاستعداد للرحلة الثانية, الرحلة الطويلة.. حيث سيحمل كل إنسان كتاب حسناته بيده اليمنى. وكتاب سيئاته بيده اليسرى, فمن زادت حسناته علىسيئاته, فان ((الجنة)) ماواه خالداً فيها.

كان يردد آيات من القرآن, لكنه كان يشدد على آية بعينها ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)), واذ سألته يوماً عن الكتاب الذي سيحمله الانسان بيمينه في الآخرة. قال:" الأعمال الصالحة والقرآن"، وبعد صمت قصير، قال: إن قراءة كل حرف من القرآن تعني الفوز بعشرة حسنات في الآخرة. منذ ذلك اليوم. وكنت في الثامنة من عمري, على ما أظن, قرر أن أذهب الى الشيخ عثمان, والد خطيب المبطون, لتعلّم القرآن.

***

الشيخ عثمان المبطون.ـ

أتذكره بصورة نابضة بالحياة: وجهه المستدير بخدّيه الممتلئين, عيناه المتألقتان بالبسمة الدائمة. فمه الصغير بشفتيه الحمراوين, ذقنه الكثة والبيضاء, شارباه الخفيفان.

أتذكر كل شيء فيه, عصاه التي كان يتوكأ عليها, وتلك القصبة التي لم تفارقه طيلة الفترة التي قضيتها لأتعلّم القرآن.

بدأنا بقصار الصور من القرآن ((الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم –قل هو الله أحد_ ألم نشرح لك صدرك _ إنّا اعطيناك الكوثر..))

كان –رحمه الله – يقرأ فنسمع.. وفي المرة الثانية يقرأ آية..

فنردد وراءه بصوت رخيم. نحفظ الصورة عن ظهر قلب. ثم يطلب إلينا واحداً واحداً أن نُحضِرَ مصاحفنا لنجلس الى جانبه, وبعد أن نقبل القرآن ثلاث مرات ونضعه على جباهنا, يفتح القرآن على السورة التي حفظناها, وبالقصبة يشير الى الكلمات فنرددها. يكفي أن يقول:

((الحمد لله رب العالمين)) لنكمل السورة.

كان أسرعنا في الحفظ غالب الوالبي. وكم من مرة تمنى الشيخ عثمان المبطون لو كنا جميعا مثله. كم من مرة ربت على كتفيه وقال له:

-ليفتح الله لك أبواب الحياة.. يا بني!

أمور كثيرة تسكنني منذ تلك الايام, لكنني إن نسيت شيئاً منها, فإنني لن أنسى ضحى ذلك اليوم الذي سأل فيه غالب الوالبي الشيخَ عثمان, بعد أن شرح لـه معنى الأية: ((ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)), فقال له: يا شيخي..

من الذي خلق الانسان؟ فأجاب الشيخ عثمان بهدوئه المعتاد: علمتكم ذلك أكثر من مرة يا غالب (.. إنه الله عز وجل.. خلقه من نطفة ثم صار علقة ثم..)).. فقاطعه غالب الوالبي: أعرف ذلك يا شيخي!..

لن أنسى كيف صرخ الشيخ عثمان غاضباً, وقال:

-الله هو الذي خلق الانسان وكل الكائنات الاخرى ما من دابة على الأرض إلا وعلى الله رزقها.

سأل غالب الوالبي: يا شيخي أنت الذي قلت لنا إن الله هو الذي خلق للانسان كذلك عقلاً ليفكر, فكيف يمكنني إن أفهم؟

لم يتكلم الشيخ عثمان المبطون. رأيت رجفة على شفتيه, ثم نهض على عصاه متوكئاً, ورفع غالباً الوالبي من ياقة ثوبه وقاده الى الصف الأمامي, وأمر اثنين من زملائه ليرفعا رجليه الى الأعلى وآخر ليمسك به من كتفية, ثم أحضر قضيب الرمان وانهال ضرباً على قدميه, وهو يقول:

((لعن الله تلك الأيام التي ضيّعتها عليك..))!

وخرج غالب الوالبي منذ ضحى ذلك اليوم ولم يعد الى حلقتنا.

كنت أحسنُّ بقضيب الرمان ينهال على قدميّ وكنت أغمض عينيّ ألماً حتى أنني بكيت وأنا أسمع صراخ غالب الوالبي.

أمور كثيرة أحفظ تفصيلاتها, لكن شيئاً وحيدا لا يمكن أن أنساه فمنذ ذلك الضحى كرهت حلقة الشيخ عثمان, بل أقول الآن, بعد سنوات, أنني كرهت الشيخ عثمان: أضحت بسمته تكشيرة. وذقنه، بشعرها الناعم. صرت أراها أشواكاً. كل شيء فيه تحول الى نقيضه صرت أتمنى أن تنزلق به عصاه, التي يتوكأ عليها فيسقط أرضاً, قصبته التي كان يشير بها الى آيات القرآن, صرت أراها خصماً يجب التخلص منه, قضيب الرمان الذي ضرب به غالباً الوالبي صرت أراه أفعى.

منذ ذلك الضحى لم أعد أتقبَّل الشيخ عثمان المبطون. تحطمت تحت ناظري قداسته وطهارته, وظل سؤال يرافقني كظلي: هل قداسته وبسمته وطهارته, ما هي إلا قداسة وبسمة وطهارة مزيفة؟

حاولت في الأيام التالية, أن أُلغي هذه الأحاسيس من عالمي لعلي أنسى الدماء التي نزفت من قدمي غالب الوالبي, لكنني لم أستطيع كان الرفض أقوى. الشيخ عثمان المبطون هو الذي كان يردد علىمسامعنا ونردد وراءه: ((ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم)) و((ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)), فما الذي عمله غالب الوالبي؟

لعدة أيام منذ ذلك الضحى, كنت اقترب من النافذة في منتصف الليل, وأتطلع الى السماء, أتأمل طويلاً النجوم. وتنتابني رجفة من خوف عندما أتابع نجمة وهي تترك السماء لتنطلق مضيئة بخط مستقيم ثم تختفي. انتابني الخوف أكثر عندما سألت أبي عن تلك النجمة فقال لي: ((إنها شيطان رجيم يحاول ان يخترق السماء فتتصدى لـه الملائكة وتمنعه من دخول السماء راجعاً بخيبة أمل)).

* * *

((خرج الشيخ عثمان المبطون من نفسي منذ ذلك اليوم الذي انهال فيه ضرباً على غالب الوالبي. كنت حزينة كغصن بتر من شجرة, فلِمَ لمْ يبتسم كعادته ويجيب علىسؤاله؟ بقيت فترة تائهة, أبحث عن الدروب فلا أجدها, وان ظننت أنني وجدت درباً فإنه يصل بي الى نهاية مسدودة.

عندما مات الشيخ عثمان, مشيت وراء جنازته حزينة, أحسست أنني ربما ظلمته, وتساءلت: ربما كان على حق... حتى إن النوم راح يصفعني جزاءً, وأنا أتذكر بسمته ولحيته البيضاء الكثة. نسيت في تلك اللحظات دموع غالب الوالبي, نسيت صرخاته من قضيب الرمان وهي تنهال على باطن قدميه، ربما صرت حزينة أكثر إذ تطلعت الى جمع الرجال الذين يسيرون في المقدمة فرأيت غالباً الوالبي بينهم, رأيته حزيناً ولايملك أن يحبس دموعه, ضجَّ التساؤل في أعماقي: هل نسي قضيب الرمان؟ وهل باستطاعته أن ينسى؟ حزنه و دموعه, أخبرني بأن تلك الحادثة لم تعد بالنسبة إليه, إلاّ مجرد ذكرى. كنت غارقة في لجة هذه التساؤلات حتى رأيت قاسماً المدهون في أول صف من الرجال الذين وقفوا ليصلوا على جثمان الشيخ

عثمان المبطون. وكان السؤال الذي قفز إلى ذهني, بعد أن صار قاسم المدهون إلى ما صار إليه: هل يمكن لهذا الرجل - الذي هو زوج شقيقتي على الرغم مني – أن يحزن؟ إنه يرسم على وجهه تعابير الحزن, ولكنني على ثقة من أنه يصطنع الحزن. كيف لقاسم المدهون أن يحزن و هو الذي لم يعد يفرّق بين الحلال والحرام؟.. كيف يمكن أن يهتز لـه جفن, وهو الذي إختط الظلم طريقاً.. حتى إن الكلاب في قبوه راحت تنهش من أجساد الرجال الذين يتلفظون بكلمة لا تعجبه؟

عند القبور فقط – يا قاسم المدهون –سيأتي يوم, أصرخ فيه على مرأى من الناس, سأصرخ أمام العجائز والأطفال: كم كنت غريباً ومنبوذاً عن المنخورة. أوهامك وحدها زيّنت لك عكس ذلك. سيأتي ذلك اليوم وعندها لن ينفعك هذا الحسن وأعوانه ولا كلابك, عندها ستقعد ملوماً محسوراً فأيامك وطالت ولكنها ستكون كالفجيعة. أمام القبور وحدها سأصرخ, لأنني وصلت إلى اليأس من هؤلاء البشر الذين يتحركون فهم كالأنعام.. أو هم أضلّ سبيلا.

عند مقبرة القرية سأقف ذات ليلة لأسأل أبا ذر الغفاري عن هذا الذي يقوم به غصّاب المدهون.. فلماذا هدم الجدران الطينية للضريح وأقام بدلاً منها جدراناً من الأسمنت؟.. لماذا أقام إلى جانب الضريح داراً واسعة من عدة بيوت؟.. ولماذا خصص لنفسه غرفة مستقلة؟.. سمعت ما قاله للناس من أنّ ضريح أبا ذر الغفاري سيكون مزاراً يؤمه الناس من المنخورة وكل القرى.. وليس معقولاً أن يظل الناس تحت وهج الشمس, لا بدّ لهم من مأوى يستظلون به.. كلام مقنع.. لكنني لست مطمئنة إلى هذا الذي يجري.

ابن عيسى

على مقربة منك يا أبا ذر.. أجد الطمأنينة, لا أحسّ إنك تسخر مني كما يفعل الكثيرون من أهل المنخورة. كم صرخت مستنجداً بك من جنونهم, ولكنك بقيت على صمتك. أعرف أنك سمعتني ذات يوم وأنا ألعنك, لكنك لم تنهض لتضربني كما ضربني قاسم الدهون. أعرف أنني أخطأت بحقك. صمتك يعذبني أبا ذر. ضربحك يعذبني أبا ذر, فلمَ لا تنهض؟ .. لِمَ لا تقف لتقول لهم أن ابن عيسى ليس مجنوناً؟.. أسمع ما يعجبني وأتظاهر بانني لا أسمع شيئاً من الكلمات التي لا تروق لي. هل أنت غاضب مني حتى انك جئتني في نومي ولم تجالسني ؟.. ألححت عليك, لكنك ظللت على رفضك فلم تجالسني بساطي العتيق. جلست على مقربة من باب غرفتي. لم أعرفك في البدو، ظننت إنك تضايقت من رائحة البخور والحناء التي تعبق في أرجاء غرفتي المتسخة جدرانها من آثار نارالحطب وروث البهائم التي أشعلها شتاءً لأتدفأ بها. لكنك قطعت ظنوني عندما قلت: "أنا أبو ذر..يا ابن عيسى.. وأنا أحب هذه الرائحة.." نهضت سريعاً لأقبّلك لكنك اختفيت. بحثت عنك في أرجاء غرفتي لكنك تواريت, لم أعثر لك على أثر حتى في شقوق الجدران.أين ذهبت يا أبا ذر؟.. سألحق بك إلى ضريحك, فأنت وحدك ملاذي ونجواي. أنت وحدك صديقي, الذي أبوح له بما يكنه صدري من أسرار أنت الشجرة وأنا الغصن. أحياناً أبوح بأسرارى لبعض الناس, أقول لهم إنني إنسان يرتفع الى السماء. يرى الناس ولا يرونه, يسمع الناس ولا يسمعونه. يقهقهون سخرية. اسمع بعضهم يقول:"وما لذة العيش إلاّ للمجانين." أضحك بدوري من أعماقي, أتألم لانهم لا يعرفون الحقيقة, لا يعرفون انني عاقل في ثوب مجنون وهم مجانين في ثياب العقلاء.

غريب أمر الناس في المنخورة يا أبا ذر..كم أنذرتهم, ولكنهم لم يسمعوا.كم حذرتهم, ولكنهم وضعوا في آذانهم أحجاراً. كم حاولت أن أفتح عيونهم, ولكنهم ظلوا راضين بعماهم.يضربون في الأرض خبط عشواء ويضحكون. يدب دود الفساد و الحسد في أجسادهم, فيتظاهرون بالعافية. وجوههم بيضاء أو سمراء, ولكنهم في دواخلهم لايملكون الا قلوباً سوداء.

أتساءل حتىالوجع: كيف صدّقوا أن "نايف الحباس" قتل في البئر بعد أن انزلقت قدمه بسبب حجرة؟... كيف صدّقوا ذلك وقالوا إن تلك ميتته وأن الموت حق, وهم يعرفون أن (قاسم

المدهون) كان وراء قتله؟ هل وصلت الأمور بالناس إلى هذا الدِرْك؟ هل صار الصمت فضيلة والجهر بكلمة الحق رذيلة؟ لست مجنونا يا أبا ذر, وانت تعرف ذلك.. انما, ولأكن صريحاً معك مرة واحدة, لم يعد بيني وبين الجنون إلا شعرة. لا أدرى متى ستنقطع. إنما ادعو الله ان تظل. أريد أن أبقى نجماً في الفضاء ويرتفع فوق بيوت المنخورة لأسمع همسات الناس, وما يدور على ألسنتهم من مؤامرات.

ساعدني يا رب!

أغثني يا أبا ذر لأجهر بالحق, فما نفع الانسان ان تحول الى شيطان أخرس؟ أنت جذوري التي أنتهي إليها ولن أتنكر لها.

سألني خطيب المبطون وأنا أعرف أنه كان ساخراً – على عادته مني – قبل صلاة العصر ذات يوم, أخذ مني قضيب الرمان الذى نبش به التراب وسألني:

-كيف ترى الحياة يا ابن عيسى؟!

سألته دون ان أنظر الى وجهه:

-يا إمام الجامع, لماذا تقف الفرس الأصلية متوجسّة في الصحراء ليلاً فلا تتقدم خطوة واحدة؟

قال, وهو يربت على كتفي كأنني طفل:

-دعنا من "شطحاتك" يا بن عيسى.. وأجب على سؤالي.

قلت بعد أن أزاح يده عن كتفي:

-تقف الفرس لانها تحس بالخطر, تشمّ الخطر قبل وقوعه يا إمام!

قاطعني وهو يقول لمن حوله: "خذوا الحكمة من فم ابن عيسى".. ضحك بعد أن قال ذلك, وضحك معه بعضهم, احسست بدمائي تغلي, فهم بعد قليل سيصلون, سيركعون ويسجدون سيكون امامهم خطيب المبطون,ـ دمائي تغلي يا أبا ذر.. أنت الذي تعلمت منه أن أقول الحق, هل أقول لـه أنني أعرف نواياه تجاه قاسم المدهون. هل أصرخ في وجهه لأقول إنه صار كلباً لقاسم المدهون لقاء فتات المائدة وبعض المال؟ صمتك يعذبني يا أبا ذر.. ولأنني غصن في شجرتك فأنني سأقول ما يعتمل في داخلي.

-يا إمام.. تسألني كيف أرى الحياة؟ لا بأس.. الحياة يا خطيبا المبطون.. كذبة طويلة تنبح فيها الكلاب والذئاب, كلاب في أزقة المنخورة وذئاب في جبالها.. بعضها ينبح نهاراً وبعضها ينبح ليلاً.

قاطعني خطيب البطون وهو يتوجه بحديثه الى الآخرين:

- أسمعتم يا خلق الله؟ أليس بحاجة الى المشنقة؟

أكملت:

-يا إمام.. لحظتان في حياة الإنسان هما قمة الصدق فقط, لحظة الولادة, ولحظة الموت.ـ أما ما بينهما فهو الكذب

والنباحوالصمت, والقليل من الصدق. نهض وهو يرمي بقضيب الرمان الى صدري. أعرف الآن أنه سيصعد الى مئذنة الجامع ومن ثم سيكون إماما للمصلين.

-أغثني يا أبا ذر!

فلربما اكتفى خطيب الميطون بقضيب الرمان وهو يقذفه الى صدري, لاعناً إياي في سرِّه, ولكن كيف كانت ستكون حالتي لو أنني جهرت بهذا الذي تفوهت به أمام أبي المداح الأشرم أو هذّال الحسن أو غصّاب المدهون؟

***

((سألتك يا أبا ذر.. عن هذا الذي يجري حول ضريحك؟ لماذا هدموا الجدران الطينية واستبدلوها بجدران من الاسمنت؟ لماذا وضعوا قماشاً أخضر فوق ضريحك وسيّجوك بقضبان من الحديد؟ هل يخافون ان تنهض؟ اكتفيت بأن ابتمست, هل تسخر مني أنت الآخر؟ لا أعتقد.. فأنت ملاذي, وأنت طمأنينتي, أنت الشجرة, وأنا الغصن.

جئت وحيداً –يا أبا ذر – ومت وحيداً

وأنا جئت إلى هذه الدنيا وحيداً فما عرفت أبي. مات قبل أن أميّز الأشياء. وماتت أمي قبله. تركتني كتلة من اللحم بعد أن هبطت من رحمها.

بيني وبينك مئات من السنوات. ربما يمرُّ النور من بين أصابعك ؟؟ أما أصابعي فلا يمر منها إلاّ الشقاء والحرق وتعب الأيام.

لم يقل لك أحد إنك مجنون, لكنني أسمع هذه الكلمة ترن في أذني كالطنين, ولا أفعل شيئاً. لو نطقت بكلمة احتجاج, فأنهم سينهالون عليَّ ضرباً بأيديهم وبأقدامهم.

أقسم أمام ضريحك يا أبا ذر أنني لست مجنوناً. أنت تعرف ذلك. أنت الوحيد الذي يصدقني- كم هززت رأسك لي, سمعتك في وحدتي, تشجعني على أن اتجاهل إهانات الناس. لكنني, يا أبا ذر.. لست صخرة صمّاء. أنا قبل كل شيء إنسان.

أكتفي باللقمة من أي بيت أجد نفسي فيه. اكتفي بثوب على مدار السنة. اغسله عندما يتسخ, وألبسه نظيفاً, لكن الناس –يا أبا ذر –غير الناس, والدنيا غير الدنيا. الافواه غير الأفواه والعيون غير العيون والبطون غير البطون.

يركض المدهون بحثاً عن اللقمة الهنيئة وكأس الخمر إلى جانبه وعدة صحون من الفواكه تزيّن مائدته. أخوه غصّاب صار مثله, سمعت (الموشوم) الذي يُحضر الخمر لهما بشكل مستمر وهو يحدث نفسه, ذات يوم ((شعرة من الخنزير كسب)), عندما تلفت وراني, قال: لقد حرَّم الله أكل لحم الخنزير.. أليس كذلك يا ابن عيسى؟!

هززت رأسي موافقاً. كان يظن أبو نادر الموشوم إنني لم أفهم ما يرمي اليه.

ألم أقل لك يا أبا ذر؟ أغثني من هذا الذي أنا فيه؟ أنقذني من هذا الجحيم الذي أكتوى فيه. أمنيتي ان متُّ أن أدفن إلى جانبك. وها هو ذا غصّاب المدهون يحرمني من تحقيق أمنيتي حتى من أن أكون على مقربة من ضريحك, فهل يريد ان يقيم في المقبرة مبنى كالمبنى الذي أقامه أخوه قاسم على الهضبة؟ أيريد أن يتقاسما الإمارة على الأحياء والأموات, كما تقاسما – ذات يوم - صبّوحة الخليل؟.

آه... صبّوحة الخليل, ماذا فعلت بك الأيام يا صبّوحة؟

لا أسألك عن تلك الأوقات التي سمعت أنك كنت فيها تبيعين اللذّة لقاسم المدهون تارةً ولغصاب المدهون تارةً أخرى. لا أسألك عن ذلك فلربما كان الفقر هو السبب, وكنت بحاجة للمال.. فكان طريقك الخطيئة. ليس باستطاعتي محاسبتك, فأنا وأنت سنخضع بعد الموت للحساب, كل منا سيأتي ومعه كتابه، فأما من كان كتابه بيمينه فله الجنة ومن كان كتابه بيساره فله النار.

ليس باستطاعتي محاسبتك.

صبوحة الخليل.. ماذا فعلت بك الأيام؟

صار يطل على المنخورة من إمارته في أعلى الهضبة, أتفهمين؟

هل تركك قاسم المدهون وغصّاب لأنّهما صارا أميرين؟

كل الناس في المنخورة يقولون عنك إنك ((عاهرة)).. ولكن ماذا عن قاسم و غصّاب؟.. أنا –يا صبّوحة الخليل –لا أعرف شيئاً عن جسد المرأة: لا أعرفها إلا في أحلامي. في الصباح أنهض لأغتسل من هذا الرجس, وأبكي.. فهل كنت تضحكين وأنت تمارسين هذا العمل الشيطاني مع غصّاب وقاسم؟

لا أريد أن أسمح لظنوني أن تبتعد بي بعيداً, فبعض الظنِّ إثم..لكني أعرف إنهما تركاك كدميةٍ لعبَ بها طفل حتى ملّها.. وراح يبحث عن غيرها.

صبّوحة الخليل.. الحق أقول لك.. إن كنت دمية, فإن قاسماً المدهون ليس إلا دمية في يد الشيطان. ستأتي الريح عاتية؛ ستهب دون سابق إنذار وتبتعد به, قلت ذلك لطه الأعمى فوضع راحة يده على فمي وطلب إليَّ أن أسكت.

قال لي: يا ابن عيسى, جسدك لا يحتمل الضرب ولا أنياب الكلاب.. أبعدت يده عن فمي وقلت له: يا طه.. لو خيروني بين أن أضرب حتى الموت, أو أن أسكت عن الحق لما ترددت في إختيار الموت على أن أسكت))

يا أبا ذر. مازال القحط إنذاراً بلعنة قادمة؛ ستكون اللعنة الوحيدة والأكبر والأشد. لاتسلني عمن أنبأني بذلك. كل ما أعرفه أن قلبي لم يخني مرة واحدة. سوف تعصف اللعنة بالمنخورة إن روحي لتضجُّ قهراً وحزناً, أتذكر يوماً أنني سمعت

قاسماً المدهون يقول لصبّوحة الخليل: ((حدثتني عن القذارة)) وسمعته مرة ثانية يسألها أن تحدثه عن مجد أجداده))

في تلك الليلة لم أنم, كان القلق يهزني من أعماقي: فكيف يريد أن يسمع حديثا عن القذارة وهو الذي كانت القذارة طريقاً الى مجده؟

بإمكاني أن أبوح بأكثرمن هذا, لكن الكلمات تتزاحم فوق لساني وحنجرتي. بإمكاني أن أفهم لماذا يبدل أمير المنحورة ثيابه ثلاث مرات في اليوم , فهو يريد ان ينتهي من حالة الخواء الداخلي الذي يعاني منه بالمظهر, ولكنني لا أستطيع ان أفهم لماذا يطيل خطيب المبطون –في خطب يوم الجمعة –عباراته وكلماته بدعاء ممطوط لعل الله يطيل في عمر أمير المنخورة؟ فما معنى هذا؟ سوف تعصف اللعنة بالمنخورة يا أبا ذر!.

لا أتساءل عما سيحل بخطيب المبطون وأبي المداح الأشرم وهذا لحسن وكلاب الإمارة, إنما أتساءل عما سيحل بعلي الضمراوي.. وما هذا الذي سيقوم به غالب الوالبي؟

لكل زمان –يا أبا ذر –رجاله وأوغاده وكلابه, فلربما صعد خطيب المبطون المنبر ليشتم زمن قاسم المدهون وأخيه غصّاب ولربما فعل أبو المداح الأشرم مثل خطيب المبطون في الشوارع والأزقة, ربما سينقلبان على زمن صالا فيه وجالا وقطفا ثماره, ليكون لهما زمن آخر يصولان فيه ويجولان ويقطفان ثماره. لا أستغرب شيئاً –يا أبا ذر! –إنما أتساءل هل يستطيع هذّال الحسن أن ينقلب على زمن آل المدهون؟ قد أصدِق أن السماء ستنطبق على الارض وإن الجبال ستغدو سهولاً, لكنني لن أصدق أن هذّال الحسن باستطاعته أن ينقلب, فولا هذّال الحسن –يا أبا ذر! –لما استمر قاسم المدهون أميراً؛ واستشاط في طغيانه.. الحق أقول لك يا سيدي.. إنّ هذّال الحسن هو الصورة الأخرى لقاسم المدهون, ولكنها الصورة المعكوسة, ففي حين ان قاسماً المدهون يبتسم ويحمل في يده مسبحة من الذهب, فإنّ هذّال الحسن يكشّر وفي يده خنجر وسلاسل من حديد. قاسم المدهون يتكلم بصوت كالهمس وهذّال الحسن ينبح.

ماذا ستفعل بك الأيام ياعلي الضمراوي؟!

ماذا ستفعل الأيام القادمة بضريحك يا أبا ذر؟!

ماذا ستفعل الايام القادمة بك يا منيرة.. وأنت يا غالب الوالبي؟

أحسُّ على الرغم من وجودي في هذا الفضاء, وعلى الرغم من هذا الهواء, بأنني اختنق.. فهل تلوث الهواء بهذا العكر وهذا النباح الذي ينطلق من مبنى الإمارة؟ أقول الحق فيقولون: "مجنون". أسمع مالا يسمعون فانذرهم, عند ذلك يتنّدرون, ويضحكون ثم يقولون: "مبروك.. ابن عيسى"

أشعر بالكلمات تتكدس فوق صدري. تغدوكسلاسل من حديد. تلتف حول الصدر والكتفين. أبحث عَمّن يستوعب

كلماتي, فأصرخ بها لعل سلاسل الحديد تنزاح عن جسدي النحيل.. لكنني أجد آذان البشر قد أصيبت بالصم وقلوبهم قد تحولت الى حجارة وعيونهم ما لها من العيون الا ما يشبه العيون فهي عمياء.

ما عساي أقول وحديقة الكلمات في صدري تكاد تجف؟ لم أغضب من البشر وهم عني غرباء اذا لم يسمعوني؟ لم أغضب منهم وأخي عاشور, الذي أعيش معه في دار واحدة, انهال عليَّ ضرباً, عندما أخبرته ان زوجته (بندر) تسرق القمح والشعير وتبيعه في أثناء غيابه؟... لم أغضب من البشر, وأخي عاشور قيّدني بالحبل ورماني حتى الصباح مع البقرة, وتركني دون لقمة خبز حتى عصر اليوم الثاني؟

لن أغادر ميناء كلمات الحق, حتى لو ضربني أخي بالحبل أربعين ضربة بعد أن نقعه بالماء.

ليضرب الجسد ولتنزف الدماء, فأنا أتكلم بما أسمع, لا أعرف من هذا الذي يهمس في أذني. إن لساني وحده يردد الكلمات التي تسمعها أذناي,

لن أغادر ميناء كلمات الحق فهي ملاذي وهي قوتي, أحسُّ عندما أبوح بما أسمع, إن الارض تنفتح. أرى الأشجار ترقص وأوراقها تغني. أرى العصافير تطير هادئة البال والفراشات ترتفع وتنخفض في الفضاء وقد غدت أكثر حبوراً. أرى الأشجار والعصافير والطيور والأطفال يغنون ويطيرون. أرى أقدام الأطفال ترتفع عن الأرض فازداد إصراراً على يقيني الذي لن أحيد عنه, بالمحبة والعدل يعيش الناس, وبالكراهية والظلم يموتون. لا تموت أجسادهم, أرواحهم هي التي تموت. أراهم يمشون في الشوارع والأزقة, يضحكون, يتكلمون, لكنني لا أنظر اليهم الا كجثث نتنة, فما معني الجسد دون روح؟ ما معنى العالم دون محبة؟ ما معنى العالم دون عدالة؟.. ما معنى الحياة دون موت؟ خرج أخي في ذلك اليوم غاضباً وحبيبات العرق تتفصد من جبينه.

كان يشتمني و أنا أسمع لهاثه بين الشتيمة والشتيمة لأنني لم أبكِ.

قالت لـه بندر: لا تغضب يا عاشور فجلده جلد حمار.

كانت عيناي حينذاك تتابعان النمل الذي تجمّع على حبة شعير. أخي عاشور وزوجته بندر لا يعرفان, كما لا يعرف الناس الذين أعيش بينهم, أنني لا أبكي إلا أمام غروب الشمس وأمام الشجرة التي تتساقط أوراقها, غروب الشمس يذكرني أن الليل قادم, وتساقط أوراق الشجرة يذكرني بالعراء, ما أبشع الليل وما أقسى العراء.

أرى الناس في المنخورة يعيشون الليل, ويظنون أنهم في نهارمشمس. أراهم في حالة عُري وهم يظنون أنهم يرتدون الثياب.أرى أجسادهم دون ثياب تتغلغل عيناي الى جلودهم

المتشققة فأرى الصديد في عروقهم وهم يظنون أن الدماء تجري في تلك العروق.

عندما تأكد أخي أن زوجته قد خانته, جاء فقبل رأسي, وعندما أراد أن يقبل يدي سحبتها وأنا استغفر الله العظيم، رقَّ قلبي لحاله، وأنا أرى أخاديد القهر مرسومة على وجهه والدموع ملء عينيه, قال لي بصوت ضاعت بعض حروفه:

-سامحني.

هززت رأسي وأنا أرى زوجته القادمة تظلمني أكثر, وتتهمني بما لست فيه, كنت أراها صبية أصغر منه بعشرين عاما.

كنت أسمعها وهي تهمس لـه بأنني حاولت أن أغتصبها وأنها صدتني بعنف. هززت رأسي لأنني كنت أرى مالا يراه أخي, وأسمع مالا يسمع. لم أقل لـه كلمة واحدة من تلك الهالة التي كنت أراها واضحة قبل سنتين من زواجه للمرة الثانية, لكنني اكتفيت بأن قلت لـه, وأنا أنبش التراب بقطعة خشبية في يدي:

-يا عاشور!.. عندما يهيج البعير فلا ينفع معه الا القتل:

نهض واقفا وكنت على ثقة آنذاك, إنه لم يفهم من كلماتي شيئاً, وقال:

- أنت أخي والدم لا يصير ماءً.

حلقة مفرغة هــذا العــالم الــذي أعيش فلقد اختلط الــدم بالمــاء.حلقة جوفــاء أراهــا، فلقد امــتزجت الخيانة بالطهــارة والدنس بالنقاء. كرة نتنة يحملها قاسم المدهون بين يديه فيراها الناس في المنخورة لامعة..

لا يرونها الا من بعيد, لايرون الا زخارفها فمن يقترب من تلك الكرة ليعرف عفونتها؟

هذّال الحسن

((الناس بحاجة الى المال والشهرة واللذة.. وأنا حصلت على المال والشهرة, ولكنني أريد اللذّة النابعة صدقاً من امرأة, فهل أجدها؟.. لست بحاجة إلى البحث عن إجابة. إنني على يقين من أنني لن أجدها عند إمرأة واحدة في المنخورة. باستطاعتي أن أحصل على اللذة بطريقتي, فما أهون أن يلفق أعواني تهمة لرجل, وبعدها ستأتي زوجته صاغرة, طيّعة.

علّمني (القبو)) كثيراً من الأشياء. علّمني أن أستر ضعفي أمام المرأة الجميلة مرة ومرتين أو ثلاثاً, ولكن لا بدّ أخيراً أن ينكشف أمري وازيح القناع عن وجهي. أبعد عبوسي بابتسامة, وازيح تكشيرتي وحاجبي المتقوسين غضباً بهزة رأس تعني الممكن أو المستحيل, وبعد شهر أو أيام تسقط المرأة في أحضاني وتسقط تكشيرتي. اغدو طفلاً في حضنها, لكنني أدرك تماماً أن تلك اللذة التي اتوهمها ليست صادقة.

لم أعد بحاجة الى المال والشهرة...

إنني بحاجة الى اللذة الصادقة, فكيف أتوصل إليها؟

قال لي غالب الوالبي ذات يوم, وكنت أعمل في مضافة قاسم المدهون:

((إن اللذة) سحابة صيف والحب هو الأبقى, أن تحب يعني أن تترفّع عن عالم الشهوة. تخونني ذاكرتي فيما قاله من كلمات أخرى, لكنني أتساءل: هل الحب شيء واللذة شيء آخر؟.. انني أذوب بين فخدي امرأة إذا كانا مكتنزين, فما الفرق بين الحب والشهوة؟.. في العالم الذي خلقه قاسم المدهون لنفسه في المنخورة هل يفرق بين الحب والشهوة؟.. ما الذي يريده قاسم المدهون؟.. هل الشهرة؟ هاهو ذا أمير على المنخورة, وراح يصدق أنه ((مولانا)) عندما يقولها لـه بعض الناس.

هل يريد المال؟.. أنا الوحيد الذي يعرف كم يملك قاسم المدهون.

أعتقد أن أموال الدنيا وكنوز النبي سليمان لن تكفيه اذا ما أراد لمشاريعه التي باح بها لي أن تكون.

ربما كان الأهم أن أتساءل: هل يبحث قاسم المدهون عن اللذة الحقيقية التي أبحث عنها ولا أجدها؟.. إن أحداً لا يعرف أن قاسماً المدهون –أمير المنخورة –استعان بالأعشاب والعسل أولاً لأنه راح يعاني من ضعف جسدي, ثم راح يتناول بعض الأدوية. إنه يحاول أن لا يعطي هذا الأمر أهمية حتى أمامي لكنك

يا قاسم المدهون تنسى أنني هذّال الحسن.. الذي يعرف ما يدور في دماغك من أفكار, صغيرها وكبيرها, وربما اعترفت, وستعترف بكل شيء لكنك تحاول أن تبتعد عن هذا الموضوع. ماذا أقول لك يا قاسم المدهون؟.. هل أقول لك أن المال عذاب وإن اللذة إن لم تكن نابعة من الروح لا من الجسد فقط هي ألمُ ونفاق.. لماذا أدخلك في لحظات تأملاتي؟.. لأترك عالمك فأنا الوحيد الذي يعرفه عالماً من خيوط العنكبوت.. ولولا كلاب القبو لتلاشى عالمك منذ زمن بعيد.

لأبتلع هذه الغصة, فأنت منذ تلك اللحظة التي رضيتَ فيها أن أقوم بدور كشف اللصوص في المنخورة وتهريبهم إلى مزرعتك ليكونوا حراسك في الإمارة فيما بعد, جعلتني ألعب بالمال, واكتسب الشهرة.. لكنني فقدت كثيراً من الأشياء الجميلة في حياتي. كانت لذتي أن أتعامل مع حبات القهوة في ((المحمصة)) فوق النار. كنت أرى العالم من خلالها, من خلال حبات القهوة يذهب بي الخيال بعيداً فأرى الإنسان طفلاً.. ثم يكبر فتكويه الحياة بالنار كحبات القهوة, ثم يغدو صالحاً للشراب.. ثم يذهب إلى المرحاض ليفرزها سائلا أصفر أولا لون لـه, وأنا.. أنا هذّال الحسن, افتقدت لذة القهوة المُرّة؛ حيث كانت تتحول حياتها من شقراء إلى سوداء فوق النار. عالمك يا قاسم المدهون أرغمني على تعاطي الخمر, فعرفت كيف تتخدر أعصاب الإنسان.. كانت الخمر تهز أعصابي عندما ذهبت لتهنئتك بـ((حكيم)). يومها قبّلتك. كنتَ على يقين انك عرفتَ كم شربت, فلا بدَّ أن رائحة الخمر كانت تفوح مني.. ولكنك ابتسمت, لأن رائحة الخمر شممتها منك قبل أن تشمها مني, شممتها من عينيك الحمراوين. علمتني كلاب القبو الصمت, الصمت في النهار والصراخ في الليل.

تعرف ذلك .. فَلم أبوح بهذا في وحدتي؟..ـ

لِمَ أبوح.. وأنا الذي صنعت في جدران المنخورة آذانا تنقل ما تسمع؟

((الناس بحاجة إلى المال والشهرة.. واللذة ...))

أضحك من كلمات غالب الوالبي عندما قال لبعض أصدقائه ونقلت إليَّ بالحرف في ذات الليلة.. إننا بحاجة إلى الدفاع عن (كرامتنا), فأي كرامة قصدها غالب الوالبي؟

أخبرتك بما تفوّه به غالب الوالبي، حافظت على إشاراته كما نقلت إلي, رفعتَ كأسك المترعة و أدرتها بين أناملك, وقلت لي: ((لم ينضج رأسه بعد لكلاب القبو. دعه يهذي..)). لا أكتمك أنني أحسست بالراحة. لا أدري ماذا يربطني بهذا الرجل؟.. هل تربطني به كلماته عن (الحب) أم كلماته عن ((الكرامة))؟.. ماذا يدور في رأسك حول غالب الوالبي؟ هل ستنتهي منه كما انتهيت من نايف العباس وأبي حسين القحطاني بأم كما انتهيت بعلي الضمراوي؟..

الأول والثاني قتلتهما و الثالث أشتريته, لكنني في حيرة من تباطؤك الذي طال كثيرا مع غالب الوالبي. قلت ذات يوم: كم

ثمن غالب الوالبي؟و ها هي ذي عدة سنوات تمرَّ على كلماتك وأنا الذي يعرف أنه لم يتغير ولم يتبدل. بل دعني أقول لنفسي وليس لك إنه لا يهذي.. بل أن بعض الناس صاروا يتعاطفون معه. أنت لا تعرفهم أنا الذي يعرفهم. لا نستطيع أن نأتي بهم إلى القبو, فهم لم يتكلموا بصوت عال. عيونهم هي التي تعلن ذلك . أستطيع أن أحاسب المنخورة من شرقها إلى غربها, ومن شمالها إلى جنوبها بإناسها وأبقارها وقططها, شرط أن يتناهى إليَّ صوت أو خوارُ أو مواء, لكنني لا أستطيع أن أحاسب على تعبير العينين.

سقى الله أيام القهوة. فقد كنت أنام مرتاحاً دون كأسين من الخمر كما صارت حالي. لم أكن أفكر بشيء,أما الآن, فانك تنام قرير العين يا قاسماً المدهون, وأنا الذي عليه أن سهير ليسمع آخر الأخبار عن الناس في المنخورة؛ أنا الذي عليه أن يظلّ قلقاً حتى من الأحجار التي تحيط بسور الإمارة, لأكن صادقاً مع نفسي قبل أن أكون صادقاً معك, فلقد صرتُ أخشى أصوات بنات آوى التي تتناهى اليَّ من جبل المنخورة, فهل تعاني ما أعاني؟.. لم أعد أشعر بالطمأنينة إلا بعد كأسين من الخمر قبل النوم. فأي شهرة هذه وأي مال؟..

وإلى متى سوف يستمر هذا الجحيم الذي أنا فيه؟

كأسي الثانية انتهت,وأنا لا أحسُّ بالخدر, لا بد من أن أبا نادر الموشوم قد أضحى غشاشاً. جميع من في المنخورة أضحوا غشاشين. يجب أن تظل العيون مُسلّطة عليهم؛ أن تظل أنياب الكلاب حادة ولامعة في وجوههم.

حتى كلاب القبو إذا ما أطبقت شفاهها فيجب ضربها بالسوط لتعود إلى نباحها, فعلى أهل المنخورة أن يظلوا على صلة دائمة مع نباحها وأنيابها.

هل تريد أن تضحك على هذّال الحسن يا أبا نادر الموشوم؟.. كل الأشياء أتوقع أن تحدث, أتوقع أن ينبثق خنجر مسموم من أحد الحرّاس ليخترق صدري وأتوقع –أن حجراً سيهوي على مقربة مني فتتطاير شظاياه لتنقذف في عيني. لا استطيع أن أتصورك تقدّم لي خمراً مغشوشاً لا يخدِّر أعصابي، فهل أضحى جسدي بحاجة إلى كأس ثالثة أو رابعة قبل النوم؟

ما دام الليل يهبط على المنخورة فيبعث بي الكآبة والخوف فليكن الخمر مأواي. لم أعد أشعر بالراحة إلا عندما تشرق الشمس, فلتكن الكأس الثالثة, سأدلقها في جوفي دفعة واحدة, فلعلّي أحسّ بالعالم يغدو جميلاً ودون هواجس من خوف. متى أتحرر من الخوف؟.. متى؟

أتذكر كأسك الأول يا هذال الحسن؟

كانت الظلمة قد أوغلت في عالم المنخورة في تلك الليلة. انتهى الناس من ضحكهم, بعد أن سقط طه الأعمى مكبّاً على وجهه في حفلة العشاء وهو يحاول أن يلتقط عدداً من الليرات

من الإناء المعدني الذي قدمه قاسم المدهون بعد أن أعلنه خطيب المبطون أميراً على المنخورة في خطبة الجمعة.

أذكر ذلك كأنه وليد اللحظة. كان القمر قد اختفى وراء الجبل وراح الظلام يوغل في فضاء الكون؛ ليلتها نهض قاسم المدهون, وطلب اليَّ أن أذهب باللصوص إلى المزرعة وأعود بسرعة لألحقَ به إلى داره. لم أنفّذ مطلبه, بل تركتهم يذهبون إلى بيوتهم على أن ألتقي بهم في داري مع شروق الشمس, وأقسموا أنهم سيفون بوعودهم. ذهبت إلى بيتي, وأنا أحسّ تعباً. كنت بحاجة إلى ساعة من النوم. لو أنني لا أعرف أن نجم قاسم المدهون قد بدأ بالصعود لنمت حتى الصباح, ولكن ابن المدهون صار أميراً, وأنا الذي عليه أن يقطف شيئاً من إمارته وصعوده. ليرحل النوم بعيداً عن جفوني وقلبي. لا بدّ لي من تزجية الوقت, وبعدها سأعود إلى ابن المدهون, فلا بدّ من أنه يرسم خيوطاً أخرى وأنا الذي عليه أن يعرف تلك الخيوط, يجب إلا يفلت خيط من بين أصابعي؟

آه.. إن ذاكرتي لا تعمل كما يجب, لكنني أتذكر أنني دخلت – بعد ساعتين أو أقل من ساعتين –لأجد قاسماً المدهون في غرفته أمام المرآة الطويلة, يقف أمامها ليضع يديه على خاصرتيه ويبتسم ثم يضيق من فتحتي عينيه تارةً, وتارةً, يستدير يميناً أو شمالاً, ثم يرفع يده اليمنى إلى الأعلى, ملوّحاً بقبضة يده في الهواء. لم أدخل من النافذة في تلك الليلة ولم أهبط من السماء, طرقت الباب. فتحتْ زوجته ودخلت. عادت إلى غرفتها، وشققت طريقي إلى غرفته. تساءلت: هل وصلت به الخمرة والفرح لم يسمع الباب وأنا أطرقه؟.. هل وصلت به أنه فلم يلحظ وجودي؟.. لِمَ أتساءل؛ لابدّ من أن يكون ذلك هو واقع الأمر. لقد عُدْتُ على رؤوس أصابعي من الغرفة مبتعداً إلى باحة الدار وناديت بصوت عالٍ:, وعندها تنحنحت يا أميرنا))؟

بصوت أجشّ قال لي: ادخل يا هذّال!

دخلت لأجده جالساً على الكنبة واضعاً رجلاً على رِجلْ, وقد أمسك بخاتمه الذهبي وراح يلهو به بأصابع يده الأخرى.

أذكر تلك الليلة لأنني فيها ارتشفت كأس الخمر الأول, قال لي وهو ينظر إلى صورة أبيه: ((يا هذال.. لم أشرب الخمر هذه الليلة حتى تأتي, فرحتي يجب أن تشاركني بها)).

لابدّ من أنه لحظ حنجرتي وهي تعلو وتهبط في عنقي, ولكنه قطع عليَّ ترددي. رفع كأسه, وأشار إلى كأسي المترعة. أعرف أنه شرب قبل مجيئي. لكنني تجاهلت ذلك. رفعت كأسي. أحسست بأن شيئاً كالنار يكوي حلقي. رحت اسعل فضحك.. لا بل لقد جلجلت ضحكته, وقال: أولها حرقة وآخرها نعيم.. ياهذال)).. وبعد أن مصمص شفتيه رفع كأسه إلى الأعلى, وقال: نباح الكلاب مزعج يا هذال! لكنك عندما تشرب الخمر, فإنك ستسمعه رائعاً ومريحاً..)) كنت أظنه أنه سيكمل ليقول شيئاً آخر, لكنه أعاد الكأس إلى فمه وشرب ما تبقّى منه دفعة واحدة. ملأه ثانية ثم أشعل سيكارة. نظر إلى كأسي,

فهمت أنه قد تضايق مني, فرفعت كأسي وانهيتها إلى جوفي.ـ وبلسان صرت أحسّه يتحرك في داخل فمي كخطوات طه الأعمى. رجوته أن يعفيني من الكأس الثانية التي حاول أن يملأها. ضحك قاسم المدهون, وهو يقول:

((_وداعاً للقهوة المُرّة.. ياهذّال الحسن!))

نهضت مستأذناً في الانصراف. كانت الأشياء تدور بي حتى لقد تلمست الجدران وأنا في طريقي إلى بيتي. كنت كلما توقفت لحظات,ترنّ في أذني كلمات ابن المدهون:

((-كن رجلاً يا هذال.. فلا تجعلن من نفسك أضحوكة لأهل المنخورة. اذهب ونم))

لا أذكر أنني قابلت أحداً في تلك الليلة. كانت الرطوبة تنقذني من الاختناق الذي أحسه, حتى إذا وصلت إلى بيتي وأغلقت الباب, كانت شهيتي مفتوحة لسيكارة, أشعلتها ودخنتها بسرعة. استغربت ثيابي المعفّرة بالتراب. انني متأكد من أن أحداً لم يقابلني في طريقي لأتعارك معه.ترى هل وقعت في أحد الأزقة؟

لست متأكداً لكنني متأكد من شيء لا يمكن لذاكرتي أن تنساه ففي تلك الليلة, شعرت بحاجتي إلى التبوّل قبل النوم, وبدلاً من أن أذهب إلى (الخلوة) ذهبت إلى فراش زوجتي فبوّلت عليها. نهضت صارخةً مستغربة وألقت بي على الحصيرة غاضبة فوجدت نفسي عليها حتى الصباح. أجل أذكر الحصيرة وثيابي المعفّرة بالتراب, فكأن سنوات لم تمر على تلك الحادثة.

هل مرت السنوات مروراً أم أنها وضعت سكيناً حادة على الرقبة.. ياهذّال الحسن؟

ما الذي حدث البارحة؟.. ما الذي حدث أول البارحة؟.. ما الذي حدث منذ شهر ومنذ سنوات؟ كان يخيّل إلي أن أهل المنخورة سيكتشفون حقيقة قاسم المدهون وأنهم سيعلنون في الأزقة والساحات عن مجده المزيف.. ولكنهم استكانوا, وصفّقوا لـه عندما بنى سور مقبرة القرية, ورددوا بـ((آمين)) وراء خطيب المبطون وهو يدعو لـه بطول العمر والبقاء والرفاه, لكنهم لم يعلموا أن قاسما المدهون, كان يبني سوراً آخر لكتم أنفاسهم وضبط حركاتهم.

كأن السنوات ما مرّت حتى ألِفَ المنخورة القحط والجفاف ونباح الكلاب, كما تأقلموا مع عيونهم التي ما عادت ترتفع عن الأرض ولا تحاول أن تنظر إلى السماء, فما الذي سيفعله غالب الوالبي حيث العيون تترصّد, وكلاب القبو بانتظاره؟

الليل طويل –يا أهل المنخورة –والقحط طال.. وهذّال الحسن, عليه أن ينتزع من دماغه التفكير باللذة. عليه أن يفكر بالمال والشهرة, عليه أن يحافظ على المجد المزيّف, فمنه بدأ وعلى أكتافه صعد. تباً للخمر الذي يحرك مثل هذه الكلمات والتساؤلات. إنني أقطف الثمار, وعليَّ أن استمر في قطفها. غداً منذ الصباح, سأذهب لأقنع خطيباً المبطون بخطبة أخرى

يكيل فيها مدحاً لغصّاب المدهون بعد أن هدم ضريح أبي ذر الغفاري وحوله من جدران طينية إلىجدران من الاسمنت.

الليل طويل والأيام ستمر كما مرت غيرها, فلتختلط الأشياء عليكم يا أهل المنخورة..ولكنني أراها واضحة. أسمع دقات الزمن كضربات طبل طه الأعمى في ليالي رمضان.

علي الضمراوي

رجل مسكون بأفكار لتغيير العالم. في خده الأيسر وشمَ يبدأ بخط دقيق على مقربة من العين ويزداد عرضاً ما بين الشفتين والذقن, لكنه موشوم في دماغه -بوشم غير مرئي – بفلسفة "التغيير يعتقد أن الدنيا قد ملئت ظلماً وجوراً ولا بدّ من العدل والرحمة وأقصر طريق لهذا التغيير ينبغي أن يبدأ من المنخورة.

علي الضمراوي... اختفى في وضح النهار منذ ثلاث سنوات. إنتظره رجال ملثّمون على مقربة من داره, وعندما خرج أسرعوا فكمموا فمه. أخفوا رأسه بقطعة قماش سوداء, وقادوه إلى جوف سيارة كانت بانتظارهم.

في ضحى ذلك اليوم اختفى على الضمراوي..

وفي مساء ذلك اليوم نعق الغراب على مقربة من جامع عمر بن عبد العزيز, وبعد يومين كانت بيوت المنخورة على علم باختفاء علي الضمراوي. نحا الناس مناحي متعددة وهم يبدون آراءهم في اختفائه, فمنهم من قال:

- إنه مجنون, هل يريد أن يغيّر العالم؟.. العاقل من اتخذ لنفسه حكمة الأولين: "أطيعوا أولى الأمر منكم".

ومنهم من قال:

-أيريد أن ينازع خطيباً المبطون إمامته للجامع؟

ومنهم من قال:

-لن يموت علي الضمراوي, "فالسجون للرجال"

كثرت التقوّلات وذهبت التكهنات بعيداً في مصير علي الضمراوي, وأغلب هذه التكهنات كانت تتأرجح ما بين الموت أو السجن حتى الموت.

تعاقبت الأيام سريعة. لم يبقَ من علي الضمراوي في ذاكرة المنخورة إلا أصداء تأتي إتيان همسات معلّقة بحدِّ سيف كسيف الحجاج بن يوسف الثقفي أو ظله الذي يلمع في فراغ الزمن.

وعلى الرغم من الظروف الغامضة التي أحيط بها اختفاء علي الضمراوي والمذاهب المختلفة التي ذهب الناس إليها, إلا أن أبا حسين القحطاني ظل على رأيه, حتى قبل وفاته بعدة أيام؛ حيث قال:

"-لا تقنطوا من رحمة الله.. لا بدَّ من خبر وإن تطاول الليل".

في تلك الليلة التي كانت نقطة انعطاف في تاريخ المنخورة, وحيث تمت المواجهة بين غالب الوالبي وقاسم المدهون على مقربة من قبر أبي حسين القحطاني, ألقت الهروات بعلي الضمراوي بعيداً عن السجن, وهناك نزعوا العصابة السوداء عن عينيه, وهدر محرك سيارتهم عائداً.

ومع فجر تلك الليلة وصل علي الضمراوي جسداً منهوكاً إلى المنخورة, وهو يعاني من القرحة المعدية, وآثار تعذيب تركت بصماتها على جسده.

جاء جيرانه وبعض أقاربه والقليل من معارفه لتهنئته بعودته إلى المنخورة. كان يحسُّ بأيديهم برودة وفي عيونهم حيادية. يشربون فنجان القهوة المُرّة, وسرعان ما يغادرون.

ويضجُّ السؤال في أعماقه: ما الذي جرى للناس؟.. ويأتي السؤال بأسئلة: هل صار منفرداً إلى هذه الدرجة؟.. أم أنهم صاروا يشمئزون من هذا الوشم الذي حُفر فوق خده؟.. وإذْ يدخن سيكارة على مهل يقول: ربما لم تكن أسئلتي في مكانها الصحيح, لذلك فإنني أتساءل: "هل صار قاسم المدهون قوياً إلى هذه الدرجة, فأضحى الناس يخافونه, مثلما يخافون البصاصين الذين حواليه كما قالوا لي؟

***

يقول التاريخ لعلي الضمراوي إنه وُلد –منذ خمس وعشرين سنة أو أكثر من ذلك بقليل –حيث كان الناس, في ذلك الضحىَ, مشدودين إلى درجة الدهشة والخوف, وهم يتابعون كسوف الشمس حتى أن بعضهم كان يغمض عينيه, ويقرأ (اية الكرسي).. وبعضهم كان يقرأ (سورة الإخلاص) لاعتقادهم أن ذلك اليوم من علامات الساعة, وأن القيامة ستكون بين لحظة وأخرى. في ذلك اليوم, صرخت أم علي الضمراوي معلنةً بذلك عن لحظة ولادتها, وعندما دخل زوجها على صرختها, تاركاً بعض الرجال في تلك الفسحة الصغيرة أمام باب داره, وهم يتابعون الشمس, لم يتمالك نفسه من أن يوجه لها شتيمة بصوت عالٍ:

-هل هذا وقتك يا أمون؟.. لعنك الله ولعن أباك. ألم يعد باستطاعك أن تؤجّلي هذه المصيبة ريثما نرى ماذا سيحلّ بنا من الخراب؟

ولم تجبه أمون التي كانت شاحبة والعرق يتصبب من وجهها, لكنها صرخت ثانيةً صرخة كانت أقوى من سابقاتها, حتى أنه أحسَّ برجفة, وأضحى كالمذهول عندما سمع فرقعة زجاج تتكسر, وتتساقط شظايا في أرض الغرفة، هرول مبتعداً, ليبحث عن إمرأة تساعد زوجته في ولادتها, ريثما يرسل أحد أبنائه في طلب القابلة, ولكنه كان يتمتم:

-يا رب... ألطف بنا واجعل العواقب سليمة.

لم تتأخر أمون في ولادة, مثلما تأخرت في تلك الولادة. لقد سبق لها أن جاءت بخمسة أولاد وأربع إناث إلى هذا العالم,

ولكنها لم تصرخ مثل تلك الصرخات التي أحسَّ زوجها وهو يسمعها أن شيئاً ما في داخله يتمزق. كانت في اليوم الثالث أو الرابع؛ تنهض لتذهب معه إلى الأرض حيث الحراثة أو البذار أو الحصاد. ما زال يذكر أنه في أيام الشتاء الماطرة, كان لا يجد وقتاً مع تدفق المياه ليردم المجرى, فيغيّر وجهتها لترتوي أرضه. كان يطلب إليها أن تكون حاجزاً يقف في وجه الماء بجسدها الممتلىء بدلاً عن التراب. كانت تفعل ذلك بطيبة خاطر. تتمدد أمون على جانبها الأيمن أو الأيسر في وجه الماء، ويركض حاملاً المعول ليردم الثغرات التي تتدفق منها المياه إلى أرض جيرانه. كثيراً ما تكرر ذلك، حتى أنه استخدمها ذات مرة لحراثة الأرض عندما نفقت الحمارة في أثناء الحراثة عند الظهيرة، فوضع الفدّان في رقبة أمون وأكمل حراثته. لم تصرخ من المياه الباردة ولم تصرخ من الحبال التي شدت إلى كتفيها. لم تصرخ في ولادةٍ واحدة من ولاداتها التسع؛ فلم هذا الصراخ في يوم كسوف الشمس؟ لم يكن مذهولاً من الصراخ، بقدر ما صار مذهولاً من تأخرها في ولادتها هذه المرة. من الضحى، وهاهي ذي الشمس تميل إلى الاختفاء وراء الجبل وأمون لمّا تلد. وإذْ يتذكر بلورة الضوء التي انكسرت، يقول هامساً: لابدَّ من أنه سيكون مصيبة.. فلعنة الله عليه وعلى ساعة مولده.

ويستدرك: حتى وإن كانت بنتاً فهي مصيبة.

مع المغرب خرجت القابلة منهكة القوى، شاحبة الوجه، لتزفَّ البُشرى لزوج أمون بالولد السادس.

سألها لأنه تعوّد أن يسمع البكاء في مثل هذه الحالات، فقالت:

-حكاية البكاء تهون أمام رأسه ويديه!

فقاطعها؛ ماذا تقصدين؟

قالت: كل الآلام التي سببها لأمه في أثناء الولادة بسبب رأسه الكبير.

وإذ سكتت، سأل ثانية: وما حكاية يديه؟

قالت: لم نستطع ونحن نغسله بالماء والملح أن نفتح أصابع يديه المضومة.

بعد ثلاثة أيام تراجع الزوج أمام رجاء زوجته ليعدل عن تسميته إلى "علي".

لقد كان مصمماً أن يسميه "كسّار".. وعندما سئل عن سبب اختياره لهذا الاسم، قال:

-يكفي أنه كسر بلورة ضوء قنديل الكيروسين في أثناء الولادة.

***

التاريخ الشخصي لعلي الضمراوي يقول إنه كان من المتفوقين في المدرسة الابتدائية التي توقف عندها بعد حصوله على شهادتها، ذلك أن أباه كان بحاجة إليه في الأرض والحصاد أكثر من المدرسة، ولم تنفع رجاءات الأم هذه المرة أمام مشيئة الأب، فلقد قال لها صارخاً:

-لا أريد منه شيئاً، ولكن ليعمل بأكله. لا تكرري ذلك وإلا فاخرجي من داري واصطحبيه إلى دار أهلك.. أتفهمين؟

قنعت بأوامر زوجها، حيث شبَّ علي متمرداً، قلقاً، يريد تفسيراً لكل الأشياء التي تحيط به، مما كان يسبب قلقاً لأبيه إلى درجة الغضب، بخاصة عندما سأله ذات يوم:

-لماذا لا نرى الله؟.. وأين يسكن؟.. وماذا يأكل ؟

لم يتمالك الأب أعصابه، فقد حمله إلى الأسطبل، وهناك أوثق يديه ورجليه بالحبال إلى رقبة الحمارة، وأبقاه من العصر حتى حلول الظلام. لم تنفع استغاثات أمه ودموعها لعله يطلب "التوبة" من أبيه، لكن علياً قال:

-أفضِّل أن أظل مع الحمارة على أن يسكت أبي فلا يجيبني- هل اقترفت ذنباً؟

ولولا تدخُّل جارهم أبي جابر بعد أن أعلمته أمون بالموضوع سراً، لما فكَّ أبوه وثاقه..

أثار غضب أبيه مرة ثانية عندما كانا يحرثان الأرض، حيث تلفّت علي إلى الجرار الزراعي الذي يحرث أرضاً على مقربة منهما، فسأل أباه:

-لماذا لا نحرث الأرض بالجرّار فنوفر التعب والوقت؟

أجاب الأب: وهل سيحرثون الأرض مجاناً؟

قال علي: بالطبع لا.

سأل الأب: وهل تريدني أن أبعثر المال هكذا؟

قال علي: لو أنك فكرت بالتعب والوقوف الذي تهدره لاقتنعت بفكرتي، لقد صُنعت هذه الآلات لخدمة الإنسان..

قاطعه أبوه: هل تريد أن تفرض علي أوامرك يا ابن أمون؟

وعاجله بضربة بقضيب الرمان الذي كان ينهال به على عجيزتي الحمارتين، فَشُجَّ رأسه ونزف دمه.

قفز علي راكضاً. حمل حجراً ليبعد أباه عنه.. وإذ ظل الأب مُصِّراً على ملاحقته، قذف بالحجر فلم يخطئ بطن أبيه الذي راح يعصره متألماً. وعاد علي إلى القرية لينام في دار جدته لأمه، وفي اليوم الثاني، لم تعد المنخورة تراه؛ فقد امتهن الجيش وظيفة ولم يعد إلى القرية حتى علم بوفاة أبيه، ولكن أمه زارته ثلاث مرات في أثناء غيابه عن المنخورة الذي دام خمس سنوات، وعندما عاد مطروداً من الجيش بعد فترة تحقيق دامت قرابة السنة، عاد ليستقر، بعد أن ذهبت أماله أدراج الرياح.

* * *

ما كان السجن غريباً عليه، لكنه كان دائم التساؤل عن الطريقة التي أُرغم فيها على السجن عندما كمموا فمه وعصبوا عينيه ورموه في السيارة في ضحى ذلك اليوم، الذي مرَّ عليه ثلاث سنوات أمام جمهرة من الناس في المنخورة.

اختطَّ لنفسه طريقةً وما كانت لديه القدرة على أن يحيد عنها. إختلف مع خطيب المبطون، لأن هذا الأخير برأيه كان "حنبلياً" إلى درجة التعصب.. وهو يرى أن الدين يسر لا عسر، حتى أنه راح يندد بانتهازية خطيب المبطون، بخاصة عندما علم أنه سيزوج ابنته لقاسم المدهون.ـ فقاسم المدهون كما قال: "لا يُحرِّم ولا يُحلِّل، لا دين ولا دنيا.. ورث المال عن أبيه وراح ينفقه على العاهرات والعربدة.. فكيف يرضى خطيب المبطون بذلك؟". وعندما جاءه خطيب المبطون ذات ليلة لتسوية الأمور بينهما، وقد لمّح إلى أنه لو لم يتوقع أن قاسماً المدهون سيكون ذا شأن في عالم المنخورة، لما رضي أن يوافق على زواجه من ابنته.. واستمع إليه علي الضمراوي حتى وصل إلى تلك النقطة التي لم يستطع فيها أن يسكت عندما قال له:

-إن سكتَّ عن شتم الرجل وعيوبه أمام الناس، فإنك ستقطف ثمار سكوتك.. وإلا!

قاطعه علي الضمراوي.. غاضباً:

-اسمع!.. علي الضمراوي لم يرث عن أبيه شيئاً، لكنني أريد أن أقول لك إن الكرامة لا تباع ولا تشترى. أنا لا أبيع نفسي بأموال الدنيا. اذهب وقل ذلك لابن المدهون.

يذكر تلك الجلسة كما يذكر أن خطيباً المبطون عندما نهض، قال له:

-ما على الرسول إلا البلاغ.

لم يكن ليفكر أن قاسماً المدهون، كان يتطاول، وأن أنيابه صارت حادة، وأن كثيراً من السفهاء سينضوون تحت أوامره، وأنه سيدفع ثمن موقفه بعد أن انتخب قاسم المدهون –بالإجماع كما قيل له- أميراً للمنخورة منذ عشرة أيام.

■■

القســـم الـــرابع

1

تعاقبت السنوات وتتالت الفصول. ما عاد الناس في المنخورة يميّزون بين الشتاء والصيف إلاّ بالحرارة أو الصقيع. ما عادوا يميّزون بين الخريف والربيع إلاّ بالأزهار اليتيمة التي تنبت –على استحياء- فوق أغصان الأشجار الحزينة، التي سرعان ما تتساقط لأقل هبّةٍ من ريح.

وفي ضحى يوم، قيل إنه من أيام الخريف، تجمّع الناس في المقبرة، حيث سقطت أشعة الشمس على جلودهم ورؤوسهم بقسوة. أزرتها ريح ساخنة كانت تحمل معها، بين الفينة والفينة، كميات من ذرّات الغبار فتلتصق على جباههم وتتغلغل في رقابهم وتضايقهم في عيونهم.

في ضحى ذلك اليوم الخريفي، كان علي الضمراوي يضع صورة قاسم المدهون الملفوفة بقماش ناصع البياض، حيث راح يعكس أشعة الشمس بقوّة في عيون البشر على شاهدة قبر/نايف العبّاس/، ولأن قبر أبي حسين القحطاني يكاد يلاصقه، فقد جلس علي الضمراوي فوقه، وراح يختلس النظر إلى من حوله.. لكن ابتسامةً واضحةً كانت تتراقص على عينيه.

بين ممرات القبور المتعرّجة، بين أحجارها وأشواكها، على ضفّة نهر القرية الصغير الذي يمرّ على مقربة من ضريح أبي ذرّ الغفاري، كان الناس يتبادلون الأحاديث التي لا رابط بينها إلا انتظار موكب قاسم المدهون، وفجأةً سُمع صوتٌ جهوري.. غليظ، طغى على كل الهمسات، انبثق من أول المقبرة:

-وصل مولانا.. وصل مولانا.

رددت الأصوات، تارةً بصوت مرتفع، وتارةً هامسة وهي تستعين بالكوع أو أصابع اليد، لتنبّه أولئك الذين لم يسمعوا بقدوم أمير المنخورة:

- وصل مولانا.

نهض مَنْ كان جالساً، وراحوا ينفضون التراب الذي عَلقَ بأقفيتهم، واتسعت عيونهم وهم يتابعون موكب قاسم المدهون معتلياً فرسه، التي يعرفها جميع من في المنخورة باسم ((الكحيلة)).

تمتم علي الضمراوي، وهو يحمل اللوحة على صدره:

-هو ذا السلّم أمامك.. فاصعد!

وعندها نظر إلى هذّال الحسن الذي كان على فرس أخرى، بجانب قاسم المدهون، تمتم ثانية:

"- إنما أنا رجل أفقدته الحياة طموحاته، مثلما فقدتُ أبي وأنا غائب عن المنخورة.. وأنت يا قاسم المدهون.. أنت الأب والسُلّم.. وأنت مولاي، كلّهم يقولون: ((مولانا)).. وأنت.."

وبعد أن ضرب على رأسه، أضاف:

-وهذا الرأس الكبير يجب أن يكون في خدمتك.

تدافع الناس باتجاه موكب قاسم المدهون، لكن رجال هذّال الحسن، تحلّقوا حولـه دائرة مرصوصة، اليد باليد، والكتف بالكتف.. فكانت فرسه ((الكحيلة))، تتهادى بخيلاء بين البشر، كأنما استمدت ثقتها من قاسم المدهون، أو كأنه، استمد صورة رأسها المرفوعة ليقلّدها وهو ينظر إلى الناس مصفقين.. صارخين بحياته وطول بقائه.

تعوّد قاسم المدهون أن يمتطي صهوة ((الكحيلة))، بعد أن صار أميراً للمنخورة. أتعبته في البدء، حتى لقد أسقطته أكثر من مرّة وهو على ظهرها ولكنها، مع مرور الأيام، أسلست لـه قيادتها. اختارها لناصيتها البيضاء؛ لأن خطيباً المبطون، قال له: ((الخيل في نواصيها الخير))*، صار يحسّ بروعتها.. ولذتها، عندما راح ينطلق بعيداً عن المنخورة في رحلات الصيد، لكنه في هذه المرة، وفي هذا الموكب بخاصته، راح يحسّ بوقع أقدام ((الكحيلة)) بين البشر وجموعهم المتراصة أن لها معنى آخر، كان يحسُّ بنشوة أروع من تلك النشوة وهو يرتشف الخمر ويتأمل رقصة الغجرية مع عزف ((الربابة)) في مبنى إمارته بعد أن ينتصف الليل.

منذ ليلة البارحة أحسَّ بالصداع حاداً فيه رأسه، كان متهيباً، شديد الوجل من المجيء إلى المقبرة لفتح ضريح أبي ذرّ الغفاري، على الرغم من أن هذّال الحسن أكّد لـه أن ((كل شيء على ما يرام))، فمن أين أتاه ذلك الخوف، الذي أدرك الآن أنْ لا معنى له، إلا أن أوهامه أو سوء ظنونه قد خلقته له؟

.. "ثمة معنى واحد"، ابتسم لـه قاسم المدهون من أعماقه، أن البشر في المنخورة قد أسلسوا قيادتهم له، مثلما أسلست ((الكحيلة)) قيادتها له.

ابتسم لهذا المعنى حتى إذا انفرجت شفتاه عن تلك البسمة، فقد ظنّها القريبون منه أنها علامة رضا. ارتفعت أصواتهم. ارتفعت أيديهم إلى الأعلى مصفقة بقوّة أكثر، امتدت موجة الأصوات والتصفيق –بالعدوى- إلى آخر المقبرة. رفرفت نفسه بكلمات زاهية، ظلّت حبيسة صدره:

"ليس أجمل من منظر البشر وهم يتحلّقون حولي، وأنا على ظهر فرسي؛ ليس أجمل من منظرهم، وهم يركضون للحاق بي، لماذا لم يخلق الله الفرسَ بحجم الجمل لأراهم من مسافة أكثر ارتفاعاً؟".

---

* *حديث نبوي شريف عن الرسول (ص).*

***

هو ذا الموكب يقترب حثيثاً من ضريح أبي ذرّ..

وها هو ذا علي الضمراوي، يمدّ يده إلى قماش اللوحة فينزعه جانباً عندما أدرك أن موكب الأمير صار على مقربة منه، وهاهو ذا يرفع اللوحة بيديه إلى الأعلى ويصيح:

"-يا أهل المنخورة.. هو ذا ((مولانا)) فانظروا إلى يديه الرحيمتين"

وإذْ استرعى صوته نظرة من قاسم المدهون، فقد تطلّع إلى اللوحة مبتسماً وهزّ رأسه، ثم تلفّت إلى هذّال الحسن، وهمس لـه بعدة كلمات.

كان علي الضمراوي يمشي، حتى إذا صار قريباً من الشريط القماشي الذي سيقصّه أمير المنخورة إعلاناً بافتتاح الضريح، ركض عدد من الرجال إليه، فرفعه أحدهم على كتفيه، وارتفعت اللوحة إلى الأعلى.

لماذا تذكر قاسم المدهون في تلك اللحظة صبّوحة الخليل؟ لماذا تذكرها وقد قال لها ذات ليلة: ((حدثيني عن مجد أجدادي والقذارة))؟، تذكّر تلك الليلة، لكن الكلمة الأخيرة سقطت من وهاد نفسه، ولم تعد إلاّ مجرد ذكرى عابرة.. راح يعتقد جازماً أن أجداده كان لهم مجد وتاريخ وإلا لما صار أميراً على المنخورة.

صبّوحة الخليل.. ماذا فعلت بك الأيام؟؟.. لابد من أنك تذكرين لياليناً فأين أنت؟ عندما سألتك –ذات ليلة- عن مجد أجدادي، فقد رأيتُ في عينيك وعلى زاويتي فمك بسمة سخرية لم تحدثيني عن مجد أجدادي، لكنك تساءلت عن القتل. يومها لم أكن أصدق أنني سأكون أميراً. كان ذلك حلماً، وها هو ذا الحلم يتحقق، وها أنا ذا فوق ((الكحيلة)) والكلّ رهن إشارتي. أين أذناك لتسمعا هذه الأصوات؟.. كنت في لياليناً تسمعين أقل حركة، وأصغر نأمة، هل أصبت بالصمم؟.. قررتُ أن أنتهز الفرصة لأردّ لك إهانتي عندما كان أخي يقضي ليلة معك، لكنني ترفّعت عن ذلك. ستتركك تجترّين وحدتك وذكرى أنك كنت امرأة يشتهيك الجميع، يتمنون ليلة واحدة معك. سأتركك كأنك لم تكوني في حياتي، فأمير المنخورة أكبر من أن يتذكر تلك الليالي، لابدّ من أنك بين هؤلاء البشر لكن عينيّ لا تتمكنا من رؤيتك. أيدي البشر وهم يصفقون يحولون بيني وبين رؤية كل الأشياء، تقطع أصواتهم عليّ ذكرياتي. سأرتفع أكثر يا صبّوحة الخليل، وعندما ستأتين ذات يوم –وأستغرب أنك لم تأت حتى الآن- سأكتفي بإشارة من عيني لإبعادك عن الإمارة.. هل تعرفين أن عينيّ أمير المنخورة تأمران وتنهيان؟.. الإمارة فن، والإمارة لها عينان تتكلمان.. لكنك يا صبّوحة ابتعدت، ولن تعرفي شيئاً عن كل هذا. أتصوّرك في عزلتك لا تجدين غير قطة

تتلهّين بها.. فالأيام وحدها ستتكفّل بك لتكوني جثة هامدة، والأيام وحدها ستكون طوع أصابعي لأرتفع أكثر، حتى صورتي صارت ترتفع عالياً في الفضاء.. لو أنك هنا يا صبّوحة، لرأيت صورتي يحملها علي الضمراوي بين يديه عالياً، وهو على أكتاف الرجال.

أعرف طموحات علي الضمراوي الصغيرة. سوف أمدّ لـه الحبل، كما مددتها لأبي المدّاح الأشرم ولخطيب المبطون.

سأحقق لهم طموحاتهم التافهة، ما داموا يخدمون زمن صعودي، فلتصفق الأيدي.. ولترتفع الحناجر وتنخفض، لترقص الأجساد حتى الإنهاك، لكنني وحدي الذي عليه أن يستمر دون تعب أو إنهاك.. فمجد أجدادي عاد ليدخل دائرة الضوء. ليكن لي النهار، وليكن لي الليل، وليكن الفتات للآخرين، فأنا من أعاد لأجداده ذكراهم، أنا الذي على التاريخ أن ينقشه على صدره كنارٍ دائمة التوهّج.

* * *

على الرغم من الغبار الذي أثارته أقدام البشر أو ثيابهم الطويلة وهي تجرّ على الأرض.. فقد كانت العيون مسلّطة على قاسم المدهون، وارتفع الغبار أكثر عندما اقترب من ضريح أبي ذرّ الغفاري.

كان الناس وقوفاً باستثناء بعض العجائز أما طه الأعمى الذي كان يجلس القرفصاء، وينكش التراب بعصاه بحركة تكاد تكون منتظمة، فقد كان يصغي وحده للأصوات... تابع البشر بأذنيه، أنه كتلة بشرية بين هؤلاء، ولكنه كان يتذكر ذلك المساء الذي امتدت فيه يده إلى مائدة المال التي قدّمها قاسم المدهون فرحاً بفوزه أميراً على المنخورة حيث سقط.. وعاد غاضباً ليدمدم: ((أظن أن هذا المال مال حرام)).

كأن السنوات ما مرّت على تلك الحادثة، فهو يتذكرها مع ضربات عصاه في التراب؛ كأنها بنت اللحظة، ولكنه كان يردد: ((والعصر إن الإنسان لفي خسر)).

مع ذكرياته، كان طه الأعمى يعود إلى الوراء، ويتقدم مصغياً إلى الأصوات حتى أنه كان يسمع صوت عصا وهي تنال من جسد إنساني لتأمره بالابتعاد عن موكب الأمير بعيداً.

فجأةً سمع صوتاً يأمره بالنهوض، وإذ تجاهل ذلك، وظل ينكش التراب بعصاه، فقد تلقّى ركلة قوية على مقربة من خاصرته اليمنى.. أكبّ على وجهه، وتعفّرت ذقنه الطويلة بالتراب.

نهض متثاقلاً، وبينما كان يصرخ شاتماً، فقد كان يلوّح بعصاه متوعداً؛ ولأن فرس قاسم المدهون كانت قريبة منه، فقد رفعت قائمتيها إلى الأعلى وراحت تحمحم بصوت حاد.. فانقلب قاسم المدهون وسقط على الأرض.

لا يعرف أحدٌ من أين انبثق ابن عيسى في تلك اللحظة. أقسم الكثيرون، أنهم لم يروه في ذلك الجمع المحتشد لا في أول المقبرة ولا في آخرها؛ حتى أن بعضهم قال إن ابن عيسى خرج من ضريح أبي ذرّ الغفاري، من بين قضبان الحديد تسلل، ليكون على مقربة من طه الأعمى في تلك اللحظة.

نزع شملته ذات اللونين الأحمر والأبيض ولفّها بعقاله ورفعها عالياً بيده اليمنى. رفع ثوبه الطويل المتسخ بيده اليسرى، وراح يخبط على الأرض بقدميه، بحركات تكاد تكون منتظمة.. وهو يصيح بصوت هادئ:

((البعرة تدل على البعير.. يا أهل المنخورة..
السقطة تدلّ على السقوط.. يا من لكم عيون
ولكنكم لا ترون
في قعر البئر انتم.. ولكنكم بالنتن.. تلهون..
غرّكم الغبار والضباب..
فصرتم ترونه نعيماً)).

ولم يكمل ابن عيسى كلماته فقد انهالت الصفعات على خديه قوية، وإذ سقط على الأرض، انهالت الركلات على خاصرته اليمنى، رفع رأسه باتجاه مَنْ ضربه، الذي يضربه، وقال، بينما نقاط الدم تسيل من أنفه:

((هو.. الليل الطويل.. الطويل،
يطويكم بسواده،
ترقصون مع جوعكم وتدّعون أنكم
في قمة الفرح..
الحبال تضغط على أعناقكم،
وأنتم تضحكون.. تفو.. تفو))

وإذْ حاول أ ن يبصق باتجاه الذي ركله، فقد خـرجت البصـقة ممزوجة بالدم، وعندما فقد ابن عيسى وعيه وأغمض عينيه، فقد حُمِل بعيداً عن المقبرة

كان هناك صمت في الدائرة التي سقط فيها ابن عيسى، ما لبث أن اخترقته أصوات تنادي بحياة أمير المنخورة الذي تقدم منه رجال هذّال الحسن فنفضوا عنه الغبار ورفعوه على ظهر فرسه، حيث عليه أن يقصّ الشريط الأخضر إيذاناً بافتتاح المبنى الجديد لضريح أبي ذرّ الغفاري.

لم يترجّل أمير المنخورة ليقصّ الشريط لكنه طلب أن يرفع الشريط إليه، وهو على ظهر فرسه. لم يمسك المقص الذي كان يحمله أحد الرجال بصينيةٍ لامعة، لكنه انتزع خنجره وهوى به على الشريط فانقطع، وتابع مسيرته إلى ساحة الضريح، بينما علت في فضاء المقبرة زغاريد بعض النسوة، ولعلعت في الجوّ عدة طلقات من الرصاص.

وإذ وصل الرجل الذي يحمل علي الضمراوي على كتفيه إلى بقعة التراب التي سقط عليها دم ابن عيسى، فقد حاول أن يبعثر بقع الدم، لكن قدميه لم تطاوعاه، فظلت البقع في مكانها كأن شيئاً لم يمسها، وكان هناك طفل في حوالي الرابعة عشرة من عمره يراقب المشهد، فظلّ صامتاً.. حتى إذا تابع الرجال مسيرتهم هرول إلى بعض الحجارة فجمعها، ثم كتب بها على شكل دائرة أحاطت ببقعة الدم:

((ابن عيسى))

* * *

حيث كانت الشمس تسلّط أشعتها عمودية على المنخورة.. كان غصّاب المدهون قد انتهى من شرح ميزات توسيع ضريح أبي ذرّ وبيّن لأخيه لماذا تمّ إزالة بعض القبور المجاورة للضريح، وزرع مكانها أشجاراً سوف تغدو باسقة حيث ستكون ظلاً وفيئاً لمن يزور الضريح في المستقبل القريب من أهل المنخورة وما يجاورها من قرى، وأفاض مديحاً في القاعة التي تمّ بناؤها بجوار الضريح، حيث يمكن للزوّار من القرى البعيدة أن يناموا حتى اليوم التالي.

وبهذه المناسبة.. فقد ارتفعت رائحة شواء اللحم بعيداً في الجوّ...

اعتاد سيد المنخورة على حفلات الرقص التي يجيدها الغجر في مبنى الإمارة حتى بزوغ الفجر. كان ذلك يتم مرتين في كل أسبوع وكان حريصاً على هذه الحفلات بدأب ونشاط. أضحى لـه في ذلك فلسفة خاصة، فمثل هذه الحفلات هي متنفّسه الوحيد الذي يطلّ به بعيداً عن شؤون الإمارة وقضايا الناس ومشاكلهم وفقرهم.. حتى أنه ليرجح مثل هذه الحفلات الماجنة التي تنتزع الضحك من أعماقه على حاجات المنخورة كلها.

لم تكن لسيد المنخورة غير فكرة واحدة فيما يتصل بشؤون الإمارة، وهي أن يترك كل شيء يتخذ سبيله كيفما شاء فهو مثلاً لا يستطيع أن يأمر السماء لتجود بالمطر وتنهي القحط، وهو يرفض أن يعطي العمال في مزارعه أجوراً عن ساعات عملهم الإضافية؛ يكفي أن الطواحين التي أنشأها أبوه ذات يوم قد أضحت مهجورة؛ وهو لهذا لن يزيد في أجور العمال. يكفي ما يتنكبه من أموال لنقل المحصول إلى المدينة.

إن مشاريعه التي يحفل بها رأسه لكبيرة وكثيرة.. فليكن لهذّال الحسن عالمه في إسكات الأفواه والعيون التي قد تُبدي أقلّ إشارة في التذمر. ليكن لـه سلطانه الخاص وجيوبه الخاصة. ليستفد هذّال الحسن من منظر الأبقار والأغنام والأشجار. ليتلمّسها، ليكن لـه منها شيء. أما الجزء الأكبر فإن أحداً لا يستطيع أن يتلمّسه. الحياة التي شقّ طريقه فيها ليست سهلة، والحياة التي تنتظره ليست مفروشة بالورود. وحده الذي

عليه أن يزرعها، ووحده الذي عليه أن يقطف ثمارها، حتى أنه في ساعات وحدته مع كأسه المترعة يقول:

((إن المنخورة وما عليها ملك لي، المنخورة وما يجاورها يجب أن تكون ملكاً لي.. فإلى الأمام)).

من أجل تصريف شؤون المنخورة، فقد شاءت إرادته السلطانية أن يكون لهذّال الحسن مساعدون في شؤون الغزو وآخرون في شؤون المال، حتى إذا تكاثر عددهم وهو سيدهم، كان يحسّ أن جسده يتضخم إذ تتناهى إليه كلمات المديح والدعاء من هؤلاء الذين صنع منهم أشخاصاً يجوبون ممرات مبنى الإمارة ويعتلون صهوات الجياد في أزقة المنخورة وصحرائها، ولكنه قرر أن يكون هناك حاجز بينه وبينهم ليس عليه أن يفكر كثيراً في هذا الحاجز، يكفي أن يشير لهذّال الحسن بضرورة هذا الحاجز وهو الذي يتكفّل بالبقية.

إنه يعرف أن مبنى الإمارة قد غدا يغصّ بالناس، فهناك فئة تدّعي أن أحداً لن يجاريها في سباق الخيل؛ إلى فئة تدعي أن أحداً لن يبزّها في تصريف شؤون المنخورة ومظالم أهلها: وفئة تسخّر آيات القرآن دليلاً على شدة إيمانها وتقواها..

إنه يعرف ذلك وعليه أن يتظاهر باستيعاب الكل ولكنه في قرارة نفسه يدرك أن غالبية هؤلاء لا علاقة لهم بسباق الخيل ولا في تصريف شؤون المنخورة أو مظالم أهلها، يدرك أن تلك الفئة من رجال الدين أن حضروا إلملذات الدنيوية فإنهم ينغمسون فيها حتى آذانهم، حتى أنه ليلحظ عيونهم وهي تتأجج بالشهوة إذا ما جلسوا إلى نساء حسناوات.

ليكن بينه وبينهم حاجز، ما داموا ينفذون رغباته، ويطأطئون رؤوسهم ويسخّرون ألسنتهم لخدمته. كلّ منهم غير جدير بما أوكل إليه، وكلّ منهم يكذب على الناس، إذ يتظاهر بالشرف وأن الأمير في متناول يده.

إنه يعرف كلّ شيء حوله ينضح بالزيف والنفاق، فليكن ذلك الحاجز مبدأه وشعاره، ليزيّن لهم الزيف والنفاق، ما شاء أن يزين.. ما دام هو الأمير.

لقد حبس الهواء في صدره وأرسله من أنفه دفعة طويلة، فكأنما كان ذلك متنفّساً عن خواطر ما عاد بإمكانه أن يعبّر عنها بأشد الكلمات حرارة.

* * *

دروب المنخـــورة وأزقتها الترابية وأطفالها الحفـاة الــذين وصلت إليهم رائحة الشواء أدركوا أن الفقر أضحى مألوفاً، وصار صديقاً للبطون الضامرة.. وللوجوه الشاحبة.

وإذ انتهى قاسم المدهون واعتلى فرسه ((الكحيلة)) ليعود إلى مبنى الإمارة، اتخذ النهر سبيله كما في كل يوم.

واتخذ النهار سبيله نحو الليل كما في كل يوم، واتخذت كثير من مظاهر الحياة سبيلها إلى الموت، ولم ينتظر الزمنُ البشرَ لإيقاف عجلته. ولم تبقَ الأحجار التي وضعها ذلك الطفل ليكتب

بها "ابن عيسى" أحجاراً، بل كان عازماً على أن يضع شجيرة مكان كل حجر. وكما نامت الجرذان متلاصقة في جحورها المظلمة، فقد نام بعض الفلاحين إلى جانب ما تبقى لهم من أبقار وأغنام.

وتــوهج مبــنى الإمــارة بــالأنوار كما في كل ليلة وجــرى كل شيء.. كما كان يجري كل ليلة.

2

لا يعرف أهو الذي يدور أم أن الأرض تدور به؟.. حاول أن يستند على الجدار بظهره مغمضاً عينيه، لكنه يحسّ أن شعرة بينه وبين أن يقع على الأرض. انفتل ليواجه الجدار ملقياً برأسه إليه لكن قواه خذلته فتداعى على الأرض مكبّاً على وجهه.

من أين أتى طه الأعمى ليكسر أحلامه؟ ولماذا سقط أمير المنخورة تلك السقطة؟.. من أين جاء ابن عيسى ليهشّم درجات صعوده؟.. لا يعرف، وهو الذي تعب في رسم لوحة لقاسم المدهون حتى الإرهاق، كيف تكالبت عليه حادثة طه الأعمى وهذيانات ابن عيسى في تلك اللحظات التي ظنّها أنها أفضل من ليلة القدر؟.. كان يُمنّي النفس أن أمير المنخورة لن يهتم إلا به من سائر المخلوقات التي توافدت على المقبرة. ظنّ أن الأمير سيتقدم منه، ليربت على كتفيه أمام الناس ثم يمتدحه بصوت عالٍ، لكنه أمسك بالوسادة التي أكبَّ عليها وراح ينهشها بأسنانه، لعلّ شيئاً من غضبه هذا الذي يحتقن في صدره أن يبتعد عنه، أو أن يتلاشى قليلاً، لأنه يحّس في حلقه عائقاً يحول دونه ودون التنفس.

أنه- كما تراءى له- يتخبط على غير هدى في صحراء شاسعة . يهبط أودية، تتكاثر فيها الثعابين، تقترب منه جماعة جماعة. لا يعرف كيف يزحف إلى الأعلى، لكنه يتراجع ليسقط ثانية وهو يرى ذئباً وقد كشّر عن أنيابه للانقضاض عليه.

فجأةً وهو يركض حيناً ويزحف حيناً أخر.. تراءى له رجل يعرفه، كان جالساً على صخرة متفيئاً بشجرة كثيفة الأغصان، قد أسند ظهره إلى جذعها ممدداً رجليه وهو يقرأ في كتاب.

رفع علي الضمراوي يده وراح يستنجد بها. كان يظنُّ أنه يصرخ، لكن الكلمات كانت تخرج منه كمادة شوهاء. واصل زحفه، لعلّ المسافة بينهما تتقلّص. لكنها كانت تغدو أكثر بعداً. حاول أن يستجمع بقية متبقية من أعصابه فصرخ وهو يرفع عينيه إلى الأعلى:

-يا غالب.. انقذني من الأفاعي.

ولم يردد الوادي الصدى.

ظلّت الكلمات تخرج من فمه مادة شوهاء.. حتى رأى ناراً أشعلها غالبّ الوالبي فابتعدت الأفاعي. كان علي الضمراوي مشلولاً في قعر الوادي، وعندما ولّت الأفاعي هاربة، مذعورة، احّس بالطمأنينة. فتح عينيه وألقى بالوسادة جانباً. تأمل

الوسادة المبللة بالعرق، ثم ابتسم لهذا الكابوس المفزع الذي لم يره حتى في أثناء سجنه، وإذ نهض وخرج إلى باحة الدار، استنشق الهواء متذكراً كابوسه وغالباً الواليي والنار، ثم كوّر بصقة وقذف بها على مقربة من قدميه وقال:

-تفو... لماذا تلاحقني يا غالباً الواليي في أحلامي؟.. أنت لست إلا مجردّ ذكرى ولن تكون إلا رجلاً هامشياً، أنا رجل يؤمن بالواقع، ويرفض الكوابيس وأنت كابوس لن يتكرر في حياتي.

***

عندما عاد قاسم المدهون إلى مبنى الإمارة، كان مهموماً. ظلّ طوال طريق عودته يفكر بشيء واحد، لن تمنعه قوّة على الأرض من تنفيذه. كان يبتسم لهؤلاء الذين يصفقون له، لكنه يريد لهذه الطريق القصيرة أن تنتهي بسرعة. لم يعد بحاجة إلى تلك الأصوات. أنه ينظر إلى وجوه الناس لكنه يراهم كأشباح. يودّ لو أنه انتهى منهم سريعاً. يريد لبوابة الإمارة الحديدية أن تبعده عن الناس، فلينفّذ قراره الذي انتهى إليه، بعد أن سقط عن ظهر فرسه.

كان يحسّ ناراً تتأجج في داخله؛ يحسّ وهجها في عينيه حتى أنه ليتساءل: هل لاحظ القريبون منه انطفاء البريق فيهما؟

ما كان يحسّ بالأيدي وهي تنفض التراب الذي علق بثيابه، انها تلامسه، ولكنه كان يحسّها سياطاً تلهّب ظهره وكتفيه وأكمامه.. كانوا يركضون لينفضوا التراب عنه، لكنه- وحده- الذي كان يرى فرسه وقد سقطت على صدره وحلقه. أحسّ أن إحدى قدميها قد داست على حنجرته فمنعت الهواء عنه. كلّ من رأوه ظنوا أن فرسه قد سقطت على الأرض وأسقطته، ولكنه وحده الذي يعتقد أنها جثمت على جسده لا على الأرض.

كيف، وهو أمير المنخورة، ان يردّ هذه الإهانة لفرسه؟.. تظاهر بالهدوء حتى إذا تأكد من ارتجاج بوّابة الإمارة، طلب- على غير عادته- كأساً كبيرة من الخمر ارتشفتها بسرعة. هوذا نباح الكلاب يقلقه، ويهزّ أعصابه. تتراءى لـه أفواه الكلاب على مقربة من وجهه.. فيصرخ:

- اسكتوها

هوذا يحسّ ((بالكحيلة)) التي تركها على مقربة منه وهو يرتشف كأسه؛ وكأنها توجه لـه سهاماً من النار.. فتدخل من فتحات عينيه لتثقب جمجمته وتتلولب في أعصابه بدءاً من نخاعه الشوكي وحتى الفقرة الأخيرة من عموده الفقري مروراً برئتيه اللتين يحسّهما في صدره.

لم تعد ((الكحيلة)) فرسه، بل اضحت عدواً. لن يأبه لناصيتها البيضاء، ولن يأبه لنظرتها. عليه أن ينتهي من سهام النار التي تكويه في كلّ مواضع جسده.

طلب أن يحضروا لـه ((الجفت)) ووضع طلقتين في سبطانته المزدوجة. نظرت إليه بحنان، حاولت أن تقرّب رأسها لتتشممه، ولكنه صرخ: ((ابعدوا هذه الخائنة.. عني لا أريد أن أرى عينيها)).

كلّ شيء كان في تلك اللحظات، يفوح برائحة العدائية والخيانة:

الكحيلة، البشر، التراب، نباح الكلاب، طه الأعمى، ابن عيسى، غالب الوالبي...

هوذا شبح الدم يتكوّر في دماغه كالقيح...

هي ذى ((الكحيلة)) أضحت خائنة، لا فرق بينها وبين صبّوحة الخليل.. ارتجفت شفتاه، واصطكت أسنانه بعضها ببعض. رفع ـ بلحظة خاطفة ـ أخمص الجفت على كتفه. صوّب باتجاه الرأس تماماً، ثم دوّت في فضاء مبنى الإمارة طلقتان.

تماسكت ((الكحيلة)) لحظات.. ثم هوت على الأرض.

نهض عن كرسيه الخشبي.ـ وبصق عليها.. ثم تابع إلى غرفته متثاقلاً وبعد خطوات كانت شفتاه تتمتمان:

-هذا جزاء الخيانة..

تلفّت إليها، وحاول أن يرفع صوته:

-أنا قاسم المدهون، أنا الأول وأنا الأخير.

استلّ بلسان مخدّر كلمات مشتتة:

-أنا الذي اشتريت مجدى بالمال؛ وبالمال اشتريتكِ، وبالمال سأشتري فرساً أفضل منكِ لا تغدر بي.

في تلك الأمسية، أطلق رجال هذّال الحسن كلابهم في باحة الإمارة على عادتهم، بعد أن رموا بالكحيلة بعيداً في أحد الوديان القريبة من المنخورة، ولكن نباح الكلاب جاء خافتاً، أقسم الكثيرون أنهم لم يسمعوه، كما كانوا في كل ليلة؛ حتى أن هذّال الحسن، الذي سيطرت الدهشة عليه تساءل وهو يمشي بين أغصان الأشجار وحيداً:

-هل أضحت الكلاب حزينة؟

وأضاف مستدركاً بعد خطوات:

-أم أنها غاضبة لأن عظام ((الكحيلة)) ولحمها صارا من نصيب غيرها من الكلاب التي تمرح في ظاهر القرية ووادِيها؟

هوذا عالم الدهشة، أضحى صمتاً وأسئلة..

ها هوذا عالم الطلقات والدم والخمر، اضحى قهقهة وانتصاراً؛ عالمان يتجاوران جنباً إلى جنب في مبنى الإمارة. قريبان لكنهما متباعدان. في ذلك العالم، وقد انتصف الليل، انتهى قاسم المدهون، من قنينة خمرته المفّضلة، وإذ ارتشف كأسه حتى الثمالة، أداره في يده وألقى به إلى الجدار، حيث تكسّر إلى شظايا. في تلك الساعة، أحسّ قاسم المدهون برغبة إلى المرأة.

أنه يحّن إلى كل شيء فيها، يحنّ إلى صدرها، وشفتيها.. وابتسم لخاطر مرّ به؛ فلماذا كان يقبّل فخذي صبّوحة الخليل، ولا يقبّل فخذيّ زوجته؟ ولم ينتظر إجابة، فلقد وقف.. وإذ نزع ثوبه، سقط على الأرض، لكنه لم يغضب هذه المرّة. أحسّ أن يد امرأة تدغدغه، ومن شدة ضحكه فقد سقط، وعندما راح يتلمّس قاعدة كرسيه ليستند عليه، راح يضحك بصوت عالٍ أحسّ أن شيئاً حارقاً يكويه في معدته، ويرتفع إلى حنجرته وفجأةً راح يتقيأ.

إتكأ على مرفقيه وراح يتقيأ كان يحسّ لهيباً يخترق عينيه في أثناء الإقياء وإذا توقف، نظر بتقزز إلى الفضلات التي أفرزها.. فحاول أن يبتعد.

ظنّ انه ابتعد، وصار في منأى عن اقيائه، وإذ لم تساعده يداه وقدماه على النهوض، اضطجع على جانبه الأيمن ونام.

امتصت السجادة التي ارتمى عليها العرق الذي أفرزته جبهته ووجهه وراحتا كفيه، حتى أنه أحسّ بضيق من تلك الحشرجة في حنجرته، فكان يتقلّب على ظهره تارةً وعلى صدره تارةً أخرى، وعلى جانبه الأيسر تارةً ثالثة، ثم ينقلب أخيراً على وجهه لعله يتخلّص من هذا الضيق الذي يعاني منه في تنفسه. أنه يتشمم رائحة غريبة، نتنة، متعفّنة، تسدّ فتحتي أنفه.. وتنتشر في ظلام الغرفة وصمتها، لكنه على الرغم من عطوره المفضّلة لا يعرف كيف طغت تلك الرائحة عليها.

في الصمت والظلام وتلك الرائحة الغريبة، كانت به رغبة لفخذي امرأة.

خلع عباءته، ونزع ثوبه، ثم صار إلى حالة عراء كامل.. وتقدم منتشياً من فراش حسنة.

توقف مترنّحاً وهو يتأمل جسدها بعد أن أزاح الغطاء عنه. فتحت عينيها ثم رفعت ساعدها الأيمن لتخفيهما..

-كل شيء جاهز.. يا منيرة!

ونترت حسنة ساعدها عن عينيها ثم تأملته، وقالت:

-الخمر تدلّ على الخيانة..

ضحك قاسم المدهون وارتمى على ركبتيه محاولاً أن يتلمس صدرها فأزاحت يديه وقالت:

-أنا حسنة..

لم يُحبْ امتدّ الصمت خيوطاً لها شكل الأفاعي وأنياب الذئاب. أحسّ أنه في عالم من ضباب، وعاصفة رملية.. تدمي عينيه، ترفع ثوبه الفضفاض إلى الأعلى.. تراءت لـه بسمة سخرية على طرفي فمها. انتفض متمايلاً، ونظر إلى سقف الغرفة.

عادت إليه صورة قديمة ما برحت ذاكرته يوماً، تراءى لـه غالب الوالبي وقد تقدّم منه على المقبرة... وصفعه... تلولب القهر، حتى أضحى عاصفة من رمال عتية. لعبت بثيابه وراحت

ترفعه إلى الأعلى. أمسك بقضيب من الرمان كان مرمياً على مقربة من فراش حسنة وانهال به ضرباً على جسدها.

انقلبت على وجهها دون أن تصرخ.. وفي كلّ ضربة من القضيب كانت تضغط بأسنانها على طرف اللحاف.

بلحظة نزق، قال قاسم المدهون وهو يلهث:

-عاهرةٌ أنت يا ابنة الكلب.. لماذا لا تصرخين؟!

أدارت وجهها إلى النافذة، فتلفت حيث تراءى لـه ((الكحيلة)) وهي تنظر إليه، نظرة هرب منها عندما كان يصوّب الطلقات إلى رأسها، مدّ يديه إلى الأمام رافعاً راحتي كفيه ليبعد نظرات الفرس عنه، لكنه أحسّ أنها ترفع قدميها في الهواء إلى الأعلى وهي تحمحم لتضربه، فصرخ مذعوراً:

-يا هذّال!

***

في تلك الساعة من الليل، كان غالب الوالبي قد دفع بالكحيلة إلى حفرة في الوادي الذي رماها رجال هذّال الحسن فيه. رفض أن يجعل الحفرة بمستوى الأرض، لكنه جعلها على شكل قبر فوضع كمية من الأحجار على هضبته الصغيرة.

وعندما عاد مع الفجر كان يتذكر نايفاً العباس وأبا حسن القحطاني، وابن عيسى وطه الأعمى.. وتمتم مع الرطوبة التي كانت تنفذ إلى عظامه، حيث كانت المنخورة تكب على وجهها نائمة في ذلك الفجر بكلمات بقيت في صدره.

في تلك الساعة من الفجر كان هناك عالم من الصمت الكئيب في غرفة طه الأعمى، ثم كانت شهقة احتضار أخيرة لفظها طه الأعمى مع دفقة من دم سالت من زاوية فمه اليمنى.

***

قليلون هم الذين ودّعوا طه الأعمى إلى المقبرة، لكن ابن عيسى كان مفجوعاً حتى لقد استغرب غالب الوالبي، وهو يتأمله... خانت الدموع ابن عيسى، بكى بحرقة وألم، وبعد أن جلس القرفصاء وهو ينظر إلى قبر طه الأعمى قال كلمات ضاعت نصف حروفها من البكاء:

((من لم يمت بالسيف ماتَ بغيره.. يا طه!

دعنا من هذا ..

أنا أعرف اللحظة التي يصرخ فيها الطفل.. بعد أن يهبط من رحم أمه، وهو يحمل معه خلية الموت، التي تكبر مع الأيام، لكنني حزين

-يا طه!- لأن أحداً لم يجبك على سؤالك: ماذا جرى للناس؟

أعرف أشياء ولا أعرف أشياء كثيرة. أعرف أن الناس في المنخورة تساوت لهم الحياة والموت، لكنني لا أعرف لماذا؟.. ولا أعرف كم هو عمري الآن وكيف سأموت، هل سأموت بضربات كالتي انهالت على جسدك؟ .. صدقني يا طه!.. لا أعرف هل بلغت الأربعين أم أن عمري ألف سنة، فالزمن يمّر دون أن يتوقف. ما يؤلمني أنني لا أستطيع تحديد لونه هل أسود لون هذا الزمان، أم أنه أصفر؟ هل يدرك الناس في المنخورة أن السوط فوق رقابهم فلم تعد تتألم، وأنه ترك بصماته على أجسادهم فحفرها كما يحرث المحراث أثلاماً في الأرض؟.. وإذْ رفع رأسه عن حفرة القبر، ونظر في عيون الناس، قال:

((ما بال الزمان.ـ يا أهل المنخورة؟)).

هل العلة في الزمان، أم فينا يا أهل المنخورة؟.))

وقفز واقفاً، حيث خطيب المبطون يجلس القرفصاء مغمضاً عينيه متظاهراً بالحزن.. فحاول ابن عيسى أن يمسك بعضوه التناسلي، لكن خطيباً المبطون وقف ليقول غاضباً وبصوت مرتفع:

-ابعدوا هذا المجنون عني!

فقال ابن عيسى، بعد أن مسح بقية دموعه بكمّ ثوبه:

((لن أسأل ثانية يا أهل المنخورة..

فنحن أشباه رجال..))

وإذ أشار إلى العضو التناسـلي لخطيب المبطـون، قـال وهو يقهقه:

((اسألوا خطيباً المبطون.. أين أضاعه؟

هوذا العمر- يا أهل المنخورة- أضحى ثقيلاً وطويلاً..

فلا تسألوا ولا تشغلكم الأفكار لقد طلّقتم الأفكار. ما عدتم تفرّقون بين ركلة القدم أو لمسة حنان. هل باستطاعتكم أن تعرفوا أين اختفى الظلّ؟.. وأين الأصل يا أهل المنخورة، أين الأصل؟))

3

هاهي ذي المنخورة بأزقتها الترابية، وبيوتها الطينية المتلاصقة، قرية لم تعد ضيقة الصدر، راحت تستقبل أفواجاً من الناس، يمموا وجوههم شطر ضريح أبي ذرّ الغفاري.. عجائز وشباب وكهول وأطفال.. بدأوا يتوافدون على المنخورة، يمدّون أيديهم ليتلمّسوا جدران الضريح الخارجي، حتى إذا وصلوا إلى قضبانه الحديدية، فإنهم يقبّلونها وهم يغمضون عيونهم، وشفاههم تتمتم، بالأدعية والرجاءات.. وتندفع الأيدي عبر القضبان لترمي بقطع معدنية من الذهب أو الفضة أو المال فوق الضريح.

هاهي ذي المنخورة لم تعد ضيقة الصدر، حتى حيطانها الطينية في الشارع الكبير، تطاولت إليها الأيدي، فحُفِرت عليها كتابات تدعو لقاسم المدهون ليكون أميراً ((ليوم الدين)) وليوم ((الحشر والنشور)).. ولكنها، بالمقابل عرفت كتابات، حُفِرت على عجل وبحذر، تنبّه الناس إلى أن قاسماً المدهون كغيره من البشر، سيموت يوماً، وأن من أكبر الكبائر (الشرك بالله).. ولكن رجال هذّال الحسن كانوا يسرعون في الصباح الباكر ليزيلوا تلك الكتابات بالفؤوس والمعاول.. ولأن هذا الأمر أقلق هذّالاً الحسن فقد بّث عيونه لتقيم من أول الليل وحتى الصباح في الشارع الكبير. كانوا يحملون الفوانيس في الليالي المظلمة، ويتركونها في الليالي المقمرة، فلا بدّ من أن يقع هؤلاء المشاغبون في قبضة العدالة يوماً.. واستكان أصحاب البيوت في الشارع الكبير، بعد أن لاحظوا أن عيون هذّال الحسن لا تنام. أعادوا ترميم جدرانهم وطلاءها بالكلس الأبيض.

ولم تمض عدة أيام حتى استيقظت المنخورة فاغرة الفم، مفتوحة العينين بأقصى اتساعهما، فقد وُجِدَ أن عدداً من رجال هذّال الحسن في تلك الليلة، وقد كُممت أفواههم وربطت أيديهم وأرجلهم بحبل متين؛ اثنان في أول الشارع، واثنان في نهايته. وكتبت على الجدران كلمات أقلقت هذّالاً الحسن، ولم يستطيع قاسم المدهون أن يغمض عينيه.. وهو يحاول أن يفهمها، كانت تلك العبارة باللون الأحمر تقول:

((يا أبا ذرّ.. كم يرتكبون باسمك من فسق)).

أُزيلت العبارة بالفؤوس والمعاول، وشاهد شارع المنخورة الكبير رجال هذّال الحسن بعدد أكثر مصطحبين معهم كلاباً كبيرة الحجم.

***

يشيل الحذر زوبعة من رمال داخل نفسه، فيرسم بسمة على شفتيه. تحاول ((الكحيلة)) أن تفترسه ليلاً، وهي ترفع قامتيها؟ يهرب منها، ودائماً يستيقظ فَزِعاً. يحسّ أن حنجرته قد غزاها التشقق والجفاف فلا يجد ملاذاً إلاّ كأساً مترعة بالخمر؛ فيدلقها في جوفه دفعة واحدة.

باستطاعته كما كان يتصوّر تلك البسمة في أحلك الساعات التي قد يتعرض لها، لكنه لم يستطع أن يرسم بسمته المعهودة عندما علم بما انتهى إليه رجاله في الشارع الكبير، حتى لقد قال وهو يبصق:

-كلاب.. ماذا يريدون وماذا يقصدون؟

وإذْ حاول هذّال الحسن أن يبتسم، لعله يمتّص شيئاً من غضب قاسم المدهون الذي ظهر جلياً في شفتيه وما بين عينيه، قال أمير المنخورة:

-أنا الذي جعل من المنخورة بلداً طار اسمها بين البلدان، وأنا الذي أقمت المزارع، فلم أترك أهلها ليكونوا عاطلين عن العمل. قاطعه خطيب المبطون: -ليس لنبي كرامة في قومه يا مولانا!.. ولكنك أنت الكبير والكبير هو الذي يستوعب الصغار. أنهم- بالفعل- كما قلت، كلاب، لكنني أتمنىّ- أطال الله في عمرك- أن لا تأبه لنباحهم.

قال قاسم المدهون، وهو يحّس بشيء من الراحة والزهو:

-لم أكن أدري أن بعضهم سيكون أفعى في صدري، وأنا الذي سقيتهم من عطش وأطعمتهم من جوع وامنتهم من خوف.

قال هذّال الحسن، بلهجة وعيد:

-كل شيء في أوانه يا مولانا!

نهض قاسم المدهون نزقاً، وقال، وهو ينظر إلى المنخورة من خلال النافذة:

-هذّال.. لم يعد هناك صبر في الصدر، فلا تأخذك شفقة ورحمة بهؤلاء الذين يتطاولون. عالمنا الذي بنيناه مقدساً، يجب أن يظلّ مقدساً.

ثم تلّفت إلى هذّال وقال:

***

-هل فهمت.. ما قلت.. يا هذّال؟!

لم ينس تلك الليلة التي قتل فيها ((الكحيلة)). لم ينس الأحلام المزعجة التي تناوبت على صدره، لكنه كان يعاني قلقاً غريباً هذه المرّة وكان السؤال الذي يضجّ في أعماقه:

-من هم هؤلاء الذين تطاولوا على رجاله؟.

وتمددت الإجابة في أعماقه، فأشاعت في نفسه فرحة، حتى أنه ابتسم بسمةً حقيقية فقد تراءى لـه أن رجاله عادوا بأصحاب الفعلة ؟؟، وكانوا مقيدين بسلاسل حديدية في أيديهم وفي أعناقهم، ورؤوسهم منكّسة في الأرض وعيونهم ذليلة. تذكر أن الله غضب على آدم، لأنه لم يمتثل لوصيته فكان عقابه شديداً حيث أبعده عن السماء ليكون في الأرض، وهو قاسم المدهون الذي سيعرف كيف يعاقب هؤلاء الذين تطاولوا على رجاله.

تمدد على السرير، وهو يمنّي نفسه بالخبر الذي سينتظره بفارغ الصبر. أحسّ أن أعصابه قد غدت آمنة مطمئنة من الاضطراب، حتى أنه لم يكمل كأس الخمر بل قذف بها من نافذته، وعاد إلى سريره ليغمض عينيه.

-أين أنا الآن؟

سمع صوتاً من أعلى الشجرة، يقول له:

-أنت ضيفنا.

وقبل أن يرفع رأسه ليتطلع إلى الأعلى، تناهت لـه قهقهة إمرأة.. حاول أن يبحث عنها، فقالت له من وراء جذع شجرة أخرى:

-انزع ثيابك!

وقبل أن يكمل الجملة التي تمتم بها، رافضاً نزع ثيابه، أحاطت به دائرة من القرود من مختلف الأشكال والأحجام.. وبأصوات مبهمة، غامضة، تدافع إليه عدد منها، تشبثت بظهره، وفوق كتفيه، تشبثت بأطراف ثيابه من الأمام والخلف، حتى أنه أحسّ باثنين منهما يتسللان إلى ما تحت ثيابه، وراحا يسحبان سرواله إلى الأسفل. كان مستسلماً تماماً، وكان مدهوشاً لأنه أضحى عارياً وثيابه إلى جانبه ممزقة بأظافر القرود وأسنانها.

حاول أن يسترَ عورته بيديه اللتين تصالبتا فوق عضوه الذكري، وإذ تناهت إليه قهقهة امرأة من مكان لم يستطع تحديده، فقد بحث بعينيه بكل الاتجاهات.. وإذ سمع صراخ جماعة من القرود تدوّي قوية، وتردد الغابة أصداءها، حاول أن يجلس القرفصاء، لكنه سقط على ظهره منفرج الساقين بعد أن دفعه قرد كبير الحجم في صدره، وتقدمت مجموعة أخرى لترفعه من كتفيه وقدميه، وراحت تهتزّ به، وهي تتوجه به إلى مبنى الإمارة، حيث القرود أمام بابها الحديدي.

قفز فزعاً. تطلع إلى ثيابه، وتلمّس جسده، ولأنه كان يحّس بعفونة عرقته، وأن رائحة القرود مازالت تسيطر عليه، كما يسيطر عليه صراخها، فقد فتح النافذة بحثاً عن نسمة رطبة في هدأة الليل.

وجافاه النوم..
وكان عليه أن ينتظر حتى الصباح.

***

صرخ قاسم المدهون بقوّة، وهو يتساءل: ((ما المقصود))، لكن هذّال الحسن استطاع أن يبدد الصرخة، وتبخّر السؤال بعيداً في الفضاء وظلّ أمير المنخورة في منأى عن الإجابة، فهو لم يكن يعلم ماذا يدور في ضريح أبي ذرّ الغفاري، ولو أن الغضب لم يسيطر عليه، لاستطاع أن يصل إلى إجابة. كان همّه أن يصل إلى أولئك الذين أهانوه في رجاله، أما لماذا حفرت تلك العبارة على الجدران الطينية في الشارع الكبير، وماذا كانت تعني، فإنها ما عادت تعنيه.

لم يكن يدري أن الأموال التي كانت تُرمى فوق ضريح أبي ذرّ الغفاري، كانت تجد طريقها- في أواخر كل ليلة- إلى جيب غضّاب المدهون، يتصدّق ببعضها إلى الفقراء من أهل المنخورة- وكان بعضهم يرفضها- ويشتري الشموع والكاز للإضاءة.

لم يكن يدري أن القاعة التي أقيمت ملاصقة للضريح، لينام فيها زوّار القرى المجاورة، أضحت عالماً آخر لغضّاب. كان في البدء يتسلل إليها ليلاً على رؤوس أصابعه، ومع مرور الأيام صار لا يأبه لنظرات الحارس العجوز المستنكرة. أضحت تلك القاعة ملاذاً آمناً للهوه وعربدته. لم يعد يذهب أبو نادر الموشوم بخمره إلى بيت غضّاب لكنه أمسى يحملها ليلاً إلى ضريح أبي ذرّ الغفاري، فيتناولها غضّاب، من الباب الخارجي ويجزل لـه العطاء مما جمعه من فوق الضريح.

لم يكن يدري أمير المنخورة أن أول ضحية لغضّاب المدهون، كانت فتاة في الرابعة عشر من عمرها.. جاء بها أهلها إلى الضريح، بعد أن أخفقت تمائم شيخ وطلاسمه في شفائها من الشلل الجزئي، الذي أصابها في رجلها اليمنى.. ولأنهم تركوها، بعد أن نصحهم أبو المدّاح الأشرم، لعلّ مباركة أبي ذرّ الغفاري تشفيها. فقد وضعت في القاعة.. وفي الليل، وقف غضّاب المدهون مدهوشاً أمام جمالها. كان مسحوراً أمام عينيها العسليتين الواسعتين وشفتيها القرمزيتين. كان مفتوناً بأسنانها وأنفها الأشم.

مدّ يده بكأس الخمر إليها، وقال لها:

-إنه الدواء. ستجدينه حارقاً ولكنك ستعودين معافاة إلى قريتك.

ارتشفت الخمر ببطء، وفي كلّ مرة كانت تغمض عينيها، وكان غضّاب، يرتشف الخمر متلذذاً وراء الستارة القماشية الخضراء.

دارت القاعة في عينيها. أحسّت أن كلّ شيء يدور. أرادت أن تتكلّم، كانت تخرج الكلمات من فمها ثقيلة، بطيئة.. وضحكت ثم قهقهت بصوت عال.

على يدها اليسرى ورجلها اليسرى، راحت تجرّ جسدها حيث كان غصّاب المدهون يجلس على فراشه قبالتها وتمتمت:

-هل أعود كما كنت يا أبا ذرّ؟!

وكتم غصّاب ضحكة كادت تفلت منه؛ حتى إذا نظرت إليه، هزّ رأسه إلى الأعلى والأسفل، ثم خانتها يدها اليسرى، فأكبّت على وجهها، وانحدرت دموعها على خديها بصمت في البدء، ثم ارتفع صوتها ببكاء، حاولت أن تقطعه وهي تضع فمها على سجادة القاعة السميكة.

اقترب منها، وسحبها إلى الفراش. راح يتحسس خدّيها بيده ثم امتدت إلى رقبتها وصدرها.

شعرت بدم حار ينبثق منها؛ فصرخت.. لكن غصّاباً، قال لها مُتجهّماً:

- انها بداية العافية، والمطلوب منك أن تسكتي، فلا تقولي شيئاً حول هذا الموضوع حتى لأبيك وأمك، وإلا فإنك ستظلين مشلولة.

لم يكن يدري أمير المنخورة بتلك الحكاية، وحكايات أخرى لأنه كان يريد أولئك الذين أهانوا رجاله، حتى إذا طال به الانتظار وعلم بحقيقة ما كان يتمّ في ضريح أبي ذرّ الغفاري، قال وهو يهزّ رأسه:

-إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"

في مساء اليوم التالي، عادت مع والديها إلى قريتها، لكنها قالت لهما إنها رأت أبا ذرّ الغفاري بأم عينيها..

ومرّ يوم ويومان.. وعشرة..

ومرّ شهر.. وظلّت تعاني من شلل رجلها اليمنى..

وتحول كلّ شيء في عينيها إلى رماد

***

لا الكوابيس معتوهة، ولا القرود بليدة..

الكوابيس تلاحقه في أول الليل، والقرود تحاصره بعد منتصف الليل حتى الفجر.. وقاسم المدهون، أمير المنخورة، يظهر بسمته، لكنه يرفض أن يعترف بانكساره.

هو منتصر في زمن خاصمت فيه الغيوم أرض المنخورة الشاسعة، لكنه يرفض دائماً إلا أن يكون ضاحكاً.

البشر، والقطط، والكلاب.. والزمن.. جميعها تظلّ مطأطأة الرأس، رهن إشارته وكلمته؛ عليه أن يظلّ ضاحكاً، بينما على الآخرين أن يعرفوا الهزيمة، وأن يتذوقوا معناها.. عليهم أن

يعرفوا معنى الدموع مع أنياب الكلاب التي توغل في أجسادهم تمزيقاً، عليه أن يتمدد فوق جروحهم.. وسيعرف كيف يضحك من أعماقه على أنينهم.

***

غالب الوالبي ليس وحده الذي يعرف ذلك عن قاسم المدهون، لكنه يتساءل: في عصر الرعب والهراوات والبصاصين، كيف يمكن لـه أن يلتقي بأولئك الذين يحرّفون الحقيقة؟ وحتى إذا عرفوها، فهل بإمكانهم أن يهمسوا بما يعتمل داخل نفوسهم؟

يراقب كل شيء ويسمع كثيراً من الأشياء، دون أن تفصح الألسنة عن أوجاع أصحابها. يحس بالقهر يتأرجح بين الحناجر والألسنة، فلا تعبّر الحناجر عن قهرها إلاّ بالصعود والهبوط في الأعناق، ولا تعبّر الألسنة عن شيء إلا أن أصحابها يضغطون عليها بأسنانهم.

ليست مصادفةً- إذن- أن أسبلت المنخورة عيونها، وليست مصادفةً أن أسبل الناس عيونهم ، ولكن، إلى متى سيستمر ذلك؟.. سؤال طرحه غالب الوالبي على نفسه وهو يرتمي على طاولته الخشبية العتيقة.

كان نهباً لأفكار كثيرة وأسئلة كثيرة، فالإنسان يُمضي عمره باحثاً عن العدالة والطمأنينة، ولكن لا معنى لهذا أمام "الطغيان". أنه لا يطمح إلى الزعامة أو السلطة، ولكنه يريد عالماً من المساواة والوئام والحبّ، ولأنه يعرف أنه في زمن أعمى تقوده عصا الظلم، فإنه كان يجد نفسه دائماً في مواجهة الحديد ونباح الكلاب لتنهش الجسد ثم الروح.

أنه يستنزف سنوات شبابه في هضم معرفة المجتمع وقراءة التاريخ ومحاولة التأمل فيما يجري حوله بهدوء، لكنه كان يعود دائماً بخيبة أمل، فهو مثلما يدرك أن للقلب حياته، فإنه يدرك- كذلك- أن للعقل حياته.. وإذا ما خضع لموقف المفاضلة بين القلب والعقل، فإنه سينتصر للعقل.

لم يكن يتساءل: كيف يعيش الناس في المنخورة وعيونهم في الأرض، لا تملك الجرأة أن ترتفع عالياً حتى في وجوه الناس، بخاصة إذا وُجد أحدٌ من أتباع قاسم المدهون؟.ـ لكنه كان يتساءل: لماذا؟.

قال: "ماذا أعمل في وسط عالم رضي بالمكاسب الشخصية وضرب بمصلحة المنخورة عرض الحائط؟.. أن الثقافة- هنا- ليست فضيلة بل لقد أضحت النقيض لعالم قاسم المدهون قتناعتي الوحيدة أنني أحاول باستمرار فهم ما يقال. لم أكن مهتماً بالكلمات وأصدائها، لكنني أهتم فيما يأتي بعد الكلمات، الكلمات تبني عالماً من الفضيلة والحب والإخاء، وما يتمّ بعد الكلمات كان عالماً من الرذيلة والبغضاء والكراهية؛ فكيف لي أن أهضم هذا التناقض؟

إن أكثر الكلمات بساطة، إذا قيلت بلهجة صادقة تبكيني، لا أستطيع أن أوقف دموعي مهما حاولت، لأن الكلمة النابعة من القلب لا يملك أمامها قلبي أن يقف متفرجاً دون دموع.. وبالمقابل، فإن أكثر الكلمات قوّة وتبجحاً، لا تستطيع أن تزحزحني عن قناعاتي، وذلك أن تفكيري لا يتجه إلى الاضطهاد أو الزعامة ولكنه يتوق برغبة حارقة إلى العدالة وتراب المنخورة. أن كلّ شيء يعمل بروح الضعف مصيره إلى الفشل. كلّ ما حولي يعمل بروح الضعف فمتى أرى أرواح البشر وأجسادهم تعمل بروح القوّة واللهيب اللذين لا يعرفان الوهن أو الخمود؟

تصلني بعض الكلمات متهكمة من مهنة أبي، ثم تتساءل ساخرة:

ما معنى أن يتطاول ابن صالح الوالبي على أولياء الأمر؟

لن آبه لسخريتهم، لأنني اعتقد جازماً أن هناك نوعين من المعجزات، معجزات الجسد ومعجزات الروح.. ولأنني أؤمن بالثانية فلن أبه لكلماتهم.

أعرف ما يريدون. يريدون أن يخمدوا جذوة روحي، وروحي لن يخمد تأججها كلماتهم الساخرة.. لن أمِلّ الانتظار، ولن أخاف الموت، صحيح أننا لا نستطيع أن نقهر الموت، سواء أجاء بعد المرض أو بنهش كلاب قاسم المدهون في أجسادنا أو غير ذلك، ولكنني أستطيع أن أقهر الخوف من الموت. ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أبقى في عزلتي بين الجدران والكتب؟.. هل أحرق سياسة اللاعنف اليوم لأحرق ظلم الحجاج ابن يوسف الثقفي غداً.. واستسلم إلى الانتظار في عالم ساكن سكون الأموات؟

هل أظل أحلم بحمدان القرمطي؟

وماذا عن العمل، وعالم المنخورة يتسع جغرافياً ويتوسع برجال قاسم المدهون؟.. غاندي كان نحيل الجسد ونباتياً.. ومع أنني اختلفت مع سياسته إلا أنه عمل شيئاً لأمته ولملايين الجائعين. نابليون كان قصيراً ومع هذا فقد كان يتمتع بذكاء قاده إلى النصر من معركة إلى أخرى.. وأنا لا أريد أن انتصر، كل ماريده أن أكافح من أجل النصر.. فأية وجهة أسلك وعلى الضمراوي الذي كنت أثق أنه سيكون معي سقط على الطريق، وراح يرسم اللوحات لقاسم المدهون؟

أية وجهة أسلك ولم يعد للحبّ من معنى، و لم يعد للإرادة من معنى، فمن حولي تقوقعوا على ذواتهم ووضعوا رؤوسهم في الرمل كالنعامة؟

قالت لي منيرة ذات يوم: علينا أن نهتم بصرخة إنسان يطلب العون. سألتها: أليست الصرخة صرخة إنسان أنها صرخة الجماعة.. فاستدركت بسرعة، وقالت: "علينا أن نهتم بصرخة المنخورة،بما فيها من بشر وبما فيها من تراب". وإذْ نظرت إليها لأهمس: وماذا عن المديح الذي يكال لقاسم المدهون؟.. ماذا عن التصفيق الذي نسمعه إذا مامرّ (مولانا)

في أحد الشوارع؟.. ماذا عن البسمات التي ترتسم على الوجوه حتى لبصقة يبصقها؟ قالت واثقة: "قطرة المطر.. إذا ما استمرّت، تثقب أقسى الصخور"

بينما أتكلّم، كنت أفكر في نفسي دون أن انطق بأفكاري، "كل شيء أراه واضحاً- يا منيرة!- كل شيء ينام في أعماقي ليستيقظ وهو أكثر نشاطاً وحيوية. لا شيء يموت- ذات مَرّةٍ قال لي أبي: "حين تقف أمام الأبواب ولا تُفتح لك، لا تمسك بالمطرقة لتدق بها.. بل استخدم بندقيتك وأطلق"!.-

لو كان أبي مازال حياً لسألته: ربما واجهتني من أصحاب البيت بنادق وخناجر.. فماذا أفعل؟

الآن.. أدرك أن الطريق ليس سهلاً، لكنني على قناعة لن أحيد عنها، فما دمت أحمل الحقيقة فلن أقف وراء الجدران وبين الكتب فقط. لا بدّ من أن عالم المنخورة فيه بشر يتألمون مثلي، ولكنهم لا يتقدمون. ربما يخافون المبادرة، فَلِمَ لا أشارك هؤلاء آلامهم ونبحث عن فجر جديد نريده أن يبزغ؟

صديقي نايف العباس.. ينهض من قبره حيوياً، ضاحكاً بعينيه السوداوين الواسعتين، وصدره المليء بقصائد المتنبي- كان يعطي الناس دون أن يفكر أنه سيأخذ منهم. قتله قاسم المدهون، وهذا أخوه محمود عباس؛ كلّ شيء ينضح فيه حيوية وتفاؤلاً، يشبه أخاه في كلّ شيء إلا أنه يكره الضحك والابتسام من محمود العباس، والذي يصغرني بسنة واحدة، تعلّمت أن كلّ شيء ممكن فلا معنى لليأس مع العمل والإرادة، فما دام هناك إخلاص هناك خيانة؛ وما دام هناك حّب هناك كراهية، وما دام هناك تضحية هناك أنانية.. ولكن لنثق أن الحقيقة هي التي ستنتصر.. كان محمود العباس يقول: شيئان لا يمكن التحديق فيهما طويلاً: الشمس والحقيقة..

ليلة بعد أخرى..

سنة قحط بعد سنة قحط.. فمتى نصل إلى الفجر؟

لا بدّ من أن يتقدم الإنسان إلى الأمام، وإلا فإنه سيكون صخرة.

الطريقة الوحيدة لإنقاذ النفس هو إنقاذ الآخرين، أو الكفاح لإنقاذ الآخرين.

4

في مساء اليوم الثاني، وعندما كانت تسقط الشمس وراء الجبل، تثاءب قاسم المدهون في فراشه الصوفي، وقال:

-هذه الصحراء، بأشواكها وثعالبها وأرانبها وجرذانها، أرحم من بني البشر يا أبا المّداح:

وقال أبو المداح معقّباً، وهو يبتسم:

-أطال الله في عمرك يا مولانا.. ألم أقل لك أنك صرت تحمل من الهموم مالا طاقة لبشر بمثله. لا بدّ من رحلة للصيد كما قال لك العرّاف.

وامتد بصره بعيداً حيث الجبل، وهمس لنفسه:

-الصيد عذب.. وحكايات البشر تافهة.

وتلفّت إلى أبي المدّاح وقال له:

-كان عليّ أن أجزل العطاء للعرّاف أكثر.

قال أبو المدّاح، وهو يبتسم:

-رجل مشهورله بالقدرة على معرفة طالع الإنسان، وهو- كما أعرف عنه- لا يكذب.

انبهق التذكّر من أعلى قمة الجبل، وجاءه مهرولاً عبر كثبان الرمل والأشواك.

لم يعد باستطاعته أن ينام. ابتعدت الطمأنينة عنه، حيث الكوابيس تلاحقه، كأنما لا تريد أن تتزحزح عن صدره إلا في ساعات اليقظة.. ومن داخل الظلام تنبثق القرود بأشكال متعددة وأحجام مختلفة.. فلا يكاد يغمض عينيه إلا وتتراءى لـه القرود جماعة إثر جماعة، تكاد تثقب صرخاتها طبلتي أذنيه، وإذ يحاول أن يهرب منها إلى حديقة الإمارة، فإن ((الكحيلة)) توجه إليه نظرة إدانة لا يستطيع مقاومتها، فيضع يديه على عينيه، ويصرخ:

-ابعدوها.. ابعدوا ابنة الكلب.

يسافر الصمت بأسئلته المرهفة في خلايا هذّال الحسن. تتراءى لـه أنها تسري مع دمائه؛ يراها في عروق يديه وهي تنبض متوترة ثم تمور هائجة باحثة عن الحل، فلولا قاسم

المدهون ما كان لعالمه أن يضيء، ولولاه لما طار اسمه في آفاق المنخورة، وتغلغل بين حواريها، ولما ارتفع نجمه. إنه يعرف أن اسمه؛ مجرّد ذكر اسمه يدخل الرعب في قلوب الرجال والنساء فهو السوط والخنجر، وهو الحفرة والصّخرة.. إن خبا نجم قاسم المدهون فإن نجمه سينطفئ, هو التابع، وعلى المتبوع أن يظلّ متألقاً. هو الأرض وقاسم المدهون غيوم من مطر؛ فعليه أن يرتشف قطرات المطر وأن تتجمّع السواقي في أرضه ليعيش عالمه، وليكن ربيعه أزهى، وإلاّ ما نفع الشهرة والمال إن لم تتوّج حياته بمنيرة؟

يسافر الصمت بأسئلته في أعماق هذّال الحسن، لكنه يتذكر فجأةً أن أبا المدّاح الأشرم، ذكر لـه حكايات عجيبة عن شيخ عرّاف؛ بطلاسمه وتمائمه، يدخل الطمأنينة إلى النفوس، يطرد الأشباح، ويعطي للحياة معنى جديداً وعذباً بما يصف من أطعمة وأشربة يمزجها بتعاليمه، فأين هذا العرّاف؟

تبسّم هذّال الحسن، وهمس منتصراً:

-لا بدّ من مجيئه..

ضحك وهو يربت على جذع شجرة في حديقة الإمارة؛ وقال:

-لا بد من الاستمرار، فالريح مؤاتية والدروب لنا.

وعندما نبح كلب بصوت اقشعرّ لـه بدنه قبض على خنجره، ورفعه إلى الأعلى.. حيث لمع بأشعة الشمس، ثم ضرب به جذع الشجرة وقال:

-نحن عالمان متناقضان يا قاسم المدهون، ولكن من غير الممكن أن يستمر عالمانا إذا انفصل أحدنا عن الآخر.. فلتبق المتناقضات بعيدة عن الأنظار، لأنني مازلت بحاجتك في حياتي.

وجاء العرّاف...

عبقت غرفة نوم قاسم المدهون برائحة البخور وبعض أوراق الشجر التي أحرقت في موقد النار، أسدلت الستائر تماماً. وجيء بعباءة وضع تحتها قاسم المدهون عارياً، وراح العرّاف يتمتم بكلمات غير مفهومة.

أزاح العباءة بعيداً.. ووقف قاسم المدهون والعرق يتصبب من جسده.

دار العرّاف بمبخرته النحاسية عدة مرّات وهو يتمتم. طلب ماء فاتراً، مزجه بماء الورد وسكبه على جسد أمير المنخورة. طلب إليه أن يسترخي في سريره، ثم حمل العرّاف بيضة بيده اليسرى، وأدار المبخرة حولها عدة مرّات، واستمرّ في تمتمته وكلماته غير المفهومة، حتى انكسرت البيضة في يده.. عندئذ

ابتسم العرّاف وهو ينظر إلى عيني قاسم المدهون اللتين علاهما الدهشة والاستغراب، فقال:

-إنه الحسد.. لكنك ستكون السيد.

قرّب يده من فمه وبصق فيها. اقترب من سرير قاسم المدهون وطلب إليه أن يبصق فيها ثلاث مرّات.

خيّم الصمت؛ حتى كسره قاسم المدهون، بسؤال كان يتلجلج في أعماقه:

-ماذا ترى.. يا شيخنا؟!

قال العرّاف:

-قرية جاحدة وأمير عادل.. فيا للمهزلة.

تساءل قاسم المدهون:

-ثم؟

قال العرّاف:

-قرية لا تعيش إلا في الظلام وأنت النور. استبدل النور بالعصا؛ فالعصا خُلقت من الجنة. لا تأخذك بهم رحمة أو شفقة.. ولكن لا تنسَ أن لروحك عليك مطلباً، وأن لجسدك عليك مطلباً.. فاغتنم شيئاً من الأيام، فأنت أولاً، ومن بعدك ليكن الطوفان... عليك بالصيد بين فترة وأخرى.

سأل قاسم المدهون:

-لا أدري كيف أكافئك على صنيعك.

قال العرّاف، وهو ينظر إلى عيني قاسم المدهون:

-أنت كريم وابن كريم..

ولكن لا تنسَ.. أن تواظب على وضع الأوراق التي سأتركها لك في الماء طوال الليل؛ لتشربها على مدى سبعة أيام.

وإذ تظاهر العرّاف بالخجل.وهو يضع المكافأة في حزامه الجلدي، انطلق من مبنى الإمارة مبتسماً، وراح يتمتم:

-الخراب قادم، والهواء سيغدو ريحاً.. سيكون خراباً.

وانتبه قاسم المدهون على صوت أبي المدّاح وهو يقدّم لـه فنجاناً من القهوة المرّة:

-هل ستبارك رحلة صيدنا الليلة كما فعلت البارحة؟

كنت رائعاً- أطال الله في عمرك- ليلة البارحة.. فالأرنب الذي توجه إليه بندقيتك عليه السلام.

نظر إليه قاسم المدهون، وقال وهو يضحك:

-سأنام باكراً لأنني أرغب في الغزلان، يا أبا المّداح.. ولكن لا تنسَ علياً الضمراوي، خذه معك. سأبقى وحدي؛ فنجوم الصحراء ممتعة ليلاً.

***

خانته ذاكرته في تذكر الاسم، فمن هو الشاعر الذي ذكره لـه خطيب المبطون في إحدى جلساته حيث كانت الخمرة لـه عشيقة؟.. تباً للذكراة والمنخورة اللتين ارغمتاه أن ينسى.

رفع كأسه بين يديه، احتضنتها في لحظة فرح، ولأنه تذكر أن ذلك الشاعر كان يشبّه حافة الكأس بشفتي المرأة، فقد أغمض عينيه، وارتشف منها على مهل.

هي ذى النار ترتفع ذؤاباتها في هدأة الليل في حفرة أقيمت بين الخيام التي ضربت في هذه الصحراء. ها هي ذي الأضواء تبعث بأشعتها من قلب الخيام معلنة عن عالم قاسم المدهون ورحلته التي سيكررها، كلما سنحت لـه الفرصة.

وتوقف ليتساءل: كلّما سنحت الفرصة؟.. لا.. أنا الأول والأخير.

أنا الآمر والناهي، أنا الذي عليه أن يخلق الفرصة، فما أكثر الأحزان في هذا العالم، لهذا فعليَّ أن أخلق عالماً من الفرح بشكل دائم، وليحزن الآخرون. إن وقفوا في وجهي، فالعصا- كما قال العرّاف- خلقت من الجنة. لو لم تكن ذات فائدة، لكان مصيرها النار لتتحوّل إلى رماد. إنها حكمة الحياة فلأهضمها، جيداً.

سأترك العصا لهذّال الحسن. كم أتوق إلى رؤية آثارها على أجساد أولئك الذين يريدون أن يعكروا حياتي سأترك غصّاباً يبني عالمه، ما دام يحافظ على إمارتي، ولن يجرؤ أحد، بعد ذلك أن يتلفظ بكلمة. لن تتوقف الحياة ما دامت هناك نساء يحملن ويلدن، أنا الذي عليه أن يحافظ على مجده، ويعرف كيف يتمتع بالشهيق والزفير.

كان الليل يهبط على عالم الصحراء متناغماً مع همسات ريح خفيفة، وعلى تلك البسمات نام قاسم المدهون هادئاً، كما لم ينم منذ عشرة شهور ، ومع الفجر استيقظ ليجد الجميع في انتظاره. ركب فرسه التي مازالت تتأبّى عليه بين فترة وأخرى، وانطلق متوغلاً إلى (وادي التيس)) حيث تكثر الغزلان والوعول، وإذ تلفّت إلى الوراء، قال ضاحكاً، لأبي المدّاح الأشرم وعلي الضمراوي وآخرين:

-الصيد عذب.. وصحبتكم أكبر كسب.

ضرب بكعبيه بطن الفرس فهبت تنهب الأرض، تبعه الآخرون بخيولهم، ولكن الغبار غيّبه عنهم. كانوا يتابعونه من خلال شريط الرمل الذي كان يرتفع في الفضاء.

من ((وادي التيس)) قفزت كوكبة من الغزلان. هبّ الوعل أولاً وتبعته البقية التي صعدت من الوادي إلى الصحراء. ضرب بطن فرسه بكعبيه بقوّة، فراحت تنهب الأرض، والغزلان أخذت تنهب الأرض كذلك، مطاردة مستقيمة وملتوية. غاب منه الوعل بقرونه كغصن الشجرة فلم يحزن. أنه يريد ظبية بعينها مذ تراءت لـه في الوادي، وقفزت متثاقلة ببطنها. أنه يريدها سيفرِّق جمع الغزلان لتبقى على مرمى بندقيته وحيدة.

كانت هناك رائحة غريبة تنتشر على مقربة من فتحتي أنفيه. لا علاقة لها بعرقه الذي ينزّ من جسده أو جبينه، أو حتى من عنق فرسه، إنها رائحة الدم.

وزغردت نفسه بهاجس:

-بين النصر والهزيمة شعرة، ولن أُهزم.

كان يتشبث بقدميه ببطن فرسه وأمسك برقبتها بيديه. يدور مع الظبية ويندفع كالسهم عندما تركض بخط مستقيم. أحسّ أنها أضحت متعبة وأن فرسه- هي الأخرى- أضحت متعبة:

-لا بدّ من الصبر يا قاسم المدهون.. فقد أضحت وحيدة ومتعبة. طلقة واحدة.. طلقتان، وينتهي الأمر.

تعثّرت الغزالة ووقعت، ثم نهضت لتندفع مرة ثانية. تابعها بفرسه التي كانت تطلق زفيراً فيتكوّن البخار ممدوداً حتى ليظنه أنه وصل إلى ركبتيها.

هي الآن على مرمى بندقيته.

سينتظر دورة ثانية..

كانت البندقية جاهزة والطلقة بانتظار ضغطة من أصبعه لتنقذف حاملة الموت.

ودوّت الطلقة في الصحراء، ثم تبعتها أخرى.. وسقطت الغزالة على جانبها الأيمن.

وهرول الجميع

تأرجح فوق فرسه مزهواً راح يقترب من الجمع الذي تحلّق حول الغزالة. اقترب بطيئاً وترجّل عن فرسه. نظر إلى طلقته التي اخترقت مؤخرة الغزالة، ثم مدّ يده اليسرى، وراح يتحسس جسدها الدافئ وبطنها المنتفخة.

تلفّت إلى أبي المّداح، وقال:

-ناولني قنينة الخمر، يا أبا المدّاح. رشفة واحدة على مقربة منها تساوي كنوز العالم..

مدّ يده إلى خنجره و حزّ الرقبة..

اندفع الدم حاراً. مدّ يده إلى مكان اندفاع الدم منه، حتى إذا صار بها كمية من الدم. قال لعلي الضمراوي:

-ضع قليلاً من الخمر فوق هذا الدم الساخن!

وصّب علي الضمراوي.. حتى امتلأت يداه بالدم والخمر، وراح ينسكب على الرمل، عندئذ، رفع قاسم المدهون يديه إلى فمه، وراح يشرب. إلى آخر نقطة من الخمر والدم في يديه ظلّ يشرب، وبلسان مخدّر، قال لأبي المدّاح الأشرم:

-احملوها إلى الخيمة.

ونظر ناحية علي الضمراوي، وقال ضاحكاً:

-أنها أجمل لوحة يا علي.. فالرحمة أساس الملك والعدل..

وقال علي الضمراوي، وهو ينظر إلى بطنها المنتفخة:

-يا مولاي جرّب خنجرك في بطنها!

وقذف قاسم المدهون بخنجره إلى بطن الظبية فانغرس فيه، واقترب متمايلاً ضاحكاً، ثم أمسك بقبضة الخنجر وشرط البطن إلى نصفين، فابتسم علي الضمراوي، وقال:

- طلقة واحدة أتت بالأم والابن.. يا مولاي!

■■

القسّـــــم الخـامــس

1

دوّي الرصاص في فضاء المنخورة..

شكّل أبناء الحي الشمالي حلقة من الرجال والشباب والنساء متراصفة الصفوف وانطلقوا عبر الأزقة والدروب. هم يغنون فرحاً بقدوم قاسم المدهون من رحلة الصيد، بعد غياب دام عشرة أيام.

صوّبوا بنادقهم إلى السماء وانطلق الرصاص بعيداً في الفضاء..

راح الناس يلتفّون حوله. بعضهم شارك بعفوية، وبعضهم شارك متفرجاً، وكان هناك رصاص طائش قتل في طريقه أربعة رجال، ووقف هذّال الحسن حائراً ما يفعل؛ فأبناء الحّي الشمالي، الذين وفدوا إلى المنخورة منذ سنوات لهم مكانتهم الخاصة لدى قاسم المدهون. ضرب كفّاً بكف لكنه استعان بالصبر حتى خيّم الليل، وأباح ما بقلبه لقاسم المدهون، الذي أشعل سيكارة، ولاذ قليلاً بالصمت ثم قال:

-السياسة فن وخدعة يا هذّال.

قال هذّال الحسن:

-أعرف يا مولاي.. لكن للدم فورة والحقد أعمى.

-أعرف ذلك ونحن علينا أن نضرب عصفورين بحجر.

-كيف سيكون ذلك يا مولاي؟

قال قاسم المدهون:

-اعتقل القتلة لعدة أيام وعاملهم بالحسنى، وقدّم التعازي لأهالي القتلى وشيئاً من المال.. إنه القضاء والقدر يا هذّال!

وإذ ساد صمت قصير، استطرد قاسم المدهون:

-أم أنك تريد أن تعكر ليلتنا بأخبار الموت؟

***

نقل الليل عزف ربابة من مبنى الإمارة وصورة لنساء يرقصن بثياب شفافة؛ وكان قاسم المدهون يرتشف الخمر، ويطلق لخياله العنان في تعرية النساء الراقصات أمامه، حتى إذا هبّت ذكريات الحنين في جسده إلى المرأة؛ همس بكلمات في إذن هذّال الحسن، الذي نهض بعد لحظات هادئاً.. وعاد بكأس مترعة إلى عازف الربابة، وقال هامساً:

-لأنك أدخلت الفرح إلى قلب مولانا، فقد خصّـك بهذه الكأس دون بقية البشر.

تلجلجت الكلمات في فم عازف الربابة، هو ينظر إلى الكأس الموضوعة أمامه. ارتجفت شفتاه وذقنه التي غزاها الشيب.. يدرك أنه على حافة جبل صخري، خطوة واحدة ولا بدّ من أن يكون في الهاوية. طيور متوّحشة أضحت تصفّق أمامه، على مقربة من عينيه تصفق، أنه ليحّس بأجنحة بعضها، تضرب جفون عينيه بقسوة، فيغمضهما على القذى، وإذ يفتحهما بصعوبة ، تتراءى لـه عينا قاسم المدهون مطرقة متوهجة.. وهي مرفوعة إلى الأعلى لتسقط على رأسه كما الصخرة.

قال لهذّال الحسن: أمهلني لحظات يا سيدي.

وراحت ربابته تعزف لحناً حزيناً كأنما هي إيقاع لخطوات رجل وجد نفسه فجأةً في عاصفة رملية؛ فراح يهتدي بيديه وهو يمدهما في الفراغ خشية أن يصطدم بشيء لا يتوقعه.. فيسقط.

تمايل قاسم المدهون طرباً. حمل كأسه ونهض. قرفص قبالة عازف الربابة، وقاله لـه بلسان مخّدر:

-الكأس بالكأس!. والحسناوات كأس.

حمل عازف الربابة كأسه بيد مرتجفة.. ولامس كأس قاسم المدهون، حيث دلقه دفعة واحدة في جوفه، وطوّح بها بعيداً وهو يدور على كعبيه ضاحكاً، فاصطدمت بقّوة بصورة أبيه حيث تطاير زجاجها وتمزّقت الصورة من الرأس حتى الأنف. نظر قاسم المدهون مليّاً إلى الكأس والصورة، وقال، وهو يبتسم لعازف الربابة:

-أعرف أنه غاضب لأنه لم يشاركنا فرحتنا..

وبعد صمت قال:

-كل شيء يمكن إصلاحه فاشرب كأسك حتى نهايته.

وبخطوات مترنّحة تهادى حيث فراشه الوثير، وجاء بقنينته، فحمل كأس عازف الربابة ثم ملأه ثانية ، حتى انسكب الفائض منه على السجادة السميكة، وقال، وهو ينظر ناحية أجمل الراقصات في تلك الليلة:

-على قدر محبتنا نملأ الكؤوس.

وناحت الربابة بلحنها الحزين ثانية..

فرقعت الراقصة بالصنج تموّج بطنها بحركة مغناجة؛ .. وإذ تقدمت من قاسم المدهون، انفتلت إلى الخلف، ثم رسمت بجسدها نصف دائرة، حيث انقلب رأسها إلى الوراء باتجاه الأرض وقد انسفح شعرها الطويل حتى لامس طرف الفراش. إستوت قامتها ثانية حتى دارت على رؤوس أصابعها. مدت أصابعها إلى أنف قاسم المدهون فلامسته لمسة خفيفة وتراجعت سريعة إلى نهاية القاعة.

نهض واقفاً. نزع كوفيته فشدَّها بأحكام على وسطه، وراح يراقصها؛ يقترب الجسد من الجسد، كما تلتفّ أفعى بأفعى..

هوذا زمن الرقص والخمر في مبنى الإمارة.. فلتضرب الخطوات إيقاعها ليتموّج البطن.. وليهتز الوسط بفرح غامر.

هوذا زمن الأجساد التي انهكها الليل.. فلتنتحب العيون في البيوت الطينية التي انهى الرصاص أبناءها في لحظات طائشة فرحاً بقدوم قاسم المدهون.

هوذا زمن يتنافر فيه الصدق مع الكذب الأعظم، فلينتصر الكذب ولتنتحب العيون بكاءً إذْ طالما أن العيون خلقت للبكاء.

رشفة أخيرة من الكأس الثانية التي كانت مترعة أمام عازف الربابة. لحن آخر يئن حزيناً، لكن أمير المنخورة يسمعه لحن فرح يتغنّى بمجده ونجم صعوده.

هي ذي يد عازف الربابة تتراخى على القوس فيمتط الصوت تارةً، ويأتي حاداً تارةً أخرى، ومع صعود القوس وتراجعه راحت عيناه تتراخيان وسقط القوس من يده.. وحُمل بعيداً عن قاعة الرقص.

ضحك قاسم المدهون مقهقهاً وطوّقت ذراعه خصر المرأة التي كان يراقصها.. وابتعد بها عن قاعة الرقص.

***

ضربات كضربات الطبول الإفريقية تدوّي في أعماقه..

طنين لا يفارق أذنيه..

دعوة لا يستطيع أن يكبحها؛ ليخرج في منتصف الليل إلى شوارع المنخورة. يحّس أن أصابعه ترتجف وهو يرسم تفاصيل لوحته القادمة في ذهنه؛ رمى بقلم الفحم جانباً، وانطلق بعيداً عن داره.

إنه منتصف الليل.. والسكوت يخيم على عالم المنخورة إلا من نباح الكلاب.

لم يوقفه أحد من أتباع هذّال الحسن، بل كان يكتفي بالتحية، ويتابع خطواته.

بعد ثلاثة أيام. سيتزوج هذّال الحسن من منيرة، ولأنه على يقين إن قاسماً المدهون سيحضر هذا الزواج، فإنه سيقدم لوحته التي ستبهر الناس. ستكون حديثاً للجميع في جمالها وخطوطها وتناسقها وألوانها.

ها هوذا حتى الآن لم يرسم خطاً واحداً فيها. كانت في ذهنه أكثر من صورة؛ لكنه ما استقر-حتى الآن- على واحدة منها: هل يرسمه وهو واقف في مسجد عمر بن عبد العزيز يؤدي صلاته بخشوع؟

أم يرسمه وقد انحنى على طفل من أطفال المنخورة وراح يقبله؟..

استبعد الصورتين من ذهنه؛ فلماذا لا يرسمه في باحة ضريح أبي ذّر الغفاري.. وهو يقبّل قضبان الحديد التي تحيط بالضريح، وعيناه تدمعان خشوعاً؟

ولأن الصورة الأخيرة.. استقرّت في ذهنه، فقد تقدم، والليل تجاوز منتصفه إلى مقبرة القرية، حيث ضريح أبي ذرّ.

جلس مستنداً بظهره إلى حائط طيني لبستان يقع قبالة الضريح، مستأنساً بالأضواء التي تشع من نوافذ الغرف الملاصقة للضريح، ثم أخرج سيكارة وراح يدخن فرحاً. ها هوذا أخيراً، قد انتهى من عالم الأفكار التي أقلقته بشأن لوحته.

سينهي سيكارته ويعود متأججاً نشيطاً. سيبدأ باللوحة فلا معنى للنوم بعد أن استقرّ على رأيه أخيراً وانتهى من دوّامة الأسئلة، لكنه وقف مذهولاً وهو لا يصدق عينيه عندما فتح الباب الحديدي. سارع وأطفأ سيكارته في التراب. سمع ضحكاً لرجال، وسمع قهقهات لنساء، وعلى ضوء مصباح يدوي، رأى غصّاباً المدهون بسرواله الداخلي فقط.

أحسّ برعشة خوف، وخشية أن يفتضح أمره، فقد انبطح على بطنه وراح يزحف مبتعداً لعلّ الزاوية القريبة تغيّبه عن مرمى العيون. كان يحّس بالأشواك وهي تنغرس في يديه وفخذيه وبطنه.. ولكنه لم يكن- على الرغم من إحساسه بالألم- ليأبه بذلك، كان همه أن يتوارى عن العيون حتى يتمكن من الوقوف على رجليه، وبعد ذلك، فإنه سيجد طريقة إلى منزله بين الدروب الترابية للبساتين.

***

كأن الصخرة الصماء تريد أن تقف في وجه صعوده مرة أخرى.. كان يسمع أن المبنى الجديد لضريح أبي ذرّ الغفاري قد تحوّل إلى مكان للفسق، لكنه كان يتصدى لتلك التقولات بكل ما يملك من حماسة.يرتفع صوته ويشير بيديه في كل الاتجاهات رافضاً ما يقال، لكنه الآن وقد أضحى وحيداً في غرفته مع هذا الفجر، لم يعد باستطاعته أن يجادل، فكيف يمكن أن يتصدّى لمن سيقول لـه أن مبنى الإمارة أضحى مأوىً للعهر؟

الصخرة الصماء تتطاول. تنتفخ شيئاً فشيئاً. انها- إن سمح لها لتتضخم على هذا الشكل- فإن آماله ستذروها ريح عاتية، ومن أعماقه؛ من عدة أمكنة، صرخ بالاستنكار: كلا!.. لن يسمح للصخرة أن تتضخم.

دفع الثمن غالياً حتى استطاع أن يقفز عليها، حتى إستطاع أن يوهم نفسه بأن لا وجود لها في حياته، فكيف ترتفع أمام عينيه؟.. إنه في تيار أمير المنخورة.

لقد راحت الريح تدفع سفينته في عرض البحر باتجاه نعيم أيامه، فكيف سيرتدّ والريح قوية.. والبحر متلاطم الأمواج؟

كلا...

صرخ بها عدة مرات، فلا بدّ من أن هذا الذي رآه في ليلته لا بدَّ من أن يكون كابوساً؛ فمبنى ضريح أبي ذرّ الغفاري هو المكان المقدس الذي أنشأه أمير المنخورة للمؤمنين والمرضى؛ لا بدّ من أن عينيه قد خانتاه، فأضحى يرى الأشياء على غير حقيقتها، لا بدّ من أن ذلك الضحك الذي سمعه من أن يكون لمرضى وقد تماثلوا إلى الشفاء. لا بدّ من أن تلك القهقهات النسائية لمريضات، أو يائسات من الحمل والولادة.

صرخ بها مرة أخرى واثقاً، فأولئك الذين رآهم ليسوا مجموعة من السكارى، وليست النسوة اللواتي رآهن من بنات الهوى.

كلا...

الريح لك.. والصخرة الصماء يجب أن تتحطم واللوحة يجب أن ترسم.. ونهض، نهض نشيطاً. غسل رأسه بالماء البارد، وبدأ بقلم الرصاص خطوطها.

كل شيء راح يبدو فيها واضحاً، جلّياً، دقيقاً، فأمير المنخورة، يقف وهو يتلمّس بيديه قضبان الحديد لأبي ذرّ الغفاري.. وبدت دمعتان على خديه من أثر الخشوع، وابتعد عند اللمسة الأخيرة للوحة حتى نهاية غرفته فابتسم، ولأنه أحسّ بالإرهاق بعد ليلة مورُقة، ولأن الشمس أضحت تسكب أشعتها عمودية على الأرض، فقد أرخى ستائر نافذته وأغلق الباب، ورمى بجسده متهالكاً على فراشه.

وعلى عادته، قبل النوم، أخذ سيكارة ليدخنها وهو يتأمل اللوحة، وإذ راحت عيناه تغمضان بتكاسل استعداداً للنوم؛ تراءت لـه جمجمة أبيه تطغى على اللوحة؛ ففرك عينيه وكاد أن يضحك، فلِمَ تلاحقه أضغاث الأحلام؟.. أطفأ سيكارته، وانقلب على بطنه لكنه رأى خنجر قاسم المدهون وهو يفصل رقبة الغزالة ورآه يمدّ يده حيث ينبثق الدم، ثم يقف ليضيف خمراً إلى الدم، ويشرب.. لم تعد لديه طاقة على الاحتمال؛ فقفز من فراشه، وانطلق من غرفته بعيداً.. بعيداً، عن تلك الكوابيس التي تلاحقه من أثر الإرهاق الذي ألمَّ به، كما قال لنفسه.

2

كان ذلك في يوم ما؛ من شهر ما.... ازهرت الأشجار؛ وكانت العصافير تغرّد فرحة، وكأن هناك النحل يغدو ويروح من البساتين إلى مناحلها. كان الناس في المنخورة يراقبون ذلك بحيادية، فقد ألفوا ما تأتي به الأيام من هذه التغييرات في عالم الطبيعة، وفي كلّ مرة كانوا يأملون أن الشهور سوف تمرّ وينتهي القحط، وتأتي السماء بالمطر في السنة القادمة.. وما عليهم إلا أن ينتظروا.

وحده.. هذّال الحسن، كان يحّس أن الأزهار والورود، إنما تضحك لـه منذ عشرة أيام، وهو يرى كل الأشياء، حتى الجمادات، تضحك له.

منذ تلك اللحظة التي خطب فيها منيرة، فإن كلّ شيء يزهر في داخله، لا يعرف كيف مرّت الأيام، حتى أنه ليتساءل: هل هي أيام أم أنها مجرد لحظات؟

كلّ شيء كان يدعو إلى الدهشة؛ فلقد أراد هذّال الحسن أن يكون كل شيء مدعاة للدهشة، فلم تُقم حفلة العرس أمام فسحة داره، ولم تكن في ساحة ((المهابيل))، كما جرت العادة، ولكنه أرادها أن تكون في الساحة الممتدة أمام ضريح أبي ذّر الغفاري. فكّر طويلاً في القبور التي ستشكل عائقاً لهذه المناسبة، فكيف سيتمكن الناس من الرقص، وكيف يمكن لمئات الكراسي التي أحضرها أن تكون مستوية؟

قبل ثلاثة أيام، أمر بأن تمهد الأرض أمام الضريح لتكون مستوية مثل ((راحة الكف))، فأزيلت الأحجار واختفت شواهد القبور ورُشت الأرض بالماء.

كان كلّ شيء يدعو للدهشة، حتى أن خمسة رجال من رجاله كانت مهمتهم أن يعتنوا بالإنارة؛ فقد خصص لكلّ واحد منهم عشرون ((لوكساً)) فبدت المقبرة وكأن الليل قد غادرها.

حاولت صبّوحة الخليل أن تتقّدم لكن الازدحام منعها... وقفت بعيدة على شاهدة قبر أبي حسين القحطاني، حتى إذا أحسّت بالتعب، جلست على حجارة القبر، لكنها- بعد لحظات- هبّت واقفة، وهي ترفع عينيها إلى السماء باسطة يديها وهي تتمتم:

-استغفر الله العظيم. ما كنت أريد أن أجلس على قبر ميت.

وسمعها ابن عيسى الذي كان على مقربة منها، فقال؛ وقد ظهرت قطرات العرق على جبينه:

-صبّوحة.. من أين تُربط الخيول؟
نظرت إليه للحظات، ثم قالت:
-من رؤوسها.
سأل: ومن أين ترُبط الكلاب؟
قالت: من أعناقها.
وضحك ابن عيسى بصوت عال، ثم قال:
-هذا لأن لها رؤوساً ولأن لها أعناقاً..
قاطعته صبّوحة الخليل: ماذا تريد أن تقول؟
قال: وما نفع الكلام.ـ إذا قلت إن الرجال سيربطون من.. من (....) ..
ونظرت إليه، ثم قالت؛ نزقة: من ماذا.. يا مخبول؟
قال: بعضهم سيُربط من لسانه، وبعضهم سيربط من (..) ولم يكمل فقد أشار إلى عضوه التناسلي..
فضحكت صبوحة، وأمسكت بياقة ثوبه وجرّته إليها، حتى صار فمها قريباً من إذنه، وقالت:
-أسكت!
دفع يدها بعيداً عن ياقة ثوبه، وقال:
-إنهم يسمعون كل شيء- يا صبّوحة- لكنهم يتظاهرون بالصمم؛ يرون كل شيء ولكنهم يدّعون إنهم لم يروا شيئاً.
وهزت رأسها، فتابع قائلاً:
تمّسحت الجلود- يا صبّوحة- أقسم بالله العظيم، لم تعد تؤثُر فيها المخارز. إنها بحاجة إلى قضبان من نار.
أمسكت به من كتفه ودفعته بعيداً، وهي تقول:
-بجاه الله ابتعد عني. لا تجعل هذه الليلةُ غمّاً!
وابتعد ابن عيسى، وبعد خطوتين تلفّت إليها، وهو يقول:
-لو أن أبا ذّر يسمع.. لاستلّ سيفه. يا صبّوحة!
وسألته: وأنت ماذا كنت ستفعل؟
قال، وهو يضرب حجراً بقدمه:
-لن أكون كالآخرين.. (وأشار بيده إلى الناس في المقبرة)؛ لن أكون مثل هؤلاء الذين فقدوا الحياء. كنت سأحفر حفرة كبيرة للقتلى.
وبعد أن غاب عن عينيها؛ ذهبت إلى دارها دون أن تكمل مشاهدة عرس هذّال الحسن و منيرة.
واستمر الرقص والغناء..
ضربات الطبل كانت قوية. لم يكن هناك ثمة صمت في عالم المنخورة في تلك الليلة.

كانت الدعوات تنهال من فمّ الرجل، الذي كان يعزف على المزمار داعية بطول ((العمر والعزّ والجاه)) لهذّال الحسن؛ وهو يلّوح بمنديل قماشي ثم يعود إلى مزماره.

كان كل شيء يدعو إلى الدهشة..

لكن أحداً لم يكن يعرف ماذا جرى في ظهيرة ذلك اليوم..

***

عندما أدرك غالب الوالبي أن منيرة ستتزّوج في تلك الليلة أحسَّ أنه يدور في أفلاك التعب. كان جريحاً في أعماقه وقد أعيّاه النزف. يحّس أن الكون على اتساعه، أضحى سجناً بقضبان، وأن العالم قد أضحى معفّراً بالسواد.

في ظهيرة ذلك اليوم جاءته منيرة..

جاءت بثوب أبيض، وبسمة حزينة تتبدى على ثغرها..

ولأنه فوجئ بها على غير توقع، فقد قال:

-كيف وافقت يامنيرة؟!

ولم ينتظر إجابة، فتابع بصوت عال:

-تبّاً للطاعة عندما تكون ذلاً وخنوعاً.

وإذ استندت إلى الباب، بعد أن أغلقته، سألته:

-ثم؟

قال: كأني لست إنساناً من دم وأعصاب ولهذا جئتِ بثوب عرسك الأبيض.. كأني.. ولكن ما نفع الكلام، وكلّ شيءَ حولي يفوح بالغدر والخيانة.. إنه عصر الخيانة يا منيرة!

قالت:

-اسمع يا غالب.. الغضب يسدّ منافذ التفاهم. أنت تعرف أنني ما أحببت غيرك. أنت، كنت ومازلت.. الأول والأخير. تتحرّك معي في يقظتي ومنامي. أراك دائماً بين رموش عيني. لم أستطع أن أحتضن غيرك في أعماق روحي. لن أكون بعيدة عن الصواب إذا قلت لك أنني استوعبك أكثر مما تستوعب نفسك، فدع الكلمات التي لا معنى لها جانباً. ربما أوافقك على أننا نعيش عصر الخنوع والذلّ. ربما كان أبي واحداً من هذه القافلة التي بهرها المال، فأراد بيعي جسداً..

قاطعها: نحن موتى مؤجّلون فقدوا الحقيقة وسيفقدون الذاكرة.

قالت: لا تنظر إلى العالم بهذه النظرة السوادوية.. كلّ زمن وله رجاله.

صاح: وله كلابه.

تابعت: سأقول ثانية، لكل زمن رجاله، ولن أجاملك إذا ما قلت، وله كلابه كذلك، فتلك شريعة الكون.. الهرب- يا غالب- لا ينجي تذكر أننا تعاهدنا على أن نكون لبعضنا.

سألها مقاطعاً: أن نكون لبعضنا.. والليلة ستزفين إلى هذّال الحسن؟

قالت: وهي تضغط على فكيها: لن أكون.

وإذ نظر إليها مستغرباً، قالت:

-حكايتي وحكايتك لن تنتهي.. فالحّب والتفاهم والحرية لا تحيا في أزمنة الخوف ونباح الكلاب.

سأل: ماذا تقصدين يا منيرة؟

قالت، بعد صمت قصير: كنت أضحك من حكايات جدتي التي روتها لي وأنا صغيرة. كم قالت لي أن هناك كهوفاً في الجبال، مظلمة رطبة، فيها الأفاعي والعقارب وفيها رجال نُحتوا من صخر، وقالت أن هؤلاء الرجال غادروا قراهم وبيوتهم لأنهم كرهوا الزيف والذلّ، وأنهم سيعودون يوماً من ضمير الغيب وهم يحملون سيوفاً وخناجر ليحققوا العدل. كنت أغفو على حكاياتها تلك، لكنني واثقة من أن حكايات جدتي ليست حكايات خرافية، فنحن نعيش بين بشر نحتوا من صخر؛ وبين جدران وسقوف لها مظهر البيوت ولكنها كهوف.

قاطعها غالب بصرخة مكتومة: منيرة ماذا تقولين؟

قالت: القهر يلفّ كياني.. لأنني أرى عجز الآخرين خوفاً وتصفيقاً وطبلاً وغناءً وهم كاذبون. القهر يلفّني، لأنني أعرف أنهم منافقون.

قال غالب: الطفل يحتاج إلى سنتين ليتعلّم الكلام.. واليد الواحدة لا تصفّق وحدها، هل تعتقدين أن الليل لا يتبعه نهار؟

قالت: كما أنني مؤمنة أن وراء كل ليل نهار، فإنني مؤمنة بأن بعض الموت يعني الانبعاث.

تمتم مصعوقاً: انبعاث؟

ولم تجب منيرة على سؤاله لكنها قالت:

-لقد تأخرت، يجب أن أذهب، ولكن قبل ذلك، أريد كأساً وشفرة!

ومدت راحة كفها اليمنى، وقالت له:

-على قدر حبك لي يجب أن يكون الجرح عميقاً في كفي.

واهتزّت الشفرة بين أصابعه، حتى إذا نظرت إليه نظرة قاسية، غرس الشفرة في راحة يدها، وراح الدم يسيل، وبسرعة ثبّتت يدها على الكأس.

بدوره أعطاها الشفرة ومدّ يده اليمنى فغرستها حيث راح دمه يسيل هو الآخر في الكأس، ثم مدّت يدها لتحتضن يده، وقالت:

-الدم بالدم والروح بالروح.. تذكّر ذلك.

قال: ما اتعس ذاكرتي.. فهي التي تتذكر كل شيء أنها تتذكر الدم والروح.

قالت وهي تخرج: عليك أن تحضر عرسي يا غالب!

وهزّ رأسه موافقاً..

***

كان كل شيء يدعو إلى الدهشة..

فقد نصبت خيمة خاصة بقاسم المدهون أمير المنخورة، وكان الحرس يحيطون بها كالدائرة.

ولمنيرة نصبت خيمة أخرى. جلست على كرسيها بثوب أسود، وقد استغربت النسوة لباس منيرة، فالعروس تأتي بثوب أبيض، "فِلمَ أتت بثوب أسود موشّى بخطوط حمراء" وظلّ السؤال معلّقاً على الشفاه، وفوق العيون؛ كأنما الزمن حرث الإجابة باللامبالاة؛ وكأنما منيرة لم تسمع سؤالاً.

قبل منتصف الليل، وقفت منيرة.. وهي تلفُّ رأسها بوشاحها الأسود.

كأن وجهها يرتعش بإضاءة كانت عصيّة على الفهم، وصعبة على التأويل، ثم اندفعت من الخيمة إلى وسط حلقة الدبكة.

اتسعت عينا قاسم المدهون دهشة، وارتخت شفتا هذّال الحسن توجّساً..

توقف الطبل والمزمار، لكنها صاحت:

-هذا عرسي أيها الناس ومن حقي أن أفرح. هذا عرسي، ومن حقي أن أرقص بخنجر عريسي.

ووقف هذّال الحسن. سار بخطوات مترددة إلى منتصف الحلقة، حيث منيرة، وإذ مدّ لها خنجره، انتزعته من يده. دارت على كعبيها بعد أن قذفت بحذائها بعيداً، وبعد أن لوّحت بالخنجر عدة مرّات فوق رأسها وهي تدور، قالت:

-ليضرب الطبل، وليعزف المزمار!

صفقّ الناس بحماسة، وبدأت منيرة ترقص أروع رقصة عرفتها المنخورة في أعراسها، حتى أن قاسماً المدهون أخرج مسدسه وأطلق عدة طلقات إلى الأعلى، ثم تبعه هذّال الحسن.. وتوالى الرصاص من الآخرين.

كنسمة هواء عاتية، اخترقت منيرة الصفوف حيث كان يقف غالب الوالبي، ومدّت يدها الجريحة إليه، فمّد يده الجريحة إليها وعادت به إلى منتصف الحلقة. راحا يرقصان رقصة سريعة. تتوالى ضربات الأرجل سويّة على الأرض وترتفع الأيدي سويّة إلى الأعلى، وارتفع التصفيق أكثر. انهالت العصا على الطبل بضربات أقوى. أحسّ الزّمار أن عروق رقبته تكاد تنفجر، وأن أنفاسه تكاد تختنق، فلم يعد يسمع صوت المزمار إلا كالأنين، وفي تلك اللحظة ابتعدت منيرة عن غالب الوالبي وصرخت:

-يا غالب.. احملني بين يديك إلى الأعلى!

تقدمت مسرعة إليه. حملها بين يديه إلى صدره، ودار بها في كل الاتجاهات.

في تلك اللحظة بالذات قال أبوها لأمها، وهو يصرف بأسنانه:

-ليتها لم تكن على وجه الأرض..

عندما أعادها غالب الوالبي إلى الأرض، ابتعدت عنه، ونظرت باتجاه هدّال الحسن، وصرخت حيث توقف الطبل والمزمار:

-كل شيء إلا القلب يا هدّال الحسن.. كل شيء إلا القلب يا أبي!

وبعد أن استّلت الخنجر من غمده، صرخت بنفس النبرة:

-لن أكون لك يا هدّال!

وإذ ردد الليل صدى كلماتها، كان الخنجر ينغرس في بطنها. بكلتا يديها غرسته في أحشائها.. وهوت مكبّة على الأرض.

وقبل أن يتقدم غالب الوالبي منها.. كانت عدة طلقات قد اخترقت رأسه من مسدّس هدّال الحسن فهوى هو الآخر.. ويده اليمنى فوق عنقها تماماً.

***

هل كانت المسافة بين غالب الوالبي ومنيرة متراً أو أقل أو أكثر؟.. ما كان باستطاعة أحد أن يقدّر المسافة بين الاثنين. ما كان باستطاعة أحد أن يعرف أن منيرة وغالب الوالبي كانا يزحفان باتجاه بعضهما. ابن عيسى وحده، كان يراقب المشهد خطوة خطوة. كان الصراخ، والكلمات المرتبكة تطغى على عالم البشر. لم يفطن أحد إلى ضوء القمر الذي كان ينسكب على الجثتين و لمعان الدم الذي كان ينزف منهما. وحده، ابن عيسى، كان يتأمل المشهد وضوء القمر، وحده شهد اقتراب الجسدين من بعضهما.

راقب- وفي عينيه دموع الحزن أم أنها دموع الفرح؟ -غالباً الوالبي وهو يقترب من منيرة، وضع شفتيه على خدها؛ زحف ببطء شديد إلى الأعلى، وإذ اقتربت شفتاه من جبينها، لم يعد يتحرّك.. رفع ابن عيسى رأسه إلى القمر، وتمتم:

-يا إلهي.. حتى رصاص البشر وخناجرهم لم تفرّقهما!

صور تمرّ كالبرق الخاطف، وبقية أصوات تهمس بكلمات غير مفهومة، كلّ هذا كان يراه ابن عيسى الذي غدا وحيداً في الساحة. حاول أن ينهض لكنه أحسّ بدوار غريب يغزوه، اختلطت عليه الصور، واختلطت عليه الأصوات.. مدّ يديه ليمسك بثوب رجل، ظنّه أنه يمرّ أمامه، لكن يديه لم تقبضا إلاّ على الريح.

زحف، وهو يفتح عينيه بصعوبة، باتجاه الجثتين.ـ سمع صوتاً سائلاً من شجيرة شوك، صار على مقربة منها:

-خذني معك.. يا ابن عيسى!

تمتم، بعد أن ملأ صدره بالهواء: لن انتزعك من جذورك.. كوني شاهدة على عصر الحبّ وعلى عصر الخيانة.

قالت شجيرة الشوك: سيأتي غيرك ليقتلعني من جذوري فيحوّلني إلى نار.

قال ابن عيسى، وهو يتابع زحفه: نحن بحاجة إلى النار.. فمن الذي سيشعلها؟

... من الذي سيشعلها؟

عندما صار على مقربة من جثة غالب الوالبي، أحسّ برجفةٍ وبحالة عراء، وأن صقيعاً من البرد تغلغل إلى عظامه فراحت أسنانه تصطك ببعضها. نظر إلى السماء، حيث القمر الذي مازال يرمي بأشعته على عالم المنخورة والمقبرة، فأحسّ هدوءاً يعود إليه، وتمتم:

-يا إلهي.. نحن الموتى، فتعال واغمرنا ببركاتك.. نحن التائهين في مدارات الأنانية وأفلاك الخوف، فتعال ومدّ لنا يدك!

وإذ سمع نباح كلب من طرف المقبرة، أعاد نظره خجلاً إلى الجثتين وقال:

-استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم من نفوسنا، ومن سيئات أعمالنا. يا رب أنك لغفور حكيم!..

ومدّ يده إلى جبين غالب الوالبي يستمّد منه الشجاعة، وإذ نظر إلى عيني منيرة المفتوحتين، أغمضهما، ولكنه قرر ألا يغمض عيني غالب الوالبي، وتمتم وما زالت يده على جبين غالب:

"-لن أغمض عينيك، عليك أن تظل مفتوح العينين لترى المنخورة تتعرّى أكثر فأكثر.. أننا في بداية السقوط وفي بداية الانحطاط، فلم أنت صامت؟"

تراءات لـه عينا غالب الوالبي و هما تنظران إليه نظرة ما كان باستطاعته أن يفهم مغزاها، هل هي نظرة سخرية، أم أنها نظرة إدانة؟

رفع رأسه إلى الأعلى حيث قاسم المدهون، ثم بنظرة خاطفة نظر إلى هذّال الحسن وبمثل نظرته الخاطفة مدّ يده إلى الخنجر المغروس في بطن منيرة وانتزعه، وإذ تقدم به مسرعاً باتجاه هّذّال الحسن، جاءته رصاصة في أعلى الكتف.. وأخرى في فخذه وقبل أن يهوي على الأرض، صرخ في وجه هذّال الحسن، متألماً:

-يا كلب!

وتقدم هذّال الحسن من ابن عيسى، وبعد أن بصق عليه، ركله برجله.. وقال لبعض من تجمّع حوله:

-خذوه!

من بين زحام البشر.. سمع صوت محمود العباس عالياً، وهو يمدّ فوهة بندقيته باتجاه قاسم المدهون،:

-الدم بالدم يا بن المدهون.. هل نسيت أخي نايف؟

عندما انطلقت الرصاصات من البندقية، قفز أحدهم ليتلقاها في صدره، وكان أن انبطح قاسم المدهون أرضاً، وإذ قبض على محمود العباس، وقف قاسم المدهون وهو ينظر إلى محمود العباس حاقداً، وقال وهو ينظر إلى الجثة التي تلقت الرصاصة عنه:

-إنه لكريم ورجل حقاً.

وتلفّت هذّال الحسن إلى قاسم المدهون، وهو يداري خيبة أمله:

-أجل.. يا سيدي أنه كريم ورجل.

قال قاسم المدهون:

-سنقيم تمثالاً لـه في ساحة القرية.

***

في ذلك الزمن المنسي، زمن الصعود والهبوط، زمن النفاق وجنون العظمة، وتلفيق الكذب، لم يعد قاسم المدهون لينام هانئاً.

كان ينام والمسدس تحت وسادته، حتى إذا زقزق عصفور مع الصباح، فإنه كان يستيقظ فزعاً، وهو يصّوب مسدسه إلى العصفور، في ذلك الزمن الغائب والحاضر كالوجع، كان الناس في المنخورة قد تعوّدوا على الاسترخاء والثرثرة والخمر... كانوا ينفسون عن قهرهم بالمضاجعات والنوم.. وكان قاسم المدهون قد بدأ يخطط بسرعة ليكون الغرباء من أبناء الحي الشمالي هم حرّاسه في مبنى الإمارة.

*

3

في ثنايا ضباب الدخان ورائحة الخمر، الذي لفّ غرفة قاسم المدهون، قال وهو يلفّ رِجْلاً على رجل:

-هذّال.. أما زال حياً حتى بعد أن قلعتم أظافر يديه ورجليه؟

أجاب هذّال الحسن:

-سيدي أرجو عفوك.. فلقد تجاوزت أوامرك، في لحظة غضبي من عناده، فبترت عضوه التناسلي، ومع هذا..

قاطعه بحقد:

-ماذا يا هذّال؟

قال هذّال الحسن:

-ومع هذا مازال حياً.

قال قاسم المدهون:

-من أي طينة من البشر هذا الكلب؟

عقّب هذّال الحسن وهو يهزّ رأسه:

-سيدي.. إن ظلّ حياً الليلة.. فإنه سيموت غداً.

ووقف قاسم المدهون غاضباً، وتقدم من هذّال الحسن، الذي وقف هو الآخر.. وهزّه من كتفه بعنف:

-اسمع.. لا أريد أن يموت أمام ابن عيسى فقط، أريده أن يموت أمام أبيه وأمه.. وبعد ذلك عليك أن ترمي بالأم والأب للكلاب.. أفهمت؟

-أجل يا سيدي.. فهمت.. ولهذا سأذهب لأحضر الأم والأب... فنِعم الرأي رأيك

***

في ثنايا ضباب الدخان ورائحة الخمر.. تطاول جسد قاسم المدهون في غرفته.

ارتفع في الفضاء ليفرش جسده على عالم المنخورة، كان يسمع عن عالم الجن الذين يرتفعون بالإنسان عالياً، وهاهو ذا يرتفع عالياً بدون الجن. ارتفع عالياً، ولفرش جسده على عالم المنخورة.. أحسّ برغبة حارقة في أن يتبول.. لكنه قال: "لم يأت الوقت بعد، إن تبولت الآن فقد تسقط بعض قطرات البول على رأس خطيب المبطون أو أبي المدّاح الأشرم أو على رأس هذّال الحسن، وأنا بحاجتهم الآن، قد يميزون بين المطر والبول،

ولا أريدهم أن يعرفوا بولي من المطر... لم يأت الوقت بعد.. لم يأت الوقت بعد".

في ثنايا ضباب الدخان ورائحة الخمر الذي يلفّ جوّ غرفته، كان هناك ضباب داخلي نما داخل كيانه للحظة خاطفة كما البرق، ثم خبا عندما تذكر، ولم يعد يتذكر من قال ذلك، أهو خطيب المبطون أم أبو المدّاح الأشرم:

"أن الله يمهل ولا يهمل"

ووضع فمه على ساعد يده اليمنى.ـ و"عفط".. وبعد أن أرخى يده، قال "طز"، وبعد صمت قصير، قال:

-هذا الزمن زمني وأنا السيد المطاع.

وجوه غريبة تتصنّع الألفة والمودة، تحاول أن تتقرّب منه، وهو يعرف لماذا تتقرّب منه.. لو لم يكن سيد المنخورة لما تقرّب أحد منه.. ونظر إلى نعل حذائه وتمتم بحقد:

-لن تنفع العصا وكلاب القبو فقط، لا بدّ من أن أدوسهم بهذا النعل، فكلما انسحق الرأس كان أكثر طوعاً، وكان أكثر طاعة.

هوذا (حكيم)- ابنه- يكبر سنة بعد سنة، ولا بدّ من تعليمه أن العالم ظاهر وباطن، لا بدّ من تعليمه أن يظهر دائماً مالا يبطن، عليه أن يرفع شفتيه ليبتسم لمن يجالسه، وبعد البسمة لا بدّ أن يتعلّم كيف يدير الجحيم على هذه الأرض، وعليه أن يعرف كيف يديرها وكيف يجعلها دائماً متأججة النيران..

ليس جحيم المنخورة بحاجة إلى الحطب، إنها بحاجة إلى أجساد البشر الذين يرفعون عيونهم بنظرة عدم الرضا.

ووقف يطل حاقداً ومزهواً على المنخورة من النافذة، كان يتمتع بنباح الكلاب الذي يعكّر صمت الليل وذلك الخراب الداخلي الذي أضحى يعاني منه في أعماقه...

اقترب أكثر من زجاج النافذة رفع يده اليمنى لتلتصق بالزجاج، ثم ألقى بجبينه على ساعده، وسمع أصداء نفسه المقهورة تقول له:

-انطلق بعيداً عن المنخورة، فطالما يأكل الناس ويشبعون فهم يفكرون.. انطلق بعيداً، فأنت السيد، فمن هذا الذي سيردّ عليك بكلمة أو نظرة؟.. فكّر يا ابن المدهون بوسيلة أنجح لتجعل الناس يركضون بحثاً عن الرغيف، بل عن اللقمة..

وابتعد عن النافذة، ليقف أمام لوحة قرآنية معلّقة على الجدار، وقرأ صامتاً شيئاً منها، وهو في حالة شرود:

"الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، لـه ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما...".

تراءت لـه الكلمات الأخرى كأنها ملتصقة ببعضها، حتى لقد شكّلت سطراً أسود... نفض رأسه وعاد متثاقلاً ليرتمي على الكنبة، ورمى رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه في محاولة منه ليستعيد طيرانه فوق المنخورة، لم يكن طيرانه فوق المنخورة وهماً. كان- كما زيّنت لـه ظنونه- حقيقة، ومن روابي النفس

التي تجنح إلى تحقيق الصعب قال لنفسه:"حتى وإن كان ذلك حلماً أو أضغاث أحلام، فإن ما أريده الآن أن يكون ذلك واقعاً لا وهماً، يجب أن أكون فوق المنخورة وبشرها".

***

كان ابن عيسى يجلس القرفصاء في ركن القبو.. ويراقب، وكان جسد محمود العباس العاري محكماً إلى طاولة خشبية لا تهتزّ مع ضربات السوط الذي كان ينهال عليه في كل المواضع، ولم يكن نزف الدم ليوقف الجلاّد، كان ينهال بكل قوّة على الصدر، على البطن، على الفخذين، على الوجه الذي غدا أزرق..

صرخ الجلاّد بحقد:

-أنت حقير... قل أنك حقير.

ويضغط محمود العباس على فكيه بقوة وهو يتلوىّ من الألم. يغمض عينيه ولا يتكلم.

يتقدم الجلاد من رأس محمود العباس ويرفعه من شعره ويضربه على الطاولة عدة ضربات وهو يلهث.. ومع كل سوط كان ابن عيسى يغمض عينيه.

تحاول أم محمود العباس أن تفلت من الحبال التي قيّدت يديها إلى يدي زوجها وهم يتابعان مشهد تعذيب ابنهما، صرخت بصوت مرتفع في وجه الجلاد:

-أنت حقير وابن حقير.. يا بن الزنى!

مدّ الجلاد يده على مسدسه، وبالأخمص ضرب أم محمود العباس على رأسها بقوة، وصرخ:

-لو لم تكوني عاهرة لما جئت بهذا الكلب.

وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة كان الدم ينزف من أنفها وأذنيها وفمها...

ماتت أم محمود العباس...

وقبل أن يفقد أبو محمود العباس وعيّه، أراد أن يصرخ، ولكن صرخته ماتت عند شفتيه...فما جاءت إلاّ على شكل تمتمة:

-يا رب..

أمر هذّال الحسن الذي كان يجلس على كرسي وثير وإلى جانبه كأس خمر:

-أخرجوها خارجاً.. وايقظوا الكلب الكبير... وامتدّت الأيدي ففكّت الحبال عن يدي أم محمود العباس، وجرّوها خارج قبو التعذيب... وجاء آخران بالماء وبصلة يابسة فرشّوا الماء على وجه الأب، والصقوا البصلة بأنف أبي محمود العباس..

وإذ لم يستيقظ، نظر هدّال الحسن بازورار إلى الأب، وارتسمت على فمه بسمة سخرية، وإذ دخل أحد رجاله ببيضتين في صحن ماؤه مازال يغلي، مدّ هدّال الحسن سبابته إلى الجلاّد وقال:

-أدخل البيضتين تحت الأبطين.. بقّوة أدخلهما، أريد أن أشمّ رائحة اللحم.

وعاد الأب إلى وعيه وهو يسمع أنين ابنه:

_آخ...

ارتسمت بسمة انتصار على فم هدّال الحسن. رفع كأسه ودفع إلى جوفه ما تبقّى فيها فسارع أحد رجاله ليملأها لـه ثانية مع الثلج المكّسر... وعندما فقد محمود العباس الوعي، جلجلت ضحكة هدّال الحسن في أرجاء الغرفة، فاستطاع أبو محمود العباس، أن يقول بصوت واهن، وهو ينظر إليه:

-كم أنت ظالم.. أقسم إن الحساب قريب.

وإذ تقدم الجلاّد، وهو يرفع السوط ليهوي به على الأب، أشار لـه هدّال الحسن، أن لا يفعل، فقال أبو محمود العباس:

-هذه أيامك..نسيت أنك لم تكن أكثر من ساكب للقهوة المرّة...

وضحك هدّال الحسن بصوت عال، فقال أبو محمود العباس، وهو يضغط على فكيه:

-يا جبان.. إنها أيامك فاسرح وامرح و لكنك ستدفع الثمن غالياً.

وقف هدّال الحسن غاضباً، مترنّحاً، وتقدّم من أبي محمود العباس، وبيد غير متوازنة رفع رأسه من شعره، وبصق على وجهه، وقال، بلسان مخدّر:

-كلّو.. كلّكم قا... قذرون، تريدو... تريدون أن.ـ تكونوا شو.. شرفاء.. سأبول عليكم.. سأبول على.. شرفكم.

وبعد أن عاد محمود العباس إلى وعيه، جلس ثانية هدّال الحسن على كرسيه، وبصوت غاضب، قال:

-ضعوه في الكيس.

وأحضر كيس من القنّب، فأدخل فيه، بعد أن فكّ عن الطاولة الخشبية، وقبل أن يربط الكيس من الأعلى جيداً، وضعت معه قطة، ثم انهال الجلاّد بعدة ضربات على الكيس حيث صار يسمع مواء القطة بشراسة..

لم يعد يفكر محمود العباس بشيء إلاّ أن يحمي عينيه من مخالب القطة التي كانت تحفر في جسده خطوطاً ينزف الدم معها، يضربها بيده اليمنى لعلها تبتعد عن وجهه، لكنها ما أن تصل إلى قدميه حتى تعود لتضرب على غير هدى باحثة عن منفذ للخروج.

هوذا الدم يسيل من كافة أنحاء جسده، يحّس في كلّ مخلب ينغرز في جسده كأن قضيباً من النار يكويه، كلّ شيء يمكن أن يتحمله إلاّ أن تفقأ عيناه، وإذ غرزت القطة مخالبها في حنجرته صرخ متوجعاً.. وراح يتدحرج، حتى إذا وصل إلى قدمي هذّال الحسن، ركلته عدة أقدام ليبتعد، قال أبو محمود العباس الموثّق بالحبال

-استحلفك بالله... يكفي.

لطم الجلاد أبا محمود العباس على فمه، فسال الدم، وإذ هدأت حركة الكيس، قال هذّال الحسن:

ـ أخرجوه!

أخرجت جثة محمود العباس هامدة مدمّاة، وأخرجت القطة ميتة وقد تصلّبت أصابع محمود العباس اليسرى على عنقها. وعندما رأى ابن عيسى ذلك أكّب برأسه على ركبتيه وراح يبكي. حاول الأب أن يزحف على عجيزته، فضحك هذّال الحسن وقال:

-سأجعلك تزحف على أنفك.

قال الأب والدموع على خديه:

-قتلته!

مدّ هذّال الحسن يده إلى مسدسه وأطلق ثلاث رصاصات إلى رأس الأب.. وبعد أن سُحبت جثتا الأب والابن خارجاً، وظلّ ابن عيسى في الزاوية دون أن يرفع رأسه، كان هذّال الحسن الذي لفّ رِجْلاً على رِجْل، يبتسم وهو يحرّك قدمه المرفوعة عن الأرض بحركات منتظمة، ويتابعها مستغرقاً في عالم آخر، كان يستعيد رقصة منيرة على أرض المقبرة، يتراءى لـه الخنجر يلمع تارة ويلمع ثوب منيرة الحريري الأسود. تراءى لـه غالب الوالبي وقد مدّ يده إلى يد منيرة فاشتبكت الأصابع بالأصابع، وتلامست قدماه بقدميها أكثر من مرّة، أحسّ أن شعاعاً من عينيها ينضم إلى شعاع من عينيه، اشتباك للأصابع، تلامس للأقدام، شعاع من العينين إلى العينين.. كأن هناك تواطئاً سرياً يتمّ بينهما دون لغة، يكتفي بالإشارة في عالم يتوجّه الرقص. أحسّ للحظة أن منيرة قد تعرّت، رمت بثوبها الأسود جانباً. لمعت بشرتها البيضاء فأضاءت كما الهالة. لامس نهداها الممتلئان صدر غالب الوالبي. تراءى لـه أن وسطها يلتصق بوسطه، ولم يبق إلاّ حاجز شفاف لتضجّ (الشهوة، ودون وعي منه صرخ وهو يقف غاضباً، وقد ضرب بقبضة يده إلى الطاولة الخشبية:

-لا...

وإذ دخل الجلاد مسرعاً، وعلى وجهه علامات الدهشة والرعب، قال هذّال الحسن:

-ابتروا عضوه التناسلي وضعوه في فمه.

سأل الجلاّد في دهشة:

-عضو من يا سيدي؟

قال هدّال الحسن نزقاً:

-عضو من؟... عضو غالب الوالبي يا حمار!

قال الجلاّد، وهو يستغرب ما يسمع: سيدي... غالب الوالبي في المقبرة.

اقترب هدّال الحسن من الجلاّد وهزّه من كتفه، وقال صارخاً وقد تناثر الزبد من فمه على وجه الجلاّد:

-انبشوا القبر.. وابتروا العضو وضعوه في فمه.

وتلفت إلى ابن عيسى: ثم قال للجلاد: وهذا الكلب أبعدوه عن وجهي!

***

المنخورة هي المنخورة. شوارع فسيحة ومتربة، أزقة ضيقة ومتربة. قرية كانت مطوقة بالسكينة والهدوء، وفلاحون ينتظرون المواسم فيفرحون ويغنون ويرقصون في "ساحة المهابيل" حيث أبو حساباً على مزماره، وطه الأعمى كان يضرب على طبله، ومهما كان المواسم وفيراً أو قاحلاً، كانوا يحمدون الله، فلاحون يحملون من كرومهم العنب على ظهور حميرهم، فلا يمرّ بهم عابر طريق إلاّ واقسموا أن يشاركهم شيئاً مما منّ الله به عليهم، ولا ينسون جيرانهم، وما يبقى من العنب، فهو رزقهم، "ولا يأكل أحد إلاّ رزقه"..

تلك أزمنة عاشتها المنخورة، وها هي ذي تعيش أزمنة أخرى، أضحت الأشياء القديمة حلماً، كأن ألسنةً من النار أتت على كل الأشياء القديمة الأصيلة والجميلة فأحرقتها. لم يبق غير الهشيم.. أزمنة جديدة تعيشها المنخورة، في قمتها يخور النفاق كما تخور الأبقار. تتحرّك الألسنة في أفواه أغلبية سكانها كثيراً، لكن حركتها كالكتابة على الماء دون طعم ولا لون ولا رائحة، تبتسم الوجوه مثلما تبتسم الشفاه، لكنها البسمات التي لا تفارقها صورة قبو قاسم المدهون ونباح كلابه.

قليلون يتذكرون أبا حسين القحطاني، لكن الكثيرين يتذكرون ابن عيسى في وقفته على تلك الصخرة في "ساحة المهابيل" منذ سنين مضت، حينما قال:

-هل أتاكم حديث الغاشية؟... ليعلم حاضركم غائبكم.. سوف يأتيكم حديث الغاشية..

المنخورة هي المنخورة عاشت أزمنة تستعيدها حلماً جميلاً، وهاهي ذي تعيش أزمنة تضغط على صدرها كابوساً رهيباً ونباح مسحوراً وتحفر القطط بمخالبها وأسنانها جسداً في كيس من القّنب.

4

لم يكن ينظر إلى هذّال الحسن بعينيه، بل كان ينظر إليه من خلال توجسه و ذلك الحذر الذي أضحى ينمو في أعماقه بسرعة كبيرة مذهلة، كتلك السرعة التي استطاع فيها القلق أن يرسم خطوطاً طولانية ومتعرّجة على جبهته، وكذلك الارتخاء الذي صار يبدو في جلد رقبته.

كان باستطاعته فيما مضى من أيامه أن يضخّم أحلامه لتغدو واقعاً... ويشرب.

كان باستطاعته، فيما مضى من أيام صعوده، أن يفكّر بمنيرة، بدءاً بعينيها وحتى كعبيها اللذين يكاد ينفر منهما الدم..ـ ثم يترك فسحة من الزمن ليتمكن من اغتصابها.. ويشرب.

صار ينظر إلى كل الأشخاص والأشياء بتوجس وقلق، يتمنى أن يرتشف كأساً صغيرة من الخمر، ولكنه أضحى مُتْعَباً من كبد مريض ومعدة تعاني من القرحة، فيقف حزيناً غاضباً وهو يهزّ رأسه. تتلجلج الكلمات في أعماقه. تصعد وتهبط، وتبقى حبيسة وراء شفتيه، فيكتفي بالنظر إلى الآخرين بعينيه محدثاً نفسه:

-لم أعد أثق بأحد، حتى أنت يا هذّال الحسن.

وضرب على طاولته بمطرقة خشبية، وإذ دخل رجاله، قال:

-احضر كأساً من الخمر.

وما أن خرج الرجل، حتى تقدّم هذّال الحسن من طاولة قاسم المدهون، وبكلمات تتصنّع الخوف، قال:

-سيدي.. أرجوك.. أنت ملاذنا وطمأنينتنا، لا تتركنا يتامى من بعدك.

وحاول أن يترك لدى هذّال الحسن انطباعاً إنه ينظر إليه، فابتسم وقال:

-لا تخف.. لا تخف يا هذّال.. لن أشرب، لكنني سأكتفي بأن أشمَّ رائحة الخمر.. إنه العشق القديم.

كلما أغمض عينيه ورفع الكأس إلى أنفه ليشم الرائحة، كانت ثمة وجوه، فيها ملامح لغالب الوالبي وطه الأعمى وأبي حسين القحطاني، تعكر عليه صفو اللحظة.

يأخذ نفساً عميقاً من حافة الكأس، وعندما تلامس الخمر شفتيه، يمدّ لسانه ليمتصّ ما علق بها من قطرات، من زاوية فمه اليسرى يمتص قطرات العرق كأنه في لحظة توحّد مع الخمر التي كان عليه أن لا يقربها.. وإلا فالموت.

أغمض عينيه أخيراً ورفع الكأس إلى أنفه ليشّم رائحة الخمر، وقد قرر أن لا تلامس شفتاه حافة الكأس

شتّان بين تلك الليالي وهذه الليالي التي يعيش. كانت ليالية مع صبّوحة الخليل تنتهي قبيل الفجر بقليل. ليعود خفيف الروح، متثاقل الجسد، يحسّ أن لرطوبة الفجر أو برودته معنى آخر. كان يعود مترنّحاً في أزقة المنخورة وحواريها، لكنه كان يحسُّ أن للحياة طعماً حلواً لا يتكور في فمه فقط، بل يحسه طعماً كالشهد ينساب في خلايا جسده. أين تلك الليالي التي لم تعد إلا ذكرى؟.. يملك الآن، وهو في مبنى الإمارة، كل شيء.. ؟؟ الرجال والبنادق والمال والكلابّ، ما عليه إلا أن يشير لهذّال الحسن حتى يرفرف الموت بجناحيه الأسودين فوق عالم أولئك الذي أشار إليهم (بظروف غامضة)، لقد استطاع أن يجعل من هذّال الحسن مجرد أداة تلبي رغباته الداخلية، ولكنه هو- قاسم المدهون- صار يمثل مبدأ العطالة، كم يحنُّ لتلبية رغباته الداخلية بنفسه، كم يودُّ لو ينبت جناحان أسودان على جانبيه فينشر الموت أينما حلّ وأينما ارتحل. لقد أضحى عاطلاً "من الفعل،صار فقط يكتفي بالإشارة والكلمات، وما على هذّال الحسن وأعوانه إلا تنفيذ الإشارات والكلمات بحرفيتها، يودّ من أعماقه أن يضرب بيديه، كما كان يضرب صبّوحة الخليل في بعض لياليه عندما تضجُّ الخمرة في أعماقه، كان يحسُّ بنشوة النصر وهو يراها تنظر إليه بحقد، ولكن شياطينه الداخلية تقف متوثبة، متحفزة أمام تلك النظرة فينهال عليها ضرباً" وهو يصرخ:

-لا تنظري إليّ هكذا...ـ انظري إلى الأرض يا عاهرة!

وإذ تنظر صبّوحة الخليل إلى الأرض، كان يأخذ الكأس، ويدلقه- دفعة واحدة- في أعماقه، كان لا يحس بحرقة الخمرة وهي تسيل في أمعائه بل كان يشعر بالرضا، وأن تلك الخمرة إنما هي مجرد مياه باردة تلطف من وهجه الداخليـ

كم يحنُّ إلى تلك الليالي، لكنه لن يستطيع إلا أن يجترَّ حنينه ويطوي أحلام يقظته مع الذكرى. لن يستطيع- بعد الآن- أن يفعل شيئاً "لأنه إنما صار يمثل العطالة في أبشع حالاتها. كم يحاول أن يهرب من الذكرى التي تلاحقه. يحاول أن يهرب منها، لكنها تظل مصِّرة على ملاحقته. يتذكر تلك الطيور التي انقضَّت على عيني أبيه، فيحسن أن عالماً" لا تتحرك فيه إلا الكوابيس وتجثم فوق صدره.. يمدُّ يده إلى عينيه ليبعد تلك الطيور، فتتشبث نفسه بصدى ضحكة هذال الحسن ونظراته. يتراءى لـه فم هذّال الحسن وهو يضحك

انفتل في كرسيه، ليلقي برأسه إلى يديه متسائلاً:

-هل يمكن أن يأتي يوم فيقتله هذّال الحسن؟

وضرب على جبينه، ثم وقف متقدماً" إلى النافذة حيث أطل على بيوت المنخورة، ودون أن يرى بيتاً " واحداً كان هناك غشاءً بين عينيه وبين بيوت المنخورة، ومع هذا فقد قال:

-لم أعد أثق بأحد.... حتى بنفسي، لم أعد أثق.

وبحركة لا شعورية ارتفعت يده التي في بنصرها خاتمه الذهبي وبعد أن تلمسَّ الخاتم الذي صار فضفاضاً" على إصبعه، قال لنفسه:

-كم تلمستك صبّوحة الخليل في لياليا.. وكم حاولت أن تلهو به ولكنه كان عصيّاً عليها، ما كان باستطاعتها أن تنتزعه من يدي و ما كان باستطاعتها أن تديره في اصبعي.

وبعد فترة صمت، أضاف بحزن:

-أما الآن....ـ

ولم يكمل، بل اكتفى بأن مدَّ أصابع يده الأخرى ليلهو بالخاتم بحركة دائرية، وشالت النفس بما يشبه الحسرة على أيامه الحاضرة:

-ثم ماذا؟ الأيام تمضي... والعمر يمضي؟ والجسد يترهّل والتجاعيد تتكاثر فوق الجبين والرقبة.. كما الضفدعة.

وتلفّت إلى كرسيه بنظرة عميقة، وأكمل:

-وهذّال الحسن طامع في هذا الكرسي...ـ ولكن ما دام الهواء يدخل ويخرج من أنفي فلن أمكّنه من ذلك.

وبصوت أعلى قال وقد تقدم من الطاولة بعد أن ضرب على سطحها الزجاجي بقبضة يده:

-لن أمكّنه من ذلك..

وعندما نظر إلى زجاج طاولته، تاهت عيناه بعيداً، حيث تراءت لـه أفعى تسقط من مكان ما لتقع على طاولته، وعندما تراجع إلى الوراء، انتصبت الأفعى على ذنبها، وأخرجت لسانها بعيداً عن فمها وراحت تتراقص به أمام عينيه، فصرخ وهو يقف مذعوراً:

-هذّال الحسن... أصبحتَ أفعى وما على الأفعى إلا أن تموت.ـ

***

وردّ هذال الحسن ساخراً:

-((كنت أقول: أريد اللذة النابعة بصدق من امرأة)).

وأطلق من أنفه نخرة لتؤكد تهكمه أكثر، وقال لنفسه:

-((لقد أضحى ذلك شعاراً قديماً...))

لم يعد هذّال الحسن يفكر بالمال والشهرة، فلقد حفر في داره حفرة، ووضع صندوقين خشبيين ممتلئين بالمال فيها، وعندما نفض يديه من التراب الذي علق بهما، قال لنفسه: وهو ينظر إلى أسطحة المنازل المجاورة:

-مال يكفيني حتى يوم القيامة، أنا وذريتي

وبعد أن نخر من أنفه نخرة تؤكد سخريته مرة ثانية، قال وهو يرتشف رشفة أخرى من كأس العرق:

والشهرة لست بحاجتها، كنت أركض من أجلها، أما الآن فهي التي تنبطح تحت قدمي.

لم يعد يفكر بالمال والشهرة، ولكنه صار يفكر منذ عرف قاسماً "المدهون وقد أضحى قلقاً لذلك الترهل في رقبته، أن شمسه يجب أن تبزغ، يجب أن تنتشر فوق المنخورة وما يجاورها، وبأصبعه الوسطى نقر على صدره عدة مرات، وهو يقول:

-كيف سأنتهي من قاسم المدهون الذي لم أعد أثق بنظراته؟ كيف سأنتهي منه بعد أن أضحى رجلاً لا يثير إلا كراهيتي.."؟

استدار بكرسيه جانباً، وبلحظة ضجر عاد إلى جلسته الأولى، وراح يبحث ببعض الأوراق على طاولته، وبعينين زائغتين، توقف عند كلمات كتبها أحد بصاصيه:

((تعبنا من الدناءات... ماذا يريدون؟ هل يريدون منا أن نأكل التراب ليبنوا القصور؟.. لم يعد في المنخورة رجال، كلهم أذناب...)).

أزاح الورقة جانباً، وهو يضغط على فكيه بعصبية:

((حتى العاهرة صبّوحة الخليل تتكلم بالدناءات، وتبحث عن الرجال... أي رجال هؤلاء الذين تبحث عنهم صبّوحة الخليل؟...))

وتابع بحقد:

-قاسم المدهون اكتفى بالمنخورة، أما أنا، فعليّ أن أبسط قوتي على المنخورة وما يجاورها.

قال أبو المدّاح الأشرم يوماً:

-القناعة كنز لا يفنى.

ابتسم بحقد، وقال متهكماً:

-طز!

ثم أكمل، وهو يضع كأس العرق فارغاً على طاولته:

- القانعون هم الجبناء، وهم يرددون هذه الكلمات، لأنهم عاجزون عن الفعل.. خلقوا ليكونوا تابعين وأعواناً... ومازلت أنا حتى الآن تابعاً، فكيف يمكن أن أكون أميراً. مهما حاولت أن أكون، فلن أكون في نظر الناس، إلا من رجال قاسم المدهون، كيف لي أن أكون هذا الحسن وليَّ رجالي وأعواني وكلابي؟".

وبعد أن ألقى برأسه إلى رؤوس أصابع يده اليسرى، قال وهو يضرب على الطاولة بقبضة يده اليمنى:

- يجب أن يرحل قاسم المدهون وعليّ أن أكون أميراً على المنخورة.. سأبدأ بالدم، ثم أنفتح على جارات المنخورة. أدرك أن الناس صاروا يعانون من الجوع ويركضون بحثاً في أيام

الشتاء عن قطرة من النفط، أدرك أن أجسادهم وأرواحهم أنهكها الوقوف أمام بائعي الخضار والسكر والأرز والسمن والزيت للحصول على قوتهم اليومي. انهكهم الانتظار والوقوف في طوابير طويلة وأعرف أن أكثرهم إذ يعود إلى بيته خالي الوفاض فإنه يشتم قاسماً المدهون، ولكنهم في الصباح حيث تبتلعهم شوارع المنخورة فإنهم لا يستطيعون إلا أن يحركوا شفاههم وألسنتهم لتسبِّح بحمد قاسم المدهون والدعاء لـه بطول العمر والبقاء... أدرك ذلك، ولهذا سأبدأ بالدم ثم انفتح على جارات المنخورة لأحصل على كل ما تحتاج إليه المنخورة وناسها من لقمة العيش.. سأبدأ بخنجري في أحشاء قاسم المدهون، ثم على جدران المنخورة الخارجية أن تُطلى باللون الأبيض وإلا فما معنى أن تظل المنخورة على حالها السابق كما في زمن قاسم المدهون؟

قد لا أحتاج في البداية إلى خنجر، ربما أحتاج إلى قبضة يدي، لأضغط لها على عنق قاسم المدهون، ثم بعد ذلك لا بدَّ من زراعة الدفء في البيوت، يكفي البشر ما عانوه من صقيع وبرد، ولا بد من وجود مقهى أو أكثر فالناس بحاجة إلى اللهو والثرثرة..

ولأنه أحس كأن نصلاً قد انغرس في خاصرته، فقد توقف عن الاسترسال، وقال:

- أجل.. أعرف أنني سأعطي الناس الكثير، ولكن بالمقابل لن أنسى عالم البصاصين.. سأعمل على الاستزادة منهم، سأضعهم في كل مكان.. ولو أنني أستطيع سأزرع في كل بيت بصاصاً، لو أنني أستطيع، سأضع بصاصاً بين الزوج وزوجته وبين الأب وابنه وبين الأخ وأخيه....

أريد أن أصعد عالياً في عالم المنخورة ولن يكون الصعود سهلاً... سأبدأ بالقتل وبالكلمات المعسولة!..

وبعد أن ضغط على فكيه بقوة حتى أحسَّ بألم في لثته، قال:

-البداية دم، ولن تكون النهاية ارتشاف فنجان من القهوة...

وبعد أن امتدت يده إلى كأس العرق، وراحت تدور بين أصابعه على الطاولة، وهو يتأملها شارد العينين، قال:

كم يبدو العالم واضحاً أمامي الآن.. أنه أرض مزروعة بالقمح والشعير والزؤان والأشواك.. وأن أردت أن تكون الأمور بيدي، فلا بد من القتل. يجب أن أنتهي من قاسم المدهون.

وتراجع في كرسيه إلى الوراء قليلاً ليتمكن من وضع رجليه على زاوية الطاولة، وبعد أن ارتشف كأس العرق عن آخره، باحت نفسه لنفسه وهو يتأمل حذاءه:

لو بقيت حيَّة حتى الآن ياعمشة، لعرفت أن هذّال لم يعد تابعاً لقاسم المدهون، ولكنه سيكون أميراً على المنخورة. قريباً سأكون أميراً على المنخورة.

***

- سيكون هناك في عالم المنخورة حزن على وجوه الناس، فلقد قُتل قاسم المدهون!.. ستكون هناك دهشة كبيرة على وجوه الناس، وأسئلة وتأوّلات، فلقد مات الكثيرون قبله.

ستكون..ـ وستكون..ـ ولكن هذال الحسن.. منذ هذه الليلة سيكون، أميراً على المنخورة..

وانتفض واقفاً ليتأكد من وجوده، ليتأكد من وجود عالم المنخورة، أنه وهو يستمع إلى عواء ذئب جائع ونباح كلاب، ربما كانت تدافع عن نفسها، قال هامساً:

"مملكتي لن تقوم إلا على التحالفات، سأتحالف مع الشيطان، ولا بدّ من زرع العداوة بين الناس في المنخورة، وبعد ذلك سأتربع على العرش آمناً مطمئناً"...

كل شيء منذ الآن سيكون ملكه...

..أمسك بكأس الخمر، رفعها بيده إلى الأعلى، وبلحظة لا يستطيع لها تفسيراً، دلق ما بقي فيها في جوفه..ـ

***

درب طويل ومتعرج سيكون.

درب طويل وشائك على هذّال الحسن أن يسلكه..

لكن ابن عيسى.. تمتم لصبّوحة الخليل على المقبرة غاضباً:

-صبّوحة!..

أشارت لـه بسبابتها وهي تضعها على فمها ليسكت، ولكنه تابع قائلاً:

-صبوحة!.. لم يأتِ حديث الغاشية...

وبهمس قالت:

-يا مهبول!

قال:

-صبّوحة.. أشمُّ رائحة نتنة... كم أكره حاسة الشم عندي!

حاولت أن تمسك به، لتذهب وإياه بعيداً عن المقبرة وآذان البصاصين وعيونهم، ولكنه قال:

-صبّوحة!! البول نتن، ولكن نتانة نفوسنا أنتن وأبشع!

ثم وقف، وظل يردد، وهو يبتعد عن عالم المقبرة:

-نَتَنُنا أبشع...

نَتَنُنا أبشع... يا صبّوحة!

1989-1992

■■■

للكاتب

- قرية بلا ظل قصص قصيرة دمشق – 1977
- محاولة لاغتيال الحزن قصص قصيرة دمشق – 1982
- طقس في الزمن الرمادي رواية دمشق- وزارة الثقافة- 1984
- إعادة رتيبة لسيرة معاصرة رواية دمشق- وزارة الثقافة- 1987
- لن يغرق في البحر قصص قصيرة دمشق- وزارة الثقافة- 1993

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

المنخورة: رواية/ عبد الإله الرحيل – دمشق: اتحاد الكتاب العرب،
2002 – 215 ص؛ 20سم.

1- 813.03 ر ح ي م
2- 813.009561 ر ح ي م
3- العنوان 4- الرحيل

ع- 2002/1282/7 مكتبة الأسد

❑❑

عبد الإله الرحيل

مواليد: 15/3/1947
ـ إجازة جامعية ـ علم الاجتماع ـ جامعة دمشق ـ 1981.
ـ يعمل في الصحافة منذ سنة /1976/ صحيفة تشرين.
ـ عمل رئيساً للقسم الثقافي في جريدة تشرين.
ـ ثم مشرفاً على (مدارات)؛ الملحق الثقافي في جريدة تشرين منذ سنة
/2000/ وحتى الآن.
ـ له عدة مؤلفات أدبية في القصة القصيرة والرواية.
ـ عضو في اتحاد الكتاب العرب ـ جمعية القصة والرواية.
ـ عضو في اتحاد الصحفيين.

❐❐